فهرس (١)

الباب الرابع

كتاب النقد الأدبى

الباب الخامس

كتاب الآراء والمذاهب

الباب السادس

كتاب الرسائل والعهود

(١) انظر (الفهرس المفصل) فى آخر الجزء

الباب الرابع

كتاب النقد الأدبي

١ – أبو الحسن الجرجانى

١ – إن للرجل الذى نتحدث عنه فى هذا الفصل فضلا على علوم اللغة العربية يجب أن يعرفه طلاب الأدب والبيان .

ويكفى فى تقدير فضله أن نشير الى أنه أستاذ عبد القاهر الجرجانى صاحب "أسرار البلاغة" و"دلائل الإعجاز"(١) . وسيرى القارئ فى درس هذه الشخصية ما لم يكن ينتظره من درس شخصيات الفقهاء .

فأبو الحسن هـذا قاض من كبار القضاة عند الشافعية، ولكنه بالرغم مما يحيط بوظيفة القضـاء من قيود الرزانة وأغلال الوقار : رجلٌ طليق العقل، حىّ الإحساس، حر الوجدان يلقى الى فطرته القياد فيما يعمل وما يقول . وأى خسارة كانت تُرزَء بهـا الآداب العربيـة لو توقر هـذا الرجل وترهب وألقى بنفسـه فى تيار الجمود ! وأى خطر كان يحـدق بالقضاء لو أصمّ هـذا القاضى مشاعره، وأمات ذوقه، ودفن إحساسه، وأغمض عينيه عما فى هذا العالم من فنون السحر، وضروب الفتون !

أفتحسب القضاة بنجوة عما تعرض له النفس الانسانية من ظلمات الفتن وعواصف الأهواء ؟ إن أوّل صفات القاضى فيما أعتقد أن يكون "إنسانا" له فى حياته ما يخضع له من مطامع العقل، وأمانىّ النفس، وحاجات الفؤاد . وإلا فكيف يحكم بين الناس وهو لا يحس بمـا تدين له النفس الانسانية من نزوات المشاعر، وهفوات العقول ؟

٢ – ولد أبو الحسن على بن عبد العزيز فى مدينة جرجان سنة ٢٩٠ للهجرة . وجرجان هذه مدينة مشهورة بين طبرستان وخراسان، كما ذكر ياقوت . وقد خرج منها عدد من الأدباء

(١) هكذا يقول ياقوت فى معجم الأدباء ص ٢٤٩ ج ٥ ، ولكنه يقول فى ص ٣ ج ٧ : إن عبد القاهر ليس له أستاذ سوى محمد بن الحسين ابن أخت أبى على الفارسى ، وكذلك قال السيوطى فى بغية الوعاة ص ٣١٠

والعلماء والفقهاء والمحدثين . وكانت لعهد من عُرفت بهم من كبار الباحثين مشهورةً بالصناعة المتينة، والفواكه الكثيرة : فكان فيها الإبريسم الجيد الذى لا يستحيل صِبغه ، والذى كان يحمل الى جميع الآفاق ، وكان بها كثير من النخل والزيتون، والجوز والرمان، وكان بها ما شاء القناص من الأجادل والزرازير، والظباء واليعافير . وكانت فوق هذا كله مشهورة بالخمر، وفيها يقول ابن خريم، أو الأقيشر اليربوعى — تردّد فى ذلك صاحب معجم البلدان — :

وصهباء جرجانيـــة لم يطف بهـا — حنيف ولم ينغر بهـا ساعةً قِـدرُ

ولم يشهـــد القَس المهيـمن نارها — طروقا ولم يحضر على طبخها حَـبر

أتانى بهـا يحيى وقـــد نمت نومة — وقد لاحت الشعرى وقد جَنح النسر

فقلت آصطبحها أو لغيرىَ فآسقها — فمـا أنا بعد الشيب ويحك والخمر

تعففت عنها فى العصور التى مضت — فكيف التصابى بعد ما كَلأ العمر[1]

إذا المرء وفّى الأربعيـن ولم يكن — له دون ما يأتى حياءٌ ولا ســتر

فدعه ولا تنفس عليـــه الذى أتى — وإن جرَّ أســباب الحياة له الدهر

قال ياقوت : وكان أهل الكوفة يقولون: من لم يرو هذه الأبيات فانه ناقص المروءة[2] .

ونرى أن لوفرة ما كان بجرجان من الفواكه ولشهرتها بالخمر تأثيرا فيما كان لأهلها من رقة الحس ، ودقة الذوق . وفى ظلال هــذه المدينــة المتفنّنة فى تنسيق المزارع والمصــانع نشأ أبو الحسن الذى برع من تقدّمه من الكاتبين فى أساليب البيان .

٣ — ولقد ظلت جرجان أثيرة لديه طول حياته وكان الصاحب بن عباد فيما قال يقسم له بها من إقباله وإكرامه أكثر ممـا يتلقاه به فى سائر البلاد .

قال : وقد آستعفيته يوما من فرط تحفّيه بى وتواضعه لى فأنشدنى :

أكرم أخاك بأرض مولده — وأمدّه من فعلك الحســن

---

(١) كلأ العمر : انتهى الى آخره وأقصاه .

(٢) ورد حديث هذه الأبيات قبل ياقوت فى الأمالى . انظر ص ٧٥ ج ١ طبع بولاق .

فالعـــز مطلوب وملتمسٌ　　　وأعزه ما نيل فى الوطنِ

ثم قال : قد فرغت من هذا المعنى فى العينية . يريد قوله :

وشيدت مجدى بين قومى فلم أقل　　　ألا ليت قومى يعلمون صنيعى

قال : والأصـل فيه قوله تعـالى : ﴿ يا ليت قومى يعلمون بما غفر لى ربى وجعلنى من المكرمين[1] ﴾ . ورغبة الرجل فى أن يكرم فى وطنه وبين أهله من الأمانى الانسانية التى تحدث بها الشعراء فى مختلف الاجيال .

قال الثعالبي : "وكان فى صباه خلف الخضر فى قطع عرض الأرض وتدويخ بلاد العراق والشـام وغيرها واقتبس من أنواع العلوم والآداب ما صار به فى العلوم علَما، وفى الكمال عالمَـا . ثم عرّج على حضرة الصاحب وألقى بها عصا المسافر فاشتد اختصاصه به ، وحل منه محلا بعيـدا فى رفعته ... وتقـلد قضاء جرجان من يده . ثم تصرفت به أحوال فى حياة الصاحب وبعد وفاته بين الولاية والعطلة . وأفضى محله الى قضاء القضاة بالرى فلم يعزله عنه إلا موته رحمه الله[2]". وكانت وفاته بالرى يوم الثلاثاء لست بقين من ذى الحجة سنة ٣٩٢ — وحمل تابوته الى جرجان فدفن بها . وحضر جنازته الوزير القاسم بن على وأبو الفضل العارض راجلين . فيما ذكر ياقوت[3] .

٤ — ألف أبو الحسن الجرجانى فى الفقه والأدب والتاريخ . أما تآليفه فى الفقه فلم يصلنا منه شيء . وقد جاء فى طبقات الشافعية أنه صنف كتابا فى الوكالة فيه أربعة آلاف مسألة . ولو وصل إلينا هذا الكتاب لعرفنا كيف استطاع هذا القاضى الأديب أن يخدم التشريع . وأما تآليفه فى التاريخ فلم يُعرف منه الا كتاب تهذيب التاريخ وهو كتاب وصفه الثعالبي بأنه (تاريخ فى بلاغة الألفاظ وصحة الروايات وحسن التصرف فى الانتقادات[4]) وقد ضاع هذا الكتاب ولكن الثعالبي حفظ لنا منه فصلين اثنين يمكن أن نعرف منهما منحى هذا الرجل فى دراسة التاريخ :

(١) ص ٢٥٢ ج ٥ معجم الأدباء .　(٢) ص ٢٣٨ ج ٣ يتيمة　(٣) ص ٢٤٩ ج ٥

(٤) ص ٢٤٢ ج ٣ يتيمة .

فهو يبين فى الفصل الأول أن من غرضه أن يكشف عن مغازى رسول الله وحروبه ، وعن سراياه وبعوثه ، ومتى قارب ولاين ، وفى أى وقت جاهر وكاشف — ويبين فى الفصل الثانى أنه يرمى بكتابه الى غرض دينى وغرض دنيوى : فيبين من الوجهة الدينية كيف طمس الله معالم الشرك ، وأوضح معارف الحق . ويترك من الوجهة الدنيوية أثرا يذكر به عند الصاحب ابن عباد ... وهـذا الاتجاه يدل على أن هـذا الرجل كان يستخدم التاريخ فى نشر الدعوة الاسلامية . وآستخدام التاريخ فى الأغراض الدينية والسياسية يحمل المؤرخ على مكاره كثيرة ينجو منها من يحاول أن يحمل التاريخ صورة صادقة للأمم والشعوب . وقد يكون للصاحب بن عباد مثلا ميلٌ خاص الى بعض الأحزاب الاسلامية . ولهذا أثره المحتوم فى كتاب يوضع بنيته وإرشاده . وتلك خطة قد تكون نبيلة باعتبار ما ترمى اليه : فطالما آعتزت الأمم بما قد يصوَّر به ماضيها من شتى التهاويل . ولكنها خطة خطرة على التاريخ .

أما تاليفه فى الأدب فقد بقى لنا منه "كتاب الوساطة بين المتنبي وخصومه" وسنعود اليه . وأما آثاره الأدبية فلم يبق منها إلا طائفة من الشعر المختار هى عدتنا فى تصوير نفس ذلك القاضى الأديب .

٥ — كانت نفس القاضى على بن عبد العزيز الجرجانى نفسا غالية : فلقد ترك لنا فى شعره صورة لنفسه الأبية العزيزة ، التى حرمت عليه طيبات الحياة : إيثارا للعزة والأنفة والكرامة ، وصونا للعرض من الدنس ، وإبعادا للروءة عن مواطن الآبتذال . وسيرى القارئ حين نقدّم له صورة تلك النفس الغالية ، الغالية . ولو شئت لكررتها ثلاثا . سيرى فيها عزاءً له إن كان من الذين وقفت نفوسهم الأبية فى سبيل ما يشتهون من بسطة الرزق ، وصولة الجاه . ومن ذا الذى يقرض الله قرضا حسنا فينقل ما نكتب عن هذه النفس الى من خلعوا نفوسهم عند أبواب المطامع ، وأقبلوا على مصارع الفضل مهطعين؟ لقد عزّت نفس قاضى القضاة وأسرفت فى التصوّن ، إن كان فى التصوّن إسراف ، وما زالت به تصدّه عن مواطن الشبهات ومظان الرِّيب والظنون حتى زينت له العـزلة والآنفراد . وشعره فى هـذا المعنى مثـال من

الأمثلة العليا التي يعتز بها كبار النفوس . فليسمع أهل العلم كيف يصف نفسه ذلك العزيز الأنوف :

يقولون لى فيك انقباضٌ وانما ... رأوا رجلا عن موقف الذل أحجما
أرى الناس من داناهمو هان عندهم ... ومن أكرمته عزة النفس أكرما
وما زلت منحازا بعرضيَ جانبا ... من الذم أعتدّ الصيانة مغنما
اذا قيل هذا مشرب قلت قد أرى ... ولكنّ نفس الحر تحتمل الظما
وما كل برق لاح لى يستفزنى ... ولا كل أهل الأرض أرضاه منعما
ولم أقض حق العلم ان كان كلما ... بدا طمع صيرته لىَ سُلما
ولم أبتذل فى خدمة العلم مهجتى ... لأخدم من لاقيت لكن لأُخدَما
أأشقى به غرسا وأجنيه ذلة ... إذن فآتباع الجهل قد كان أحزما
ولو أن أهل العلم صانوه صانهم ... ولو عظموه فى النفوس لعُظما
ولكن أهانوه فهانوا ودنّسوا ... مُحيّاه بالأطماع حتى تجهما

وفى هذا المعنى يقول من كلمة ثانية :

على مهجتى تجنى الحوادث والدهرُ ... فأما آصطبارى فهو ممتنعٌ وعرُ
كأنى ألاقى كل يوم ينوبنى ... بذنب وما ذنبى سوى أننى حر
فان لم يكن عند الزمان سوى الذى ... أضيق به ذرعا فعندى له الصبر
وقالوا توصل بالخضوع الى الغنى ... وما علموا أن الخضوع هو الفقر
وبينى وبين المال بابان حرّما ... علىّ الغنى : نفسى الأبية والدهر
إذا قيل هذا اليسر عاينت دونه ... مواقف خيرٌ من وقوفى بها العسر
إذا قدّموا بالخير قدمت دونهم ... بنفس فقير كل أخلاقه وفر

فى هاتين الكلمتين صورة لتلك النفس المعذبة التى قضى عليها الفضل بالشقوة والحرمان. وأشرف ما وصف به ذلك القاضى حظه من العزة تصويره للطيبات تُعرَض عليه عرضا فيأباها إيثاره للصون وحرصه على الجلال . يتمثل هذا فى قوله :

إذا قيل هذا مشرب قلت قد أرى ولكن نفس الحر تحتمل الظما

وقوله :

إذا قيل هذا اليسر عاينت دونه مواقف خيرٌ من وقوفى بها العسر

وقوله :

وبينى وبين المال بابان حرّما علىّ الغنى : نفسى الأبية والدهر

ويرحم الله من يعانى ثورة النفس، وقسوة الزمان !

٦ — وما أحب أن أترك هذه الناحية من أبى الحسن الجرجانى قبل أن أقف القارئ على لون آخر من ألوان تلك النفس ، فقد رأى كيف يثور على زينة الحياة الدنيا سخطا على ما يصحبها من مواقف الهوان . فلينظر كيف يعتذر من آنقباضه عن أخويه، وكيف يلمح برفق ولطف الى ما طوى عنه إباؤه من أسباب النعيم ، وكيف أنس بالوحدة والوحشة هربا من مواقع الظنون ، وكيف جعل نفوره من العالم سجية فطر عليها منذ قضى الله أن يلق به فى ظلمات هذا الوجود، وذلك حيث يقول :

أيا معهد الأحباب ذكّرهمُ عهدى ودُم لى وإن دام البعاد على الودّ

ولى خُلُقٌ لا أستطيع فراقه يفوّتنى حظى ويمنعنى رشدى

نفور عن الإخوان من غير ريبة يعدّ جفاءً والوفاء لهم وكدى

غذيت به طفلا فان رمت هجره تأبّى وأغرتنى به ألفة المهد

كما ألفتْ كفاكما البذل والندى فأعياكما أن تمنعا كف مستجدى

على أننى أقضى الحقوق بنيتى وأبلغ أقصى غاية القرب فى بعدى

ويخدمهم قلبى وودّى ومنطق وأبلغ فى رعيِ الذمام لهم جهدى

فإن أنتما لم تقبلا لىَ عذرة وألزمتمانى فيه أكثر من وجدى

فقولا لطبعى أن يزول فانه يرى لكما حق الموالى على العبد

٧ — كان القاضى أبو الحسن الجرجانى من المغرمين بالتغريد على أفنان الجمال . وشعره فى وصف الملاحة ذو أفانين وشجون . فقد نراه يترنم بمظاهر الحسن ، ويتغنى بما فضح الشباب من أسرار الصباحة . كقوله — فى الخدّ المورّد والطرف الكحيل — :

أُنثر على خدّىَ من وردك ... أو دع فمى يقطفه من خدّك
ارحم قضيب البان وآرفق به ... قد خفت أن ينقدّ من قدّك
وقل لعينيك بنفسى هما ... يخففان السقم عن عبدك

وقوله — فى مغازلة النديم — :

أفدى الذى قال وفى كفه ... مثلُ الذى أشرب من فيه
الورد قد أينع فى وجنتى ... قلت فمى باللثم يجنيه

وقوله — فى فتنة الألحاظ — :

من ذا الغزال الفاتن الطرفِ ... الكامل البهجة والظرفِ
ما بال عينيه وألحاظه ... دائبة تعمل فى حتفى
واهًا لذاك الورد فى خدّه ... لو لم يكن ممتنع القطف
أشكو الى قلبك يا سيدى ... ما يشتكى قلبىَ من طرفى

وقوله — فى آختلاس التقبيل — :

وغنج عينيك وما أودعت ... أجفانها قلب شجٍ وامقِ
ما خلق الرحمن تفاحتىْ ... خدّيك إلا لفم العاشق
لكننى أُمنَع منها فما ... حظىَ إلا خلسة السارق

وقوله — فى القسم بجنود الجمال — :

لا وجفون يغضها العذَلُ ... عن وجنات تذيبها القُبَلُ
ومهجة للهوى معرضة ... تعبث فيها القدود والمقل
ما غاب من غاب عن ذراك وان ... أخر ميقات يومه الأجل

وهذه القطع التى اخترناها من شعره فى الأوصاف الحسية تمثله شره الحواس . وله فى هذه المعانى أشعار طريفة يقضى العُرف الاجتماعى بأن لا تنشر فى مثل هذا الكتاب فلنطوها عن القارئ طاعة للتقاليد . وإحساس هذا القاضى بالجمال جعله يختلق الأسباب ليفصح عما يعنّى نفسه من أغلال الوجد الدفين . ولننظر كيف يتحدّث عن سحر العيون وهو يشكو الزمان إذ يقول :

مَن عاذرى من زمن ظالم ليس بمستحيٍ ولا راحم
تفعل بالأحرار أحداثه فعل الهوى بالدنف الهائم
كأنما أصبح يرميهمو عن جفن مولاى أبى القاسم

وفى تصيُّد أسباب الغزل وموجبات التشبيب يقول فى تفدية حبيب نال من دمه مبضع الطبيب :

يا ليت عينى تحملت ألمك بل ليت نفسى تقسمت سَقَمك
وليت كف الطبيب إذ فصدت عرقك أجرت من ناظرىَّ دمك
أعرتَه صِبغ وجنتيك كما تعيره إن لثمت من لثمك
طرفك أمضى من حدّ مِبضعه فالحظ به العرق وارتجز ألمك

٨ — وقد يلهو هذا القاضى الأديب عما فى الجمال من نعيم الحواس، ويعود الى بكاء ما ذهب من أنسه فى أيامه السوالف ، ولياليه الخوالى . فيذكرنا بلوعة الشريف الرضى الذى كاد ينفرد برقة الحنين . ولننظر كيف يذوب روحه وهو يناجى النسيم :

يا نسيم الجنوب بالله بلِّغ ما يقول المتيم المستهامُ
قل لأحبابه فِداكم فؤاد ليس يسلو ومقلة لا تنام

وكيف يقول فى خطاب الديار، ديار الأنس المفقود :

يا ديار السرور لا زال يبكى بك فى مَضحك الرياض غمامُ
ربّ عيش صحبته فيك غض وجفون الخطوب عنا نيام

فى ليـال كأنهن أمانٍ من زمان كأنه أحـلام
وكأن الأوقات فيها كؤوس دائرات وأنسهن مدام
زمن مسعدٌ وإلفٌ وَصولٌ ومنًى تستلذها الأوهام
كل أنس ولذة وسرور قبل لقياكمو علىّ حرام

وقد أطلق الشاعر خياله فى هذه الأبيات فأضحت معانيه كأنها خيال فى خيال . أليس يذكر أن عيشه الغض كان :

فى ليال كأنهنّ أمانٍ من زمان كأنه أحلامُ

ولكن من ذا الذى ينكر جمال هذا الخيال؟ أو من ذا الذى لا يروقه نوم جفون الخطوب ؟

ومن جيد الشعر قوله فى الحنين الى ليالى بغداد :

أراجعةٌ تلك الليالى كعهدها الى الوصل أم لا يُرتجى لى رجوعها
وصحبة أقوام لبست لفقدهم ثياب حداد يستجدّ خليعها
إذا لاح لى من نحو بغداد بارق تجافت جنوبى وآستُطير هجوعها
وإن أخلفتها الغاديات رعودها تكلف تصديق الغمام دموعها
سقى جانبىْ بغداد كل غمامة يحاكى دموع المستهام هموعها
معاهد من غزلان إنس تحالفت لواحظها أن لا يُداوَى صريعها
بها تسكن النفس النَّفور ويغتدى بآنس من قلب المقيم نزيعها
يحن إليها كل قلب كأنما تشاد بحبات القلوب ربوعها
فكل ليالى عيشها زمن الصبا وكل فصول الدهر فيها ربيعها
وما زلت طوع الحادثات تقودنى على حكمها مستكرها فأطيعها

راجع هذا الشعر أيها القارئ وقلّب النظر فى ثنايا ذلك الروح الحزين . فسترى تلك اللوعة الدفينة وذلك الوجد الدخيل يرجعان الى الكلف بمظاهر الحسن ، والظمأ الى معاهد

تلك الظباء التى تحالفت لحاظها أن لا يداوَى لها صريع، أو يبرأ منها جريح، أو يُبكَى فى ظلالها قتيل . وما أضيع الدمع المسفوح فوق أمان الجمال ! .

وما أحب أن يغفل القارئ عن رقة الشوق فى هذين البيتين يصف بهما الشاعر معاهد تلك الظباء :

بها تسكن النفس النفور ويغتدى	بآنس مَن قلب المقيم نزيعها
يحن اليها كل قلب كأنما	تشاد بحبات القلوب ربوعها (١)

والعجيب فى هذا الشعر أن تُصوِّر نفس المحب فى غربته ونواه وهى تأنس بديار الأحباب فوق ما يأنس المقيم ! أهذا حق؟ أهذا مما يشهد به الوجدان ؟ قد يكون ذلك . وغيرى عنده الخبر اليقين ! .

ولكن أين أنس الظاعن من نعيم المقيم ؟ وأين روح الذكرى من نشوة الاصطباح بوجوه الملاح ؟ ومن يدرى لعل من أنس بهم هذا الغريب أعانتهم غربة النوى على نسيان العهود !

رويدكمُ لا تسبقوا بقطيعتى	صروف الليالى إن فى الدهر كافيا
أفى الحق أنى قد قضيت ديونكم	وأن ديونى باقياتٌ كما هيا
فواأسفى حتام أرعى مضيّعا	وآمن خوّانا وأذكر ناسيا
وما زال أحبابى يسيئون عشرتى	ويجفوننى حتى عذرت الأعاديا

(١) ما نقلناه من شعر الجرجانى يجده القارىء فى أخباره باليتيمة — ج٣ — ومعجم الأدباء — ج٥ —

٢ – كتاب الوساطة

١ – «الوساطة بين المتنبي وخصومه» كما سماه صاحب وفيات الأعيان، أو «الوساطة بين المتنبي وخصومه ونقد الشعر» كما سماه صاحب كشف الظنون : هو كتاب فى النقد لأبى الحسن على بن عبد العزيز الجرجانى . يقع فى ٣٦١ صفحة بالقطع الكبير طبعه وصححه وشرح بعض ألفاظه حضرة أحمد عارف الزين من أدباء صيدا فى سنة ١٣٣١ هجرية . نقلا عن نسختين مخطوطتين إحداهما بمصر وأخراهما بالعراق . ولم تسلم هذه الطبعة مع ما بذل فيها من الجهد من مظاهر النقص والتحريف . أحسن الله لناشرها الجزاء .

٢ – ذكر الثعالبى أنه لما عمل الصاحب بن عباد رسالته المعروفة فى إظهار مساوى المتنبي عمل القاضى أبو الحسن كتاب الوساطة بين المتنبي وخصومه[1] .

أما المؤلف فيذكر أنه رأى أهل الأدب فى المتنبي فئتين : فئة تطنب فى تقريظه وتتناول من ينقصه بالاحتقار والتجهيل، وفئة تجتهد فى إخفاء فضائله وإظهار معايبه . وكلا الفريقين إما ظالم له أو للأدب فيه، وأنه رأى من البر بالآداب – وهى أرحام لأبنائها – أن يقول كلمة الحق فى الفصل بين المتنبي وخصومه المسرفين . ويقول فى الحرص على الأواصر الأدبية : « وما مَن حفظ دمه أن يسفك بأولى ممن رعى حريمه أن يهتك . ولا حرمة أولى بالعناية وأحق بالحماية وأجدر أن يبذل الكريم دونها عرضه ويمتهن فى إعزازها ماله ونفسه من حرمة العلم الذى هو رونق وجهه ، ووقاية قدره ، ومنار اسمه ، ومطية ذكره . وبحسب عِظم مزيته ، وعلو مرتبته ، يعظم حق التشارك فيه . وكما تجب حياطته تجب حياطة المتصل به وبسببه . وما عقوق الوالد البرّ، وقطيعة الأخ المشفق ، بأشنع ذكرا ، ولا أقبح وسمًا من عقوق من ناسبك الى أكرم آبائك ، وشاركك فى أفخر أنسابك ، وقاسمك فى أزين أوصافك ، ومتَّ اليك بما هو حظك من الشرف وذريعتك الى الفخر[2] » .

---

(١) ص ٢٣٩ ج ٣ يتيمة . (٢) الوساطة ص ١٠

وهذا الحرص على بنوّة العلم وأخوة الأدب لا يحمل القاضى الجرجانى على التعصب المطلق . وإنما يزين له أن يحوطه بالعدل والانصاف فيقول فى ذلك :

" وكما ليس من شرط صلة رحمك أن تحيف لها على الحق أو تميل فى نصرها عن القصد فكذلك ليس من حكم مراعاة الأدب أن تعدل لأجله عن الإنصاف، أو تخرج فى بابه الى الإسراف . بل تتصرف على حكم العدل كيف صرفك، وتقف على رسمه كيف وقفك . فتنتصف تارة وتعتذر أخرى، وتجعل الإقرار بالحق عليك شاهدا لك اذا أنكرت . وتقيم الاستسلام للحجة اذا قامت محتجا عنك اذا خالفت . فانه لا حال أشد آستعطافا للقلوب المنحرفة، وأكثر استمالة للنفوس المشمئزة، من توقفك عند الشبهة اذا عرضت، واسترسالك للحجة اذا قهرت[1] " .

وأخوة الأدب هذه عُرفتْ قبل هذا القاضى الأديب فى شعر أبى تمام وديك الجن وعلى ابن الجهم والبحترى وعلى بن محمد الكوفى . وللقارئ أن يرجع الى ما قيل فيها من جيد الشعر فى الجزء الثالث من زهر الآداب[2] ليرى كيف تأثر هذا الكاتب المبدع بما أطال النظر فيه من دقائق الشعر البليغ .

٣ — وضع القاضى الجرجانى لكتاب الوساطة مقدّمة طويلة تكلم فيها عن أغلاط الشعراء فى الجاهلية وعن تأثير الطباع والأمكنة فى رقة الشعر وجفائه . وانتقل الى الكلام عن أبى تمام والبحترى وجرير وأبى نواس فذكر ما لهم من المحاسن والعيوب .

وساقه هذا الى بحث الاستعارة والجناس والتصحيف والتقسيم . ثم أخذ فى الحديث عن المتنبى فذكر السخيف والمعقد من شعره وتكلم عن تخلصه ومطالعه واعتذاره وفلسفته وسرقاته الشعرية وما أنكر العلماء عليه وما قيل فى الاعتذار عنه . وقد جرّته هذه الأبحاث الى الكلام عن التشبيه واختلاف الناس فى التشبيهات، وتفاوت الشعراء فى صوغ اللفظ والمعنى واختلافهم فى أخذ الألفاظ والمعانى الى غير ذلك مما كان يوجبه الأنس بالاستطراد عند المتقدمين .

(١) الوساطة ص ١٠ (٢) ص ١٧٠ — ١٧٣ (ط) أولى .

ونريد فى هذا الفصل أن ندرس مع القارئ بعض النظريات الأساسية لصاحب الوساطة وأن نتبين معه ما فيها من القوة أو الضعف وأن نكشف عنها ما قد يلابسها أحيانا من الغموض . راجين أن يكون فى هذه المراجعة فائدة لمن تعنيهم دراسة الآداب .

٤ — انفرد الجرجانى، أو كاد، بالشك فى سلامة الشعر الجاهلى من الضعف واللحن . فقد كانت جمهرة الباحثين ترى أن شعراء الجاهلية أعز من أن تؤخذ عليهم هفوة أو تحسب عليهم سقطة . وكان من النحاة من يعنّى نفسه بتصويب الجاهليين والمخضرمين والأمويين حين يجد الناقد فى شعرهم ما يذهب بقيمته من شنيع الأخطاء، وقبيح الأغلاط . ولكن الجرجانى يرى أن الدواوين الجاهلية لاتسلم فيها قصيدة من بيت أو أكثر يمكن القدح فيه : إما فى لفظه ونظمه، أو ترتيبه وتقسيمه، أو معناه وإعرابه ويقول .

« ولولا أن أهل الجاهلية جدوا بالتقدم واعتقد الناس فيهم أنهم القدوة والأعلام والحجة لوجدت كثيرا من أشعارهم معيبة ومسترذلة ومردودة منفية . لكن هذا الظن الجميل والاعتقاد الحسن ستر عليهم ونفى الظّنة عنهم . فذهبت الخواطر فى الذّبّ عنهم كل مذهب وقامت فى الاحتجاج لهم كل مقام »[1] .

وهو يستنكر تسكين الفعل من غير موجب فى قول امرئ القيس :

فاليوم أشربْ غير مستحقب[2] إثما من الله ولا واغل[3]

وإسقاط النون لغير إضافة ظاهرة فى قوله :

لها متنتان خظاتا[4] كما أكب على ساعديه النمر

وتسكين الفعل بغير عامل فى قول لبيد :

تراك أمكنة إذا لم أرضها أو يرتبطْ بعض النفوس حمامها

---

(١) الوساطة ص ١٢ — ١٥ (٢) يقال احتقب الإثم اذا اكتسبه كأنه شىء محسوس حمله (مصباح) .

(٣) الواغل المستتر — وغل فى الشجر وغولا توارى فيه، ودخل على القوم واغلا، وقصده هنا غير مستتر .

(٤) الخظاة : المكتنزة من كل شىء .

وقول الأسدى :

كنا نرقّعها وقد مزقت ... واتسع الخرق على الراقع

وقول الآخر :

تأبى قضاعة أن تعرفْ لكم نسبا ... وابنا نزار فأنتم بيضة البلدِ

وحذف النون فى قول طرفة : ... قد رفع الفخ فماذا تحذرى

ورفع ما يجب نصبه فى قول الفرزدق :

وعض زمان ياابن مروان لم يدع ... من المال إلا مسحتا أو مجلّفُ

وخفض ما يجب رفعه فى قول امرئ القيس :

كأن ثبيرا من عرانين(١) وبله ... كبير أناس فى بجاد(٢) مزمل(٣)

وقد أطال الجرجانى فى سرد الأمثلة وفيما ذكرناه كفاية . ثم أشار الى أنه تصفح ما تكلفه النحويون لشعراء الجاهلية من الاحتجاج اذا أمكن تارة بطلب التخفيف عند توالى الحركات ومرة بالإتباع والمجاورة وتغيير الرواية اذا ضاقت الحجة، وتثبيت ما راموه فى ذلك من المرامى البعيدة وارتكبوا لأجله من المراكب الصعبة التى يشهد القلب بان الباعث عليها شدّة إعظام المتقدّم والكلف بنصرة ما سبق اليه الاعتقاد وألفته النفس .

٥ — ونحن لا نحب أن نكتفى بما أشار اليه الجرجانى من تعسف المنافحين عن شعراء الجاهلية ومَن قاربهم من المخضرمين والأمويين فقد لا تغني هذه الاشارة . وانما نذكر ما قالوه فى توجيه قول الفرزدق :

وعض زمان ياابن مروان لم يدع ... من المال إلا مسحتا أو مجلّف

فانهم يذكرون أنه رفع "مجلف" بعد نصب "مسحتا" تبعا للمعنى لأن المراد أنه لم يبق من المال إلا مسحت أو مجلف — ومثله قول الهذلى — وهو من شواهد المفصل — :

---

(١) جمع عرنين وهو الأنف . وعرانين الوبل : أول المطر. (٢) البجاد : كساء مخطط تلبسه العرب .

(٣) مزمل : أى ملتف فى ثوبه . وكان يجب رفعه .

على أطرقا باليـات الخيـام إلا الثمـام وإلا العصىّ

نصب الثام لأنه استثناء من موجب ورفع العصى حملا على المعنى[(١)]. وكذلك قول الآخر:

غداة أحلت لابن أصرم طعنـة حصينٍ عبيطات السدائف والخمر

برفع الخمر على توهم رفع العبيطات لأنه اذا أحلتها الطعنة فقد حلت هى، الى آخر ما يتأول النحاة!!

تأمل هذا أيها القارئ وسل نفسك: أكان هؤلاء الشعراء يفكرون حقا فى أنهم نصبوا الاسم الأول على الاستثناء ورفعوا الثانى وَفقا للعنى؟ أكان الهذلى والفرزدق يحسبان حساب النحاة فى مثل ذلك التأويل؟ لا شىء من ذلك وإنما أتعب النحاة أنفسهم كَلَفا بنصرة ماسبق إليه الاعتقاد وألفته النفس، كما يقول أبو الحسن الجرجانى. أو هو لحن صريح: فاننا نرتاب فى سلامة الأعراب من اللحن والغلط ونرى أنهم قد يلحنون كما يلحن المولّدون وأن من الخطأ إهمال القياس اتباعا لما يؤثر عنهم من الشذوذ[(٢)]... وهذا المذهب فى استقراء أغلاط القدماء خير من التورط فى النفح عنهم بما لا يغنى ولا يفيد. فقد كان الفرّاء يذكر أن من العرب من يقول فى "أنظر" أنظور — وينشد لبعض الأعراب:

الله يعـلم أنا فى تلفتنـا يوم الفـراق الى جيراننـا صـور

وأنى حيث ما يثنى الهوى بصرى من حيث ما سلكوا أرنو فانظور[(٣)]

وهذا لحن لا ينبغى أن يتمحل له الصواب. فان ديباجة هذا الشعر تبعد أن يكون قائله من قبيلة مهجورة تسيغ هذا التعبير.

٦ — وقد تكلم الجرجانى عن تأثير المكان والطبع فى رقة الشعر وجفائه وهو يرى أن للبادية أثرا فى خشونة الشعر وقوة أسره وصلابة مَعجمه. وأن للحاضرة فضلا على رقة الشعر

(١) راجع المفصل ص ٨ (٢) ويجب أن نذكر أن الشعر الجاهلى والأموى كان يجرى على قواعد من النحو لم تأخذ صبغة نهائية فى التحديد والترتيب، كما اتفق ذلك فى العصر العباسى، فأغلاط الجاهليين والأمويين ليست أغلاطا بالقياس إلى لغتهم هم، وإنما هى أغلاط بالاضافة إلى اللغة التى حدّد قواعدها النحويون.

(٣) أنظر الصاحبى ص ١٢

وعذوبته وسلامته من الوعورة والجفاء! ومن هنا كان شعر عدىّ وهو جاهلى أسلس من شعر الفرزدق ورجز رؤبة وهما آهلان : لملازمة عدىّ الحاضرة و بعده عن جلافة البدو وخشونة الأعراب (١). وقد يكون من البر بالأدب أن نذكر فى تأييد هذه النظرية قطعة من رائية المنخَّل اليشكرى وهو جاهلى صقلته الحضارة ودمَّثه الترف فى قصور الملوك، ولننظر كيف يقول فى أخذ الفتى بأعطاف الفتاة، وقد ختلتها هدأة الخدر وغفوة الرقيب :

ولقد دخلت على الفتا ... ة الخدر فى اليوم المطيرِ

الكاعب الحسناء تر ... فل فى الدمقس وفى الحرير

فدفعتها فتدافعت ... مشى القطاة الى الغدير

ولثمتها فتنفست ... كتنفس الظبي الغرير

فدنت وقالت مامنخ ... ل ما بجسمك من حرور

ما شف جسمى غير حب ... ك فاهدئى عنى وسيرى

وأحبها وتحبنى ... ويحب ناقتها بعيرى

٧ — وأظرف ماتنبه اليه الجرجانى إشارته إلى أن للطبع وللخلقة أثرا فى رقة الشعر وجفائه فان سلاسة اللفظ تتبع سلاسة الطبع ودماثة الكلام بقدر دماثة الخلقة ، ويقول :

" وأنت تجد ذلك فى أهل عصرك ، وأبناء زمانك ، وترى الجافى الجلف منهم كز الألفاظ معقد الكلام وعر الخطاب حتى أنك ربما وجدت ألفاظه فى صورته ونغمته وفى جرسه ولهجته، ومن شأن البداوة أن تحدث بعض ذلك " (٢) .

ولك أيها القارئ أن تبحث عن ذلك أيضا فى أهل عصرك وأبناء زمانك : فقد تجد تعقيد بعض المعانى أثرا لالتواء بعض الوجوه والنفوس ! !

أما أنا فأشهد بصحة هذه النظرية حين أوازن بين مقامات الحريرى ومقامات بديع الزمان أو شعر أبى تمام وشعر أبى نواس . وقد يكون الفرق بين شعر الشباب وشعر الكهول

---

(١) ص ٢١ (٢) ص ٢١ وساطة .

راجعا الى هذه الناحية الخلقية : فطالما يأتى الشاعر وهو فتى بما لم يستطعه وهو كهل . وما أقوى سلطان الجسم والروح فى حياة العقول ! وهنا وجه آخر لدماثة الشعر ورقته : هو نفس الشاعر حين يتيمه الحب ويأسره العشق . ولم يذكر الجرجانى أمثلة لذلك اكتفاء بوضوح الفكرة، ولو شاء لتمثل بقول بعض الأعراب :

وفى الجيرة الغادين من بطن وَجرة ... غزال كحيل المقلتين ربيبُ
فلا تحسبي أن الغريب الذى نأى ... ولكن من تنأين عنه غريب

وقول الآخر :

فيارب إن أهلك ولم ترو هامتى ... بليلى أمت لا قبر أعطش من قبرى
وإن أك عن ليلى سلوت فانما ... تسليت عن يأس ولم أسل عن صبر
وان يك عن ليلى غنى وتجلد ... فرب غنى نفس قريب من الفقر

٨ — وقد نص الجرجانى على أنه لا يريد بالسهل الضعيف ولا يقصد من الرشيق المؤنث وهو يتكلم عن سهولة الشعر ورشاقته، وإنما يريد النمط الأوسط الذى ارتفع عن الساقط السوقىّ وانحط عن البدوىّ الوحشى. وهو لايوصى باجراء الشعر كله مجرى واحداً وإنما يرى أن تقسم الألفاظ على رُتَب المعانى فلا يكون الغزل كالفخر، ولا المديح كالوعيد، ولا الهجاء كالاستبطاء، ولا الهزل كالجد ، ولا التعريض كالتصريح . فان المدح بالشجاعة والبأس يتميز عن المدح باللباقة والظرف . ووصف الحرب والسلاح ليس كوصف المجلس والمدام: فلكل واحد من الأمرين نهج هو أملك به، وطريق لا يشاركه الآخر فيه . ثم يقول « وليس ما رسمته لك فى هذا الباب بمقصور على الشعر دون الكتابة ولا بمختص بالنظم دون النثر، بل يجب أن يكون كتابك فى الفتح والوعيد خلاف كتابك فى التشوّق والتهنئة واقتضاء المواصلة، وخطابك إذا حذرت وزجرت أفخم منه إذا وعدت ومنّيت . فأما الهجو فأبلغه ما جرى مجرى الهزل والتهافت ، وما اعترض به التصريح والتعريض ، وما قربت معانيه وسهل حفظه وأسرع علوقه بالقلب ولصوقه بالنفس[1] » .

(١) ص ٢٦ و ٢٨ وساطة .

فأما القذف والإفحاش فهو سباب محض . وليس للشاعر إلا إقامة الوزن وتصحيح النظم . ويقول بعد كلام « وملاك الأمر فى هذا الباب خاصة ترك التكلف ورفض التعمل، والاسترسال للطبع، وتجنب الحمل عليه والعنف به . ولست أعنى بهذا كل طبع . بل المهذب الذى قد صقله الأدب، وشحذته الرواية، وجلته الفطنة، وأُلهم الفصل بين الردئ والجيد، وتصور أمثلة الحسن والقبيح » (١) .

٩ — والذى يتعقب النقد عند العرب يرى الجرجانى مسبوقا فى هذه الآراء . فليس له إلا فضل الترتيب والتنسيق . وهو فضل ليس باليسير . على أنك تشعر وأنت تراه يتصرف فى هذه الافكار تصرف المالكين أن عقله أُشرب مذاهب النقد والمفاضلة بين طبقات النثر الجيد والشعر البليغ ، بحيث يتعذر عليه هو نفسه أن يميز بين ما استفاده بالدرس والمراجعة وما أمدّته به قريحته المتوقدة وذوقه السليم... وللقارئ أن يرجع الى صحيفة بشر بن المعتمر (٢) ووصية أبى تمام للبحترى (٣) فسيرى عناصر هذه النظريات التى يسوقها الجرجانى فى سياسة النفس وتقويم البيان .

ولكنه سيرى كذلك أن الجرجانى أنهضُ بحجته ، وأملكُ لرأيه ، وأقرب الى نفس قارئه من الذين سبقوه فى هذا الباب . وتلك دلالة على استقلاله بما أودع كتابه من الآراء .

١٠ — وقد رأى أبو الحسن الجرجانى أن يفرق بين الشعر والدين وأن يميز بين غاية الأدب وغاية الأخلاق . وهو يعجب ممن ينتقص المتنبي ويغض من شعره لأبيات وجدها تدل على ضعف العقيدة وفساد المذهب فى الديانة ، كقوله :

يترشفن من فمى رشفات ... هن فيه أحلى من التوحيد

وقوله :

وأبهر آيات التهامىّ أنه ... أبوكم وإحدى ما لكم من مناقب

مع أنهم احتملوا إسراف أبى نواس فى مثل قوله فى انتهاب اللذات والشك فى عذاب الاخرة :

(١) ص ٢٦ و ٢٨ وساطة . (٢) ص ٥٨ من البيان والتبيين .
(٣) زهر الآداب ج ١ ص ١٠١ ط أولى .

فدع الملام فقد أطعت غوايتى ونبذت موعظتى وراء جدارى
ورأيت إيثار اللذاذة والهوى وتمتعا من طيب هذى الدار
أحرى وأحزم من تنظُّر آجل ظنى به رجمٌ من الأخبار
إنى بعاجل ما ترين موكل وسواه إرجاف من الآثار
ما جاءنا أحد يخبر أنه فى جنة مذ مات أو فى نار

ويقول فى تأييد هذه النظرية "فلو كانت الديانة عارا على الشعر وكان سوء الاعتقاد سببا لتأخر الشاعر لوجب أن يمحى اسم أبى نواس من الدواوين ويحذف ذكره إذا عدت الطبقات ولكان أولاهم بذلك أهل الجاهلية ومن تشهد الآية عليه بالكفر ولوجب أن يكون كعب بن زهير وابن الزِّبعرى واضرابهما ممن تناول رسول الله صلى الله عليه وسلم وعاب من أصحابه بكما خرسا وبكاء مفحمين . ولكن الأمرين متباينان . والدين بمعزل عن الشعر"[1] .

ويجب أن نذكر أن صاحب هذه الفكرة هو "قاضى القضاة" وسيد الفقهاء فى الرى وجرجان : لنعرف الى أى حد كانت النزعة الفنية مسيطرة على مشاعر هذا القاضى الأديب . غير أننا نلاحظ أن الشعر الذى تمثل به لأبى نواس لا يشفع فى تأييد هذا الرأى الخطير . فليست الشاعرية أن يعلن الرجل كفره أو إيمانه فى تعابير لا رونق لها ولا ماء ، كما أعلن كفره أبو نواس ، وكما يعلن الأشياخ والأحبار والرهبان حرصهم على الدين والأخلاق ، وانما الشاعرية روح يتمرد به الشاعر فيهز نفس القارئ أو السامع هزا عنيفا يحمله على أن يؤمن وهو طائع ذلول بما يدعو اليه الشاعر من تزيين الاثم والبغى أو تقبيح الغىّ والفسوق .

ومن ذا الذى لا تروقه روعة الفتك فى قول ديك الجنّ :

لما نظرت إلىّ عن حدق المها وبسمت عن متفتح النُّوار
وعقدت بين قضيب بان أهيف وكثيب رمل عقدة الزنار
عفرت خدّى فى الثرى لك طائعا وعزمت فيك على دخول النار

(١) الوساطة ص ٥٧ و ٥٨

أو من ذا الذى لا يخشع لعظمة الفضل والوقار فى قول معن بن أوس :

لعمرك ما أهويت كفى لريبة (١) ولا حملتنى نحو فاحشة رجلى
ولا قادنى سمعى ولا بصرى لها ولا دلنى رأيى عليها ولا عقلى
وأعلم أنى لم تصبنى مصيبة من الدهر إلا قد أصابت فتى قبلى
ولست بماش ما حييت لمنكر من الأمر لا يمشى الى مثله مثلى
ولا مؤثر نفسى على ذى قرابة وأوثر ضيفى ما أقام على أهلى

والشاعر الواحد قد يرضيك جدّه وهزله ، ويروقك شكه ويقينه ، حين يصدر عن ألوان نفسه ، ويتحدّث صادقا عن أسرار قلبه . ولا عيب على الشاعر فى أن تختلف آراؤه باختلاف ذوقة وإحساسه : فان الشعر كالمرآة . والنفس دنيا ثانية تتراءى صورها المختلفة فى لوحة الشعر الجميل . وما ذا تريدون من الشعر والأدب أيها الناس ! أتريدون أن تعلنوا الأحكام العرفية على الكتّاب والشعراء والفنانين لئلا ينظروا بعيونهم ، ويفقهوا بقلوبهم : فيكون من آثارهم ما ينقض ما تواضعتم عليه منذ أجيال ؟ إن الله الذى يلوّن العالم كل يوم بلون جديد وتفتنّ يده الصَّنَاع فى تزيين الأرض والسموات ، وينفخ من روحه فيمن اصطفاهم للشعر والبيان ، هو وحده جل شأنه القادر على أن يقول : هذا ما أريد أن يكون ، وذلك ما أنكر أن يكون ! ! وسيظل الأدب الحق أداة يعرب بها الشعراء عما تريد القدرة أن تُصوّر به محاسن هذا الوجود .

فهنيئا لمن أراد الله أن يشربهم صفوة الحياة ليكون للعالم من أدبهم فرقان وانجيل .

* * *

تلك نواح كشفنا عنها وبيناها من كتاب الوساطة راجين أن يعود اليه القارئ طالبا للمزيد . فليس النقد إلا وسيلة الى إثارة الرغبة فى المراجعة والشوق الى الاطلاع .

---

(١) الريبة ، بكسر الراء ، التهمة .

٣ – ابن فارس

١ – لم تعين كتب التراجم السنة التى ولد فيها أحمد بن فارس، ولم يتفق مترجموه على المكان الذى ولد فيه . وقد نسبه ابن الأنبارى الى المكان الذى مات فيه وهو الرى : فسماه أبا الحسين الرازى . والرازى نسبة شاذة الى الرى[1] . ويقول ياقوت فى معجم الأدباء[2] : « واختلفوا فى وطنه فقيل : كان من رستاق الزهراء من القرية المعروفة كرسف وجياناباذ، وقد حضرت القريتين مرارا ولا خلاف أنه قروى . حدثنى والدى محمد بن أحمد وكان من جملة حاضرى مجالسه أنه أتاه آت فسأله عن وطنه فقال : كرسف . قال فتمثل الشيخ :

بلاد بها شُدّت علىّ تمائمى وأول أرض مس جلدى ترابها »

أما وفاته رحمه الله فكانت بالرىّ فى صفر سنة ٣٩٥ هجرية وقد دفن بجوار قاضى القضاة على بن عبد العزيز الجرجانى .

٢ – ذكر السيوطى فى بغية الوعاة[3] أن ابن فارس كان نحويا على طريقة الكوفيين وأنه سمع أباه وعلىّ بن ابراهيم بن سلمة القطان . وذكر ابن الأنبارى أنه أخذ عن أبى بكر أحمد بن الحسن الخطيب راوية ثعلب . وعن أبى عبد الله أحمد بن طاهر المنجم، وكان يقول عن أبى عبد الله هذا : " ما رأيت مثله ولا رأى هو مثل نفسه[4] " وكان ابن فارس حريصا على تدوين ما يأخذه عن أبيه . وقد أثبت ابن الأنبارى شاهدا على ذلك الحرص نكتفى بالاشارة اليه . وذكر ياقوت أن ابن فارس حدث عن أبيه أنه قال : حججت فلقيت بمكة ناسا من هذيل فجاريتهم ذكر شعرائهم فما عرفوا أحدا منهم . ولكننى رأيت أمثل الجماعة رجلا فصيحا وأنشدنى :

إذا لم تحظ فى أرض فدعها وحث اليعملات على وجاها[5]

ولا يغررك حظ أخيك فيها إذا صفرت يمينك من جَداها

---

(١) طبقات النحاة ص ٣٩٢ (٢) ج ٢ ص ١٢ (٣) ص ١٥٣ (٤) طبقات النحاة ص ٣٩٢

(٥) اليعملات : الجمال .

ونفسك فز بها إن خفت ضيما وخل الدار تحزن من بكاها
فانك واجـد أرضا بأرض ولست بواجد نفسا سواها

٣ — كان لابن فارس عدد كثير من التلامذة أشهرهم الصاحب بن عباد و بديع الزمان الهمذانى . أما حاله مع الصاحب فقد ابتدأت بوفاق، وانتهت بشقاق — نسجع على ذكرى الصاحب بن عباد! — تمت بينهما الألفـة فى بداية الأمر حتى وضع ابن فارس كتابه « الصاحبي » نسبة الى الصاحب . وحتى مدح الصاحبُ ابنَ فارس بقوله « شيخنا أبو الحسين محمد رُزق حسن التصنيف ، وأمن فيـه من التصحيف »[1] ثم انحرف الصاحب عن ابن فارس لانتسابه إلى خدمة آل العميد وتعصبه لهم فانفذ اليـه من همذان كتاب الحجر من تأليفه فقال الصاحب «رد الحجر من حيث جاءك» ثم لم تطب نفسه بتركه فنظر فيه وأمر له بصلة[2] . وكان الصاحب كما ذكر ياقوت فى معجم الأدباء[3] يعرّض أحيانا بابن فارس فيذكر أنه رأى «بعض الجهال يصحف و يقول» . وأما حاله مع بديع الزمان الهمذانى فكانت فيما يظهر غاية فى صفاء الوداد. نعرف ذلك من كتاب بديع الزمان إلى أستاذه جوابا على كتاب ورد اليه منـه فى ذم الزمان . ومن البر بالأدب والتاريخ أن نذكر هنـا نص ذلك الكتاب لنرى كيف كان بديع الزمان يرتاب فيما تقدمه من نظام الحكومات الاسلامية ، وكيف كان يحذر تقلب النفس الانسانية التى سُجّـل غدرها فى قصائد الشعراء، وصحائف الأنبياء. ولننظر كيف يقول «نعم أطال الله بقاء الشيخ الامام إنه الحمأ المسنون[4]، وإن ظنت الظنون، والناس ينسبون لآدم ، وإن كان العهد قـد تقادم . وارتبكت الأضداد، واختلط الميـلاد . والشيخ الإمام يقول « فسـد الزمان » أفلا يقول متى كان صالحا ؟ أفى الدولة العباسية وقد رأينا آخرها وسمعنا أولها ؟ أم المدة المروانية وفى أخبارها لاتكسع الشول بأغبارها[5]؟ أم السنين الحربية[6] .

(١) طبقات الأدباء ص ٣٩٤ (٢) ياقوت ج ٢ ص ٩ (٣) ج ٢ ص ٣٠٢

(٤) الحمأ المسنون : الطين المتغير . (٥) الشول جمع شائلة على غير قياس . والأغبار جمع غبر وهو بقية اللبن . والكسع هو ترك بقية من اللبن فى أخلاف الناقة . المعنى : لا تغزر لبن إبلك واحلبها لأضيافك فانك (لا تدرى من الناتج) كما فى بقية البيت . (٦) نسبة الى حرب بن أمية ، والمراد خلافة معاوية وابنه يزيد .

والـــرمح يركز فى الكلى (١) والسيف يغمد فى الطُّلى (٢)

ومبيت حجر فى الفـــلا والحـارثان وكـربلا

أم البيعة الهاشمية وعلىّ يقول : ليت العشرة منكم براس من بنى فراس؟ أم الأيام الأموية والنفير إلى الحجاز ، والعيون إلى الأعجاز ؟ أم الامارات العدوية وصاحبها يقول : وهل بعد البزول إلا النزول ؟ أم الخلافة التيمية وصاحبها يقول : طوبى لمن مات فى نأناة الاسـلام ؟ أم على عهد الرسالة ويوم الفتح قيل : اسكتى يا فلانة ، فقد ذهبت الأمانة ؟ أم فى الجاهلية ولبيد يقول :

ذهب الذين يعاش فى أكنافهم وبقيت فى خَلَف كجلد الأجربِ

أم قبل ذلك وأخو عاد يقول :

بـلاد بهـا كنا وكنا نحبهـا إذ الناس ناس والزمان زمان

أم قبل ذلك وقد روى عن آدم عليه السلام :

تغـيرت البلاد ومن عليها فوجه الأرض مغـبرّ قبيح

أم قبل ذلك وقد قالت الملائكة : أتجعل فيها من يفســد فيها ويسفك الدماء؟ وما فسد الناس، وإنمـا اطرد القياس . وما أظلمت الأيام ، وإنما امتد الظلام . وهل يفسد الشىء إلا عن صلاح، ويمسى المرء إلا عن صباح ؟

ثم انتقل بديع الزمان إلى الرفق بأستاذه والعطف عليه فقال :

«ولعمرى لئن كان كرم العهد كتابا يرد، وجوابا يصـدر، إنه لقريب المنال، وإنى على توبيخه لى لفقير إلى لقائه، شفيق على بقائه، منتسب إلى ولائه، شاكر لآلائه . لا أحل حريدا عن أمره، ولا أقف بعيدا عن قلبه . مانسيته ولا أنساه . إن له أيده الله على كل نعمة خولنيها الله نارا، وعلى كل كلمة علمنيها منارا . ولو عرفت لكتابى موقعا من قلبـه لاغتنمت خدمته به ولرددت اليه سُؤر كاسه، وفضل أنفاسه . ولكنى خشيت أن يقول (هذه بضاعتنا ردّت

(١) الكلى جمع كلية وكلوة بالضم . (٢) الطلى بالضم الأعناق جمع طلية أو طلاوة .

الينا) وله أيده الله العتبى ، والمودة فى القربى ، والمرباع ، وما ناله البـاع . وما ضمه الجلد ، وضمنه المشط . وليست رضاى ولكنها جل ما أملك » .

إلى آخر ما قال[1] :

ولو وجدنا نص الكتاب الذى بدأ به ابن فارس لعرفنا شيئا من صور نفسه ، وألوان قلبه : فان لأزمات القلب ، وبخعات النفس ، دلالة كبيرة على المناحى التى يجنح اليها الكتاب والشعراء والباحثون[2] .

٥ — كان ابن فارس وسطا فى شعره ونثره : فلم يكن يُسِفّ حتى يصل الى وصمة الإعياء . ولم يكن يعلو حتى يصل إلى جودة البيان . ونثره فى جملة بيِّن واضح مقبول . يعجبنى منه قوله — فى تقريع رجال الفقه والحديث على اللحن وترك الإعراب — : « وقد كان الناس قديما يجتنبون اللحن فيما يكتبونه أو يقرءونه اجتنابهم بعض الذنوب . فأما الآن فقد تجوزوا حتى إن المحدث يحدث فيلحن والفقيه يؤلف فيلحن . فاذا نبها قالا (ما ندرى ما الاعراب وإنما نحن محدثون وفقهاء) فهما يُسران بما يساء به اللبيب ! ولقد كلمت بعض من يذهب بنفسه ويراها من فقه الشافعى بالرتبة العليا فى القياس . فقلت له : ماحقيقة القياس ومامعناه؟ من أى شىء هو؟ فقال (ليس علىّ هذا وإنما علىّ إقامة الدليل على صحته) .

«فقل الآن فى رجل يروم إقامة الدليل على صحة شىء لا يعرف معنـاه ولا يدرى ما هو ونعوذ بالله من سوء الاختيار !» .

وللقارئ أن يتأمل هذه الجملة فسيراها جيدة المعنى نقية الأسلوب ، وسيرى كيف وصل الكاتب الى ما يرمى اليه من التهكم اللاذع بالفقهاء والمحدثين من غير أن يلجأ الى غرابة المعانى

(١) راجع ص ٤١٤ و ٤١٩ — من رسائل البديع . (٢) الذى فى رسائل بديع الزمان أن هذه الرسالة جاءت جوابا عن كتاب ورد اليـه من ابن فارس فى ذم الزمان . وفى نهاية الأرب ج ٧ ص ٢٦٢ أن بديع الزمان ذكر فى مجلس ابن فارس فقال ما معناه : إن البديع قد نسى حق تعليمنا إياه وعقنا وشمخ بأنفه عنا فالحمد لله على فساد الزمان وتغير نوع الانسان ! فبلغ ذلك البديع فكتب الى ابن فارس ذلك الكتاب .

وجلجلة الألفاظ . وفى هذه الجملة أيضا دلالة على أن غفلة الفقهاء عن اللغة العربية قديمة العهد وليست من سيئات العصر الحديث .

٦ — أما شعر ابن فارس فهو على قلته يكاد يقف عند شكوى الزمان . من ذلك قوله — وقد قل ماله ، وكثر دينه ، ولم يغنه علمه — :

سقى همذان الغيث لست بقائل ... سوى ذا وفى الأحشاء نار تضرم

ومالىَ لا أُصفى الدعاء لبلدة ... أفدت بها نسيان ما كنت أعلم

نسيت الذى أحسنته غير أننى ... مَدين وما فى جوف بيتىَ درهم (١)

وقوله فى كثرة همومه وتعزيه بالهرة والكتّاب والمصباح اذا أوى الى بيته المقفر الجديب :

وقالوا كيف حالك ؟ قلت خير ... تقضّى حاجة وتفوت حاج

نديمى هرتى وأنيس نفسى ... دفاتر لى ومعشوقى السراج (٢)

وقد يستظرف دفاعه عن البخل والحرص إذ يذكر أن المال المضنون به يسخر الحمقى لخدمة صاحبه : فقد يكرم الرجل لغناه قبل أن يكرم لفضله . وفى هذا المعنى يقول :

يا ليت لى ألف دينار موجهة ... وأن حظىَ منها فلس إفلاس

قالوا فما لك منها قلت تخدمنى ... لها ومن أجلها الحمقى من الناس (٣)

وقد يستجاد قوله فى التغاضى عن هفوات الصديق :

عتبت عليه حين ساء صنيعهُ ... وآليت لا أمسيت طوع يديه

فلما خبرت الناس خُبر مجرب ... ولم أر خيرا منه عدت اليه (٣)

ومن ظريف الاشارة الى ضعف حجج النحاة قوله فى فتور الجفون :

مرت بنا هيفاء مقدودة ... تركية تنمى لتركى

ترنو بطرف فاتر فاتن ... أضعف من حجة نحوى (٥)

(١) ص ٢١٨ ج ٣ من اليتيمة . (٢) ص ٢١٩ ج ٢ (٣) ص ٢١٩ ج ٢

(٤) ص ٢٢٠ (٥) ص ٢٦٩

٧ — لابن فارس مؤلفات كثيرة لم يبق منها إلا القليل . والذى يعنينا هو (الصاحبى) الذى قدمه الى الصاحب بن عباد، وهو كتاب متوسط الحجم يقع فى ٢٣٢ ص بالقطع الكبير طبعته المطبعة السلفية فى سنة ١٩١٠ طبعا جيدا نقلا عن نسخة صحيحة بخط المرحوم الشيخ الشنقيطى من مكتبته بدار الكتب المصرية وقد نقلها رحمه الله عن نسخة فى إحدى مكاتب القسطنطينية قرئت على المؤلف فى سنة ٣٨٢ هـ ، وعلى ظهرها بخطه ما يفيد إجازة القراءة والنسخ . قال المرحوم الشنقيطى "وكانت مقابلتى إياه صفحة صفحة : لا أبتدئ الصفحة إلا بعد مقابلة الصفحة التى كتبتها قبلها فتمت كتابته ومقابلته فى آن واحد ولله الحمد" .

أما قيمة الكتاب من الوجهة العلمية فستظهر حين نناقش ما فيه من مختلف الأبحاث .

٨ — يحار الباحث فى تحديد حياة ابن فارس العقلية : ومرجع هذه الحيرة هو ظهور هذا الرجل بلونين مختلفين كل الاختلاف . أما سبب هذه الحيرة فهو إغفال المتقدمين تاريخ آثار هذا اللغوى الأديب فقد نعرف أنه راجع كتاب الصاحبى فى سنة ٣٨٢ ولكننا لا نعرف فى أى سنة من سنى حياته العلمية وضع رسالته فى الرد على محمد بن سعيد الكاتب . والفرق بعيد جدا بين رسالته هذه وكتابه ذاك : فهو فى "الصاحبى" رجل حِذِر هيوب يحسب مسايرة العقل جريمة ، و يعدّ التفكير من جملة الذنوب . ولكنه فى رسالته الى ابن سعيد باحث مملوء بالغيرة والحمية لكل حق ولكل جديد .

نظرات ابن فارس فى كتاب "الصاحبى" كلها جمود وكلها ذهول . وقد يصحو أحيانا فيرمى بالقول السديد . وحسب القارئ فى الدلالة على إغراق كتاب الصاحبى فى «الرجعية» أن يعرف أن ابن فارس يفضل العروض على الفلسفة . ويقول فى وصفه "علم العروض الذى يربى بحسنه ودقته واستقامته على كل ما يتبجح به الناسبون أنفسهم الى التى يقال لها الفلسفة"[٢] .

ومن هذه العبارة أخذ الشيخ بخيت فيما نظن قوله فى رينان "ذلك الرجل الذى يدعى أنه فيلسوف" .

(١) ص ٤ (٢) ص ٣٧

وحقا إن الفلسفة لا تزيد عن أنها « التى يقال لها الفلسفة » ورينان لا يزيد عن أنه "الرجل الذى يدعى أنه فيلسوف" وسبحان من أغنانا عما ترك المبدعون فى العلوم والفنون !!

وأغرب من هذا أن يستنكر ابن فارس أن يكون للفلاسفة مؤلفات فى النحو والإعراب وأن يستبعد أن يكون لهم شعر جميل . ويقول فى ذلك "وزعم ناس يتوقف عن قبول أخبارهم أن الذين يسمون الفلاسفة قد كان لهم إعراب ومؤلفات نحو"[1]، ثم يقول "وهذا كلام لا يعرج على مثله . وانما تشبه القوم آنفا بأهل الاسلام فأخذوا من كتب علمائنا وغيروا بعض ألفاظها ونسبوا ذلك الى قوم ذوى أسماء منكرة بتراجم بشعة لا يكاد لسان ذى دين ينطق بها . وادّعوا مع ذلك أن للقوم شعرا . وقد قرأناه فوجدناه قليل الماء نزر الحلاوة غير مستقيم الوزن" ثم يقول فى وصف العروض "ومن عرف دقائقه وأسراره وخفاياه علم أنه يربى على جميع ما يتبجح به هؤلاء الذين ينتحلون معرفة حقائق الأشياء من الأعداد والخطوط والنقط التى لا أعرف لها فائدة . غير أنها مع قلة فائدتها ترق الدين وتنتج كل ما نعوذ بالله منه"[2] .

وكذلك كان يرتاب أكثر المتقدّمين فى العلوم العقلية . ويرونها خطرا على العقائد : كما يفعل المتأخرون اليوم . وهذا كله هرب من البحث و إخلاد الى الخمول . و إلا فكيف يبعد الناس عن دينهم كلما توغلوا فى درس حقائق الأشياء ؟

٩ — نترك هذه الناحية من عقلية ابن فارس التى تمثل لنا رأيه و رأى أمثاله فى فهم ما توحى به العقول . وننتقل الى الجانب المشرق من حياته العقلية فنراه يمثل لنا انقسام أهل ذلك العصر الى طائفين تقتتلان . تدعو إحداهما الى الاكتفاء بما ترك المتقدمون من الآثار الأدبية . وتدعو أخراهما الى الابداع والتجديد فى عالم الآداب . و يكفى أن يعرف الباحث أن من رجال ذلك العصر من أنكر اختيار الشعرا كتفاء بديوان الحماسة ليرى أن (الرجعية)

(١) ص ٤٢ (٢) ص ٤٣

كانت تفتك بأحلام أولئك الناس وأن الصراع بين القديم والجديد يكاد يتصل بالحياة الفكرية فى جميع الأجيال .

وفى رسالة ابن فارس الى محمد بن سعيد صورة لهذه الخصومة العقلية التى شهدها رجال القرن الرابع . فلنتركه يتكلم ولننظر كيف يدافع عن شعراء عصره المبدعين إذ يقول فى خطابه الى ابن سعيد " ألهمك الله الرشاد، وأصحبك السداد، وجنبك الخلاف، وحبب اليك الانصاف ! وسبب دعائى هـذا لك إنكارك على أبى الحسن محمد بن على العجلى تأليفـه كتابا فى الحماسة و إعظامك ذلك ولعله لو فعـل حتى يصيب الغرض الذى يريده ، ويرد المنهـل الذى يؤمه لاستدرك من جيد الشعر ونقيه، ومختاره ورخيه ، كثيرا ممـا فات الأول . فمـا ذا الانكار ولم الاعتراض؟ ومن ذا حظر على المتأخر مضادة المتقدم؟ ولم تأخذ بقول من قال "ما ترك الأول للآخر شيئا" وتدع قول الآخر "كم ترك الأول للآخر" وهـل الدنيا إلا أزمان ولكل زمن منهـا رجال ؟ وهل العلوم بعد الأصول المحفوظة إلا خطرات الأفهام ونتائج العقول ؟ ومن قصر الآداب على زمان معلوم ووقفها على وقت محدود؟ ولم لا ينظر الآخر مثل ما نظر الأول حتى يؤلف مثل تأليفه، ويجمع مثل جمعه، ويرى فى كل ذلك مثل رأيه ؟

وما تقول لفقهاء زماننا اذا نزلت بهم من نوازل الأحكام نازلة لم تخطر على بال من كان قبلهـــم ؟

أو ما علمت أن لكل قلب خاطرا ولكل خاطر نتيجة ؟ ولم جاز أن يقال بعـد أبى تمام مثل شعره ولم يجز أن يؤلف مثل تأليفه؟ ولم حجرت واسعا وحظرت مباحا وحرمت حلالا وسددت طريقا مسلوكا ؟ وهل (حبيب) الا واحد من المسلمين له ما لهم وعليـه ما عليهم ؟ ولم جاز أن يعارض الفقهاء فى مؤلفاتهم ، وأهـل النحو فى مصنفاتهم ، وأرباب الصناعات فى جميع صناعاتهم ، ولم يجز معارضة أبى تمام فى كتاب شذ عنه فى الأبواب التى شرعها فيه ؟ أمر لا يدرك ولا يدرى قدره ! !

ولو اقتصر الناس على كتب القدماء لضاع علم كثير، ولذهب أدب غزير، ولضلت أفهام ثاقبة، ولكلَّت ألسن لسنة، ولما توشى أحد لخطابة ولا سلك شِعبا من شعاب البلاغة ولمجت الأسماع كل مردّد مكرر، وللفظت القلوب كل مرجع ممضغ . وحتام لا يسأم (لو كنت من مازن لم تستبح إبلى) والى متى "صفحنا عن بنى ذهل" — الى أن قال "وهلا حثثت على إثارة ما غيبته الدهور وتجديد ما أخلقته الأيام وتدوين ما نتجته خواطر هذا الدهر وأفكار هذا العصر؟ على أن ذلك لو رامه رائم لأتعبه واو فعله لقرأت ما لم يحط عن درجة من قبله من جد يروعك، وهزل يروقك، واستنباط يعجبك، ومزاح يلهيك"(1) .

١٠ — تلك هى الناحية المشرقة من حياة ابن فارس العقلية وهى كما يرى القارئ تختلف عن سابقتها أشد الاختلاف. وقد ذكر صاحب اليتيمة جزءا كبيرا من هذه الرسالة فليرجع اليها من يطلب المزيد. ولكننا نرى من البر بالأدب أن نذكر نماذج من الشعر المحدث لعهد ابن فارس وكانت تضيق به نفوس الرجعيين اذا ذاك . وهو يستجيد قول يوسف بن حمويه المعروف بالمنادى وكان من أهل قزوين :

جُّ مثلى زيارة الخمار	واقتنائى العَقار شرب العُقار
ووقارى اذا توقر ذو الشيـ	ـبة وسط الندى ترك الوقارَ
ما أبالى اذا المدامة دامت	عذل ناهٍ ولا شناعة جار
رب ليل كأنه فرع ليلى	ما به كوكب يلوح لسارى
قد طويناه فوق خشف كحيل	أحور الطرف فاتن سحار(2)

(١) ص ٢١٥ و ٢١٦ ج ٣ يتيمة .

(٢) وردت هذه الأبيات فى ديوان أبى نواس مع اختلاف قليل، وربما كانت مما أضيف الى شعر أبى نواس لاتصالها بفنه المعروف فى الغزل والشراب، وهى فى الديوان طويلة تصل الى خمسة عشر بيتا آخرها هذا البيت الحكيم :

فتى يفلح الفتى وهو إن را	ح بسكر وان غدا فى خمار

ويستجيد قول أحمد بن بندار :

زارنى فى الدجى فنم عليه طيب أردانه لدى الرقباء
والثريا كأنها كف خود أبرزت من غلالة زرقاء

ويستجيد قول بعض رجال الموصل :

فديتـك ماشبت عن كبرة وهذى سنىَّ وهذا الحساب
ولكن هجرت فحل المشيب ولو قد وصلت لعاد الشباب

الى هنا وقف القارئ على شيء من حياة ابن فارس يقربه اليه بعض التقريب ان لم يمثله كل التمثيل . فلنأخذ فى نقد آرائه فى فقه اللغة العربيـة والكشف عما فيها من مظان الخطأ ومواقع الصواب .

٤ – نقد آراء ابن فارس فى فقه اللغة العربية

١ – الفقه العلم بالشيء والفهم له والفطنة . وغلب على علم الدين لشرفه . كما فى القاموس المحيط . وفى أساس البلاغة (قال أعرابى لعيسى بن عمر شهدت عليك بالفقه : أى بالفهم والفطنة . وفى الحديث (من أراد الله به خيرا فقهه فى الدين) وفقهت فلانا كذا وأفقهته أياه فهمته ففقهه وتفقهه . وقال عمر لجرير بن عبدالله كنت سيدا فى الجاهلية وفقيها فى الاسلام . قال الزمخشرى وتقول فلان بين الفراهة : فى أبواب الفقاهة . وفحل فقيه عالم بذوات الضبع[1] وذوات الحمل .

فالفقه كما ترى دقة الفهم ونفاذ البصيرة فى التفريق بين حقائق الأشياء . وعبارة " فقه اللغة " لم يكد يتفق القدماء على إفرادها بمدلول خاص . وانما نجدها فى تعابير الكتاب والمؤلفين على سبيل الاختيار لاعلى وجه التعيين . والثعالبى يحدثنا بأن كتابه (فقه اللغة) انما سمى بهذا الاسم وفقا لاختيار الأمير الذى أهداه اليه فدل ذلك على أن المنحى الذى سلكه فى تأليفه لم يكن جريا على خطة آتفق عليها الباحثون فى ذلك الحين . فما هو المقصود من عبارة (فقه اللغة) فى العصر الحديث ؟ ذكر السنيور جويدى فى محاضرته الأولى بالجامعة المصرية (٧) أكتوبر سنة ١٩٢٦ ان كلمة (Philologie) تصعب ترجمتها بالعربية وأن لها فى اللغات الغربية معنى خاصا لا يتفق عليه أصحاب العلم والأدب . فمنهم من يرى هذا العلم مجرد درس قواعد الصرف والنحو ونقد نصوص الآثار الأدبية . ومنهم من يذهب الى أنه ليس درس اللغة فقط ولكنه بحث عن الحياة العقلية من جميع وجوهها . واذا صح هذا فمن الممكن أن يدخل فى دائرة " الفيلولوجى " علم اللغة وفنونها المختلفة كتاريخ اللغة ومقابلة اللغات والنحو والصرف والعروض وعلوم البلاغة وعلم الأدب فى معناه الأوسع فيدخل تاريخ الآداب وتاريخ العلوم

---

(١) الضبع – بفتحتين – شهوة الناقة الى الفحل .

من حيث تصنيف الكتب العلميـة ، وتاريخ الفقه من حيث تدوينـه فى المجاميع والمجلات وتاريخ الأديان من حيث درس الكتب المقدسة وتأليف الكتب الدينية واللاهوتية، وتاريخ الفلسفة من حيث تأليف كتب الحكمة وكتب الكلام . ولا سبيل الى معرفة كنه هذه الحياة العقلية إلا بدرس أحوال المركز الذى نشأت فيه تلك الآثار الأدبية " .

ويترتب على هذا التعريف كما ذكر السنيور جويدى أن يصبح هذا العلم من أوسع العلوم دائرة وأن يصبح «الفيلولوج» مضطرا الى البحث عن أوائل الأدب حين يدرس درجة التمدن عند شعب من الشعوب ، والى تأمل العلاقات التى كانت بينه وبين غيره وما أثر فيه من الحوادث السياسـية والتاريخية . ثم لا يكفى لمن يريد درس كتب المجوس الدينيـة مثلا أن يقف عنـد معرفة اللغات الايرانية بل عليـه أن يطيل النظر فى كل وجوه الحياة عند الفرس وما تأثر به هذا الدين مما اتصل به من العقائد والديانات .

هذا هو اتجاه السنيور جويدى الذى كان أستاذ فقه اللغة العربية بكلية الآداب . وهو كما يرى القارئ يجعل مهمة الباحث فى هذا العلم شاقة عسيرة ويرد ما تميز واستقل من علوم اللغة الى علم واحد تنوء به عزائم الآحاد . وقد شعر الأستاذ نفسه بهذا فقرر أنه لا يمكن للباحث أن يجيد إلا جزءا واحدا من ذاك العلم الكثير الأجزاء !

٢ — على أن من الحق أن نقرر أن كلمة " فقـه اللغة " التى اختيرت لترجمـة كتاب الثعالبي لم يَرْم بها قائلها من غير أن يكون لها فى نفسه مدلول خاص : فقد وردت هذه الكلمة فى فاتحة كتاب ابن فارس إذ قال " هذا الكتاب الصاحبي فى فقه اللغة العربية وسنن العرب فى كلامها " وهو بالطبع كان يعرف ما ترمى اليه هذه التعابير . فلم يبق إلا أن يكون الباحثون فى علوم اللغة العربية لذلك العهد قـد فكروا فى فن جديد غير ما عُرف من علوم البـلاغة وما اصطُلح عليه من مسائل النحو والصرف والاشتقاق . وهذا الفن الجديد الذى كاد ينفرد به رجال القرن الرابع والخامس لم يجـد من يُعنى بتدوين أصـوله ، وتحقيق فروعه ، حتى يستقل عن غيره بعض الاستقلال . وانما ظل كما ابتـدأ مسائل متفرقة ينقصها الترتيب والتفصـيل

ويعوزها النقد والتمييز، وما الى ذلك من أنواع العناية بمختلف الفنون . وعندى ان أهم ما يؤخذ على المؤلفين فى فقه اللغة هو إهمال المصادر وإهمال التاريخ ولنضرب لذلك الأمثال :

جاء فى الفصـل الثالث من الباب التاسـع عشر من كتاب الثعالبى أن "الارتكاض" حركة الجنين "والنوس" حركة الغصن بالريح "والتدلدل" حركة الشىء المتدلى — و"الترجرج": حركة الكفل السمين والفالوذج الرقيق . و"النسيم": حركة الريح فى لين وضعف . و"الذَّماء": حركة القتيل . و"النودان" حركة اليهود فى مدارسهم[1] . وكان يجب أن يذكر بجانب هذا التنويع ما يؤيده من الشعر الموثوق بصحته وأن يدلنا على العصر الذى استعملت فيه كلمة "النودان" مثلا وأن يبين أعربية هى أم عبرية .

وجاء فى الفصل السابع عشر من الباب الرابع والعشرين أن الانسان إذا شرب فهو نشوان وإن دب فيـه الشراب فهو ثمل . فإذا بلغ الحدّ الذى يوجب الحـدّ فهو سكران . فاذا زاد امتلاء فهو سكران طافح . فاذا كان لا يتماسك ولا يتمـالك فهو ملتخ . فاذا كان لا يعقل شيئا من أمره ولا ينطلق لسانه قيل سكران باتّ وسكران ما يبت[2] . وكان من الواجب أن يذكر لنا الثعالبى شيئا عن أصول هذه التعابير وأن يرينا متى وقعت كلمة (سكران طافح) وكيف وقعت : فى شعر أو فى نثر . وإذا كان مصدرها الشعر فمن يدرينا لعل للوزن والقافية دخلا فى صبغها بصبغة التأكيد . وكل ما عمله الثعالبى أن دلنا على أن كلمة (ملتخ) منقولة عن الأصمعى وأن (سكران بات وسكران ما يبت) كلاهمـا عن الكسائى ولم يتعرض لأيهـما الراجح وأيهما المرجـــوح .

وهـذا المأخذ يسرى على جميع الأبواب التى روعى فيهـا حصر الأوصاف والنعوت . فإن أكثر ما جرى عليه الثعالبى فى "فقه اللغة" وابن سِيده فى "المخصص" وابن الأجدابى فى "كفاية المتحفظ" لم يلحظ فيه اختلاف اللغـات . وإنمـا كان الغرض منه جمع الأشباه والنظائر فى الصفات والأسماء .

---

(١) ص ٢٧٥ (٢) ص ٤٠٢

٣ — قلت لك إن المتقدمين لم يفردوا هذا العلم بموضوع خاص ، والآن أشير إلى أن منهم من غلبت عليه صنعة الكتابة فكان من همه أن يزيد فى مادة الإنشاء بجمع ما تبدّد من الألفاظ والتعابير، وكان منهم من غلب عليه النحو والتصريف فكان من همه أن يقيد ما أطلقه من حرموا صناعة الإعراب إذ وجدهم (لا يبينون ما انقلبت فيه الألف عن الياء مما انقلبت الواو فيه عن الياء ولا يحدّون الموضع الذى انقلاب الألف فيه عن الياء أكثر من انقلابها عن الواو مع عكس ذلك ولا يميزون مما يخرج على هيئة المقلوب ما هو منه مقلوب وما هو من ذلك لغتان . وذلك بجذب وجبذ . ويئس وأيس . ورأى وراء ... وكذلك لا ينبهون على ما يسمعونه غير مهموز مما أصله الهمز على ما ينبغى أن يعتقد منه تخفيفا قياسيا وما يعتقد منه بدلا سماعيا ولا يفرقون بين القلب والإبدال ولا بين ما هو جمع يكسر عليه الواحد وبين ما هو اسم للجمع[1] .

وهذا الاتجاه يسير إلى ما رمى إليه ابن جنى فى "الخصائص" وإن كان دونه .

فإن ابن جنى أراد أن يسمو على ما شُغل به الكوفيون والبصريون وأن يعمل فى أصول النحو ما عمله الذين سبقوه فى أصول الفقه[2] . وهذا وذاك سعىٌ إلى غاية واحدة هى إنشاء فن جديد يجمع بين أسرار اللغة وأسرار الإعراب . ولا تزال الحاجة شديدة إلى فهم ما حاوله الثعالبى وابن جنى وابن سيده من دقائق هذا الفن العجيب ، والبحث عن المصادر الأولى التى مهدت لهم السبيل إلى التعمق فى بعض الأبواب ، وتعقب الآثار الأدبية التى تعين على تصحيح ما وقعوا فيه من الأغلاط . وذلك يتطلب كثيرا من الجهود .

٤ — فى كتاب ابن فارس طائفة من الأبحاث يتصل بعضها بأسرار اللغة ويرجع بعضها إلى مسائل عرضية كانت مما يشغل الناس إذ ذاك . من هذا كلامه عن الخط العربى وأول من كتب به وهو ينقل فى سذاجة أن أول من كتب الكتاب العربى والسريانى والكتب كلها آدم عليه السلام قبل موته بثلثمائة سنة . كتبه فى طين وطبخه فلما أصاب الأرض الغرق وجد

(١) راجع مقدمة المخصص . (٢) ص ٧ من الخصائص .

كل قوم كتابا فكتبوه فأصاب اسماعيل الكتاب العربى . ويرى كذلك أن الخط توقيف لظاهر قوله عز وجل : « إقرأ باسم ربك الذى خلق خلق الإنسان من عَلَق . إقرأ وربك الأكرم الذى علم بالقلم علم الإنسان ما لم يعلم » ويرى أنه ليس ببعيد أن يوقف الله آدم أو غيره من الأنبياء على كتاب ويقول «فأما أن يكون مخترع اخترعه من تلقاء نفسه فشىء لا تُعلم صحته إلا من خبر صحيح » (١) .

ويبالغ فى إثبات أن لغة العرب توقيف لا اصطلاح . ويرى كما رأى فى زعمه ابن عباس أن الأسماء التى علمها الله آدم ” هى هذه التى يتعارفها الناس من دابة وأرض وسهل وجبل وحمار وأشباه ذلك“ ويقول فى سذاجة ” ولعل ظانا يظن أن اللغة التى دللنا على أنها توقيف إنما جاءت جملة واحدة وفى زمان واحد وليس الأمر كذلك بل وقّف الله عز وجل آدم عليه السلام على ماشاء أن يعلمه إياه مما احتاج إلى علمه فى زمانه وآنتشر من ذلك ماشاء الله ثم علم بعد آدم من عرب الأنبياء صلوات الله عليهم نبيا نبيا ماشاء أن يعلمه حتى انتهى الأمر إلى نبينا محمد صلى الله تعالى عليه وآله وسلم . فآتاه الله جل وعز من ذلك ما لم يؤته أحدا قبله تماما على ما أحسنه من اللغة المتقدمة . ثم قر الأمر قراره فلا نعلم لغة من بعده حدثت، فان تعمّل اليوم لذلك متعمل وجد من نقاد العلم من ينفيه ويرده“ (٢) وهذا التوقيف هو عند ابن فارس منشأ اللغات . وإنه لخطأ مبين . وقد خطر له أن النحاة يقولون إن العرب فعلت كذا ولم تفعل كذا : من أنها لا تجمع بين ساكنين ولا تبتدئ بساكن ولا تقف على متحرك وأنها تسمى الشخص الواحد بالأسماء الكثيرة وتجمع الأشياء الكثيرة تحت الاسم الواحد، وهذا دليل على أن للعرب شيئا من الاختيار فى كيفية التعبير وهو يدفع ذلك بقوله . ” إن العرب تفعل كذا بعد ما وطّأناه من أن ذلك توقيف حتى ينتهى الأمر إلى الموقف الأول“ ويحسن أن نذكر أن ابن فارس لم يبالغ فى تأييد هذا الرأى إلا عند الكلام عن منشأ اللغات فقد انطلق عقله بعد ذلك وأدرك أن لاختلاف الاصقاع والأقاليم تأثيرا فى تكوين اللغة وان لم يعط هذا الوجه حقه من البيان .

(١) الصاحبي ص ٧ و ٨ . (٢) ص ٦

٥ — وقد عُنى ابن فارس وهو يتكلم عن الكتابة والقراءة والخط بمسألة تتعلق برسم المصحف وقراءته : فذكر بسنده أن عثمان أرسل إلى أُبىّ بن كعب كتف شاة فيها "لم يتسن" و "فأمهل الكافرين" و"لاتبديل للخلق" فدعا بالدواة فمحا إحدى اللامين وكتب "لخلق الله" ومحا "فأمهل" وكتب "فمهل" وكتب لم "يتسنه" ألحق فيها هاء .

ونقل عن الفراء أنه قال (إتباع المصحف إذا وجدت له وجها من كلام العرب وقراءة القرآن أحب إلىّ من خلافه) .

وأنه قال (وقد كان أبو عمرو بن العلاء يقرأ «إن هذين لساحران»[1] ولست أجترئ على ذلك وقرأ (فأصّدق وأكون) فزاد واوا فى الكتاب ولست أستحب ذلك) .

وكان علىَ ابن فارس أن يكشف عن مغزى هذا التغيير فى رسم المصحف وأن يبين إلى أى حدّ يقبل تصحيح النحاة لقراءات القرآن . ولكن يظهر أن رغبة الجماهير فى الكف عن التعمق فى درس ما يتصل بالدين حالت بينه و بين الإفصاح عما لمحاولات النحاة من الغرض البعيد. ونحن أيضا نكتفى بالاشارة إلى هذا البحث الخطير[2] .

٦ — المعروف أن العلوم العربية لم تنشأ الا فى الاسلام: فالنحو من وضع أبى الأسود الدؤلى . والعروض من وضع الخليل بن أحمد . والبلاغة من وضع عبد القاهر الجرجانى . الى آخر ما يهجس به أدعياء التاريخ. وقدتنبه ابن فارس الى استبعاد هذه البداية للعلوم العربية فذكر أن علم العروض أقدم من عهد الخليل . قال : والدليل على صحة هذا وأن القوم قد تداولوا الإعراب أنا نستقرئ قصيدة الحطيئة التى أولها :

شاقتك أظعان لليلى دون ناظرة بواكر

فنجد قوافيها كلها عند الترنم والإعراب تجىء مرفوعة ولولا علم الحطيئة بذلك لأشبه أن يختلف اعرابها : لأن تساويها فى حركة واحدة اتفاقا من غير قصد لا يكاد يكون[3] .

---

(١) ص ٩ و ١٠ و ١١ (٢) القرآن يجب أن يفرد له نحو خاص ، وكذلك الأدب الجاهلى والأموى ، ولغات العالم كله تعترف بما يسمى "النحو التاريخى" ونحن فى حاجة الى ذلك النحو لتوجيه بعض ما يبدو شاذا من تعابير القرآن . (٣) ص ١٠ و ١١

وهنا يجب أن نشير الى غلطة وقع فيها ابن فارس وهو يذكر أن علم العربية وعلم العروض كانا قبل الدؤلى والخليل . فقد نص على "أن هذين العلمين قد كانا قديما وأتت عليهما الأيام وقلا فى أيدى الناس ثم جدّدهما هذان الإمامان" .

ومعنى هذا أن النحو الذى نعرفه علم مجدَّد لا مبتكر، وكذلك العروض . وهذا خطأ إن أردنا أن النحو والعروض كانا قديما على مثل هذا الوضع . والحق أنه يبعد أن لا يكون العرب فكروا فى ضبط لغتهم منذ العهود القديمة . ولكنه يبعد كذلك أن يكون ما عرفوه وتواضعوا عليه من الضوابط والقواعد مماثلا لما عرف بعد الاسلام . لأن النحوى الذى نعرفه هو نحو اللغة القرشية فكلمة "العرب" فى عبارة ابن فارس تحتاج الى تحديد .

٧ — ولابن فارس رأى فى التعابير الأدبية فقد نقل لنا تعابير كثيرة ضاعت مغازيها من أذهان المتكلمين وبقيت خِلوا من المدلول . وهو يرى أن كثيرا من الكلام ذهب بذهاب أهله وأن علماء اللغة يختلفون فى كثير مما قالته العرب فلا يكاد واحد منهم يخبر عن حقيقة ما خولف فيه بل يسلك طريق الاحتمال والامكان، وأنه لا يعرف أحد منهم حقيقة قول العرب فى الاغراء (كذبك كذا) وما جاء فى الحديث من قوله (كذب عليكم الحج) "وكذبك العسل" .

وقول القائل :

كذبت عليكم أوعِدونى وعللوا ... بى الأرض والأقوام قردان موظبا

وقول الآخر:

كذب العقيق وماء شنّ بارد ... ان كنت سائلتى غبوقا فاذهبى

ونحن نعلم أن قوله (كذب) يبعد ظاهره عن باب الإغراء . وكذلك قولهم (عنك فى الأرض "عنك شيئا" وقول الأَفوَه :

عنكمو فى الأرض إنا مذحج ... ورويدا يفضح الليل النهار

ومن ذلك قولهم "أعمد من سيد قتله قومه" أى "هل زاد ؟" .

وقال ابن ميادة :

وأعمد من قوم كفاهم أخوهمو صدام الأعادى حين فُلّت نيوبها

قال الخليل وغيره "معناه هل زدنا على أن كفينا" قال ابن فارس فهذا من مشكل الكلام الذى لم يفسَّر بعد . وقول أبى ذؤيب :

صخب الشوارب لا يزال كأنه عبـد لآل أبى ربيعة مسبع

قال ابن فارس : فقوله "مسبع" لم يفسر حتى الآن تفسيرا شافيا .

ومن هذا الباب قولهم "ياعيد مالك" و" ياهئ مالك" و "ياشئ مالك" ولم يفسروا قولهم "صه" و "ويهك" و "إنيه" ولاقول القائل :

* بخائبك الحق يهتفون وحى هل *

ويقولون " خائبكما وخائبكم " . فأما الزجر والدعاء الذى لا يفهم موضـعه فكثير كقولهم "حى" و "حى هلا" "وبعين ما أرينك" فى موضع العجل . و (هج) و (هجا) و "دع" و "دعا" و " لعا " للعاثر يدعون له وينشدون :

ومطية حملّت ظهـر مطية حرج تمى مِلْ عثار بدعدع

ويروى عن النبي أنه قال " لا تقولوا دعدع ولا لعلع . ولكن قولوا اللهم ارفع وانفع " قال ابن فارس : فلولا أن للكلمتين معنى مفهوما عنـد القوم ما كرهمـا النبي . وكقولهم فى الزجر "أخر" و " أخرى " و " دها " و (هلا) و (هاب) و " ارحبى" و "عد" و "عاج" و "ياعط" و " يعاط" وينشدون :

وما كان على الجئ ولا الهئ امتداحيكا

وكذلك "إجد" و "وأجدم" و "حدج" .

قال ابن فارس : لا نعلم أحدا فسر هذا .[1]

(١) ص ٣٤ — ٣٧

تأمل أيها القارئ فى هذه التعابير المجهولة واذكر أنها لم تجهل إلا لأنها كانت متصلة بقبائل تناساها المحدثون . ولو كانت هـذه التعابير متأصلة فى لغة قريش لبقيت معروفة المدلول . وهنا نشير الى أنه لا بدّ من وضع قاموس يراعى فيه جانب التاريخ . فان المعاجم العربية جمعت الألفاظ والتعابير من هنا وهناك من غير أن تعين ما عُرف فى عصر ثم جُهل وما استُعمل ثم تجافاه الاستعمال . وقد نجد من كتّاب العصر الحاضر من يظن المعاجم صورة صادقة لما كان يذهب اليه العرب فى طرائق التعبير وهو خطأ لو يعلمون شنيع !

٨ — وقد تنبه ابن فارس الى التعابير التى لا يمكن الوصول فيها الى تعيين المراد ، والمشتبه الذى لا يقال فيه اليوم إلا بالتقريب والاحتمال وما هو بغريب اللفظ ولكن الوقوف على كنهه معتاص . وذكر من ذلك قولنا (الحين) و (الزمان) و (الدهر) و (الأوان) فانك لا تدرى اذا قال الحالف «والله لا كلمته حينا أو زمانا أو دهرا» الى أى حدّ يتصل الإعراض وكذلك «بضع سنين» مشتبه . قال ابن فارس وأكثر هذا مشكل لا يقصر بشىء منه على حدّ معلوم ومن هـذا الباب على رأيه قولهم فى الغنى والفقر وفى الشريف والكريم واللئيم اذا قال «هـذا لأغنياء أهلى» أو «فقرائهم» أو «أشرافهم» أو «كرامهم» أو «لئامهم» وكذلك إن قال «امنعوه سفهاء قومى» لم يمكن تحديد السفه[1] .

قال ابن فارس : ولقد شاهدت منذ زمان قريب قاضيا يريد حجرا على رجل مكتهل فقلت وما السبب فى حجره عليه ؟ فقيل يزعم أنه يتصيد بالكلاب وأنه سفيه . فقرئ على القاضى قوله جل ثناؤه «وما علمتم من الجوارح مكلّبين تعلموهن بما علمكم الله . فكلوا مما أمسكن عليكم» . فأمسك القاضى عن الحجر على الكهل[2] .

٩ — وقد أراد ابن فارس أن يثبت للغة العرب خصائص ليست لغيرها من سائر اللغات فزعم أنها انفردت بالبيان : لقوله جل ثناؤه ﴿وإنه لتنزيل رب العالمين نزل به الروح الأمين على قلبك لتكون من المنذرين بلسان عربى مبين﴾ .

(١) ص ٣٦	(٢) ص ٣٧

ثم أعقب هـذا الشاهد الذى لا يقيم حجته بهذه العبارة « فان قال قائل : فقد يقع البيان بغير اللسان العربى لأن كل من أفهم بكلامه على شرط لغته فقد بين . قيل له : إن كنت تريد أن المتكلم بغير اللغة العربية قد يعرب عن نفسه حتى يفهم السامع مراده فهذا أخس مراتب البيان : لأن الأبكم قـد يدل باشارات وحركات له على أكثر مراده ثم لا يسمى متكلما فضلا عن أن يسمى بينا أو بليغا .

"وان أردت أن سائر اللغات تبين إبانة اللغة العربية فهذا غلط : لأنا لو احتجنا أن نعبر عن السيف وأوصافه باللغة الفارسية لمـا أمكننا ذلك إلا باسم واحد . ونحن نذكر للسيف بالعربية صفات كثيرة . وكذلك الأسد والفرس وغيرها من الأشياء المسماة بالأسماء المترادفة . فأين هذا من ذاك؟ وأين لسائر اللغات من السعة ما للغة العرب؟[1] " .

وهذا كما يرى القارئ كلام أجوف لا طائل تحته وهو يدل على أن ابن فارس كان قليل العلم بما عُرف لعهده من آثار الفرس واليونان . وإلا فكيف جاز له أن يظن أنه لاحظ لغير العرب فى البلاغة والبيان! ثم ما هو الدليل على انفراد العرب بالإفصاح؟ لا شىء إلا أن للأسد خمسين ومائة اسم ، وللسيف خمسمائة، وللحية مائتين، وما شاء الله كان ! وقد شاع هذا الغلط عدة قرون وكان من آثاره ان سأل الرشيد الأصمعى عن شعر لابن حزام العكلى ففسره فقال الرشيد :

يا أصمعى ! إن الغريب عندك لغير غريب ! فقال "يا أمير المؤمنين ألا أكون كذلك وقد حفظت للحجر سبعين اسما" وكان من آثاره أيضا أن أفرد الصاحب ابن عباد هذه المترادفات بكتاب !

ولقد جرى ذكر هذه (الثروة اللغوية) فى درس الدكتور طه حسين فأشار الى أن هذا غير طبيعى أو أنه على الأقل إسراف . وهو يرجح أن كثرة المترادفات الى هذا الحد ليست إلا أثرا من عبث الرواة ولعبهم بالجماهير . ويرى أنهـا ترجع الى السياحات العديدة التى كان

(١) ص ١٢

يرمى بها الرواة واللغويون الى جمع ما تفرق فى أحشاء البادية من مختلف الصفات والأسماء ليعودوا الى الحواضر مثقلين بمادة المكاثرة والتعجيز ثم لا يتحرجون من أن يقولوا إن العرب تعرف للأسد خمسين ومائة اسم وللسيف خمسمائة وللحية مائتين .

فمن هم هؤلاء العرب أيها الناس؟ أليسوا فى أنفسكم كل من أقلت الجزيرة العربية من شتيت القبائل وعديد الأحياء؟ ولكن ألا تذكرون اننا حين نذكر لغة العرب لا نريد غير لغة قريش التى نزل بها القرآن؟ أفتستطيعون أن تثبتوا أن قريشا عرفت للحجر سبعين اسما وللكلب ما لا ندرى كم تعدون من الأسماء ؟

١٠ — وقد غفل ابن فارس عن تأثير الاقليم فى اللغة العربية فظن التعابير التى انفرد بها العرب — لما نتأثر به أسماعهم وأبصارهم — فضلا تطول به لغتهم سائر اللغات . وكذلك يرى أنه لا يمكن لغير العربى أن يعبر عن قولهم (رحب العطن ، وغمر الرداء . ويخلق ويفرى . وهو ضيق المجم . قلق الوضين . وهو ألوى بعيد المستمر . وهو شراب بأنقع . وهو جذيلها المحكك وعذيقها المرجب . وعىّ بالاسناف) .

ولو تأمل ابن فارس قليلا لعرف أن هذه التعابير ليست إلا تمثيلا لما يراه العرب فى باديتهم من الحيوان والنبات والجماد ، وأنه من المعقول أن يكون للهند والفرس والروم تعابير كهذه أخذت مما تقع عليه أبصارهم من أنواع الموجودات ولا يستطيع العرب أن يسيغوها لأنها وقعت على غير ما يألفون .

٥ — النقد الأدبي عند ابن شهيد

سر البيان — خصومة ابن شهيد وحقده على المعلمين فى قرطبة — مذهب الجاحظ فى تعليم البيان — كيف تكون ملاحة النحو وفصاحة الغريب — الأنساب والقرابات بين الحروف — ربط القوافى والأوزان بالمعانى — كيف كان الشعر ينفع المجتدين عند البقالين والقصابين — هل فى مقدور كل بليغ أن يصل الى كل غرض — البلاغة سياسة نفسية من المتكلم للخاطب — أثر الطبع فى البلاغة — هل لجمال الأعضاء دخل فى جمال النفوس ؟ — وهل كان الجاحظ لدمامته من أهل الغفلة والحمق ؟ — كيف نزن أقدار الرجال ؟

١ — أشرنا عند الكلام على رسالة "التوابع والزوابع"(١) الى ما كان يراه ابن شهيد من أن البيان نفحة سماوية ولا صلة له بالنحو والتصريف ومعرفة الغريب ، فلنذكر الآن أن هذا الرأى كان من المسائل التى شغل بها ابن شهيد وأخذ يبدئ فيها و يعيد كلما تكلم عن النقد والبيان . ومن الخير أن ننص هنا على أن ابن شهيد لم يكن فى درس هذه المسألة مخلصا كل الإخلاص ، فقد تبين لنا بعد مراجعة ما كتبه فى ظروف مختلفة أنه كان حريصا على تحقير جماعة من اللغويين والنحويين الذين عاصروه فى الأندلس وناصبوه الخصومة والعِداء . وقد اجتهد فى أن يخفى علينا تحامله على رجال النحو والتصريف والغريب ويصبغ أحكامه بصبغة التعميم ، ويبعد عن أذهاننا ما يريده من التخصيص ، ولكنه غُلِب على أمره فصرح بشكواه من قلة إنصاف النحويين له وتسلطهم عليه وإسرافهم فى ثلبه . فلنفهم هذا جيدا قبل عرض آرائه لندرك أن أقواله مُشربة بالضغن والحقد وأنه لا ينبغى أن نتخذها أساسا صالحا لتقدير العلوم العربية من نحو وصرف واشتقاق : لأن تلك العلوم ضرورية ، وليس من النفع أن نوافق ابن شهيد على الاستهانة بها وتحقير أهلها ، و إن كنا نعرف أنها لا تكفى وحدها لمنح طلاب الأدب ملكة البيان .

(١) راجع تحليل رسالة التوابع والزوابع فى باب « الأخبار والأقاصيص » من الجزء الأول .

٢ — يحدثنا ابن شهيد أن قوما من المعلمين فى قرطبـة ممن أتوا على أجزاء من النحو وحفظ كلمات من اللغـة ينحتون عن قلوب غليظة كقلوب البعران، الى فطن حمئة، وأذهان صدئة، لا منفذ لها فى شعاع الرقة، ولا مدبّ لها فى نور البيان، سقطت اليهم كتب فى البديع والنقـد فهموا منها ما يفهم القـرد اليمانى من الرقص على الايقاع والزمر على الألحـان، فهم يصرفون غرائبها تصريف من لم يرزق آلة الفهم، ولم يكن له آلة الصناعة، كالحمـار الذى لا يمكنه أن يتعلم صناعة ضرب العود والطنبور لتدوير رُسـغه واستدارة حافره، وأنه لو جاز لحمـار أن يغنى :

ما بال أنجم هـــذا الليـل حائرة   أضلت القصد أم ليست على فلك

لمـا جاز أن يوقـع بالمضراب على الأوتار، ويرخى الوتر فى مجرى السبابة والبنصر فيبلبل بنشيده، ويولول فى ضربه، وكذلك حال المتعلمين فى قرطبة على رأى ابن شهيد[1] .

٣ — وفى موطن آخر نراه يندّد بالمعلمين ويصفهم بأوصاف منكرة ثم يقول :

"ومما علم من خلق هذه العصابة اذا لحتنا أبصارهم قابلونا بالملق، وهم منطوون على الحسد والحنق، فاذا جمعتنا المحـافل، وضمتنا المجالس، تراهم الينا مبصبصين، وعن الأخذ فى شىء من تلك المعانى واقفين، وانما يتبين تقصير المقصر، وفضل السابق المبرز، اذا اصطكت الركب وازدحمت الحدق، واستعجل المقال ... الخ"[2] .

٤ — ولا يكتفى ابن شهيد بمثـل تلك الحملات فى تحقير المعلمين، بل يضيف قول الجـاحظ :

"إنا اذا اكترينا من يعـلم صبياننا النحو والغريب قنع منا بعشرين درهما فى الشهر، ولو اكترينا من يعلمهم البيان لمـا قنع منا إلا بألف درهم" وقد أمكنت هـذه الكلمة ابن شهيد من إعلان رأيه فى كتاب البيان والتبيين الذى ألفه الجاحظ وهو فى رأيه كتاب لم يكشف فيه "عن وجه التعليم وصور كيفية التدريج" ليرى القارئ كيف يكون وضع الكلام وتنزيل البيان،

(١) الذخيرة ص ١٢٢ ج ١   (٢) ص ١٢٤   (٣) ١١٨

وكيف يكون التوصل الى حسن الابتـداء وتوصيل اللفظ بعد الانتهاء . ومن رأى ابن شهيد أن الجاحظ "استمسك بنائدته، وضن بما عنده غيرة على العلم، وشحا بثمرة التفهم" لأنه عرف "أن النفع كثير والشاكر قليل" ولذلك كان كتابه فى البيان موقوفا على أهله ومن كرع فى حوضه، أما الجاهل والمبتدئ فلا نفع له من كتابه على الاطلاق .

٥ — ونحن لانوافق ابن شهيد على مارآه فى كتاب البيان، ونفهم أن الجاحظ لم يخف شيئا عن عمد، وإنما نفترض أن تلك كانت طريقة الجاحظ فى التأليف : فهو ينتقل من فن الى فن، ومن كلام الى كلام، جريا على طريقته فى تسطير كل مايمر بخاطره من ألوان الأدب والعلوم لأيسر المناسبات . ومانكاد نتصور أن التعليم كان من مبتغيات الجاحظ حتى يهتم بالترتيب والتبويب، وإنما نتمثله رجلا يكتب لنفسه قبـل كل شيء، ويرضى شهوته فى تدوين عناصر الثقافة الأدبية والعلمية على طريقة كتاب الموسوعات من القدماء الذين كانوا يخشون على العلم من الضياع ويكفيهم أن يدونوا ما يسـمعونه أو ينتقل اليهم من مختلف الأقوال والآراء والشواهد والأمثال .

٦ — وليس إلحاء ابن شهيد على النحو والغريب معناه أنه ينكر قيمة ذلك فى البيان، كلا، وإنما يحتم أن يختار الكاتب أملح النحو وأفصح الغريب . وملاحة النحو هذه لم أرها عند أحد غير ابن شهيد، وهو يريد بها اختيار الوضع النحوى الذى يساعد على أداء المعنى، فقد يكون الكلام مستقيما من الوجهة النحوية ولا يكون مستقيما من الوجهة البيانية ، فان البلاغة فى الواقع تبنى على سلامة التركيب .

والتركيب السليم لايراد به التركيب الخالى من الغلط حين يراد وزنه بالموازين النحوية، وإنما هو التركيب الذى يستوفى الدقائق المعنوية التى يهتم بتقييدها علماء المعانى . أما فصاحة الغريب فهى عند ابن شهيد وضـع اللفظة الغريبة فى موضعها بحيث لو وضعت مكانها كلمـة مألوفة لتطرق الى المعنى شيء من الإخلال . ولننظر كيف يقص علينا ابن شهيد بعض ما كان يقع له مع تلاميذه فى هذا الباب :

« جلس إلىّ يوسف الاسرائيلى وكان أفهم تلميذ مرّ بى وأنا أوصى رجلا عزيزا علىّ من أهل قرطبة وأقول له : ان للحروف أنسابا وقرابات تبدو فى الكلام . فاذا جاور النسيب النسيب ، ومازج القريب القريب ، طابت الألفة وحسنت الصحبة ، وإذا ركبت صور الكلام من تلك حسنت المناظر ، وطابت المخابر ، أفهمت ؟ قال :

إى والله ! قلت له : وللعربية إذا طلبت ، وللفصاحة إذا التمست ، قوانين من الكلام مَن طلب بها أدرك ، ومن نكب عنها قصر ، أفهمت ؟ قال : نعم . قلت : وكما تختار مليح اللفظ ورشيق الكلام فكذلك يجب أن تختار مليح النحو وفصيح الغريب وتهرب من قبيحه . قال : أجل . قلت أتفهم شيئا من عيون كلام القائل :

لعمرك إنى يوم بانوا فلم أمت خفاتا على آثارهم لصبورُ

غداة التقينا إذ رميت بنظرة ونحن على متن الطريق نسير

ففاضت دموع العين حتى كأنها لناظرها غصن يراح مَطيرُ

فقال : إى والله ! وقعت (خفاتا) موقعا لذيذا ، ووضعت (رميت) و (متن الطريق) موضعا مليحا ، وسرى (غصن يراح مطير) مسرى لطيفا . فقلت له : أرجو أنك تنسمت شيئا من نسيم الفهم فاْغد علىّ بشىء تصنعه .

قال ابن شهيد : «وكان ذلك اليهودى ساكنا يعى ما أقول فغدا ذلك القرطبي فأنشدنى :

حلفت برب مكة والجبال لقد وزنت كروبى بالجبال

فى أبيات تشبهه وجاء اليهودى فأنشدنى :

أيمم ركبانهم منعجا وقد ضمنوا قلبك الهودجا

واستمر إلى آخر القصيدة فأتى بكل حسن ، فقال لى ذلك القرطبي : شعر اليهودى أحسن من شعرى ! قلت ولا بأس بفهمك إذ عرفت هذا . ولم يزل يتدرّب باختلافه إلىّ حتى ندى تُربه ، وطلع عشبه ، ثم تفتح زهره ، وضاع عبقه [1] . ورآنى أستعمل وحشى الكلام

(١) ضاع عبقه : انتشرت رائحته .

فى موضعه ولم يشعر بحسن الموضع فاستعمل شيئا منه وعرضه علىّ . فقلت : استره ! فقال : تبخل علىّ به ! وعرضه على ابن الإفليلى فقال له : تنكب هذا الكلام . فقال له : إن أبا عامر يستعمله ! قال : يضعه فى موضعه وهو أدرب منك[1] » .

وهذا كلام جيد، وأجوده مانص فيه على أن للحروف أنسابا وقرابات تبدو فى الكلام، فاذا جاور النسيب النسيب ومازج القريب القريب طابت الألفة وحسنت الصحبة . وهذه الفكرة الدقيقة ليست من مبتكرات ابن شهيد فقد رأيناها قبله منسوبة إلى ابن العميد حين حدّثنا الصاحب فى مقدّمة كتابه عن مساوى المتنبي أنه لم يجد فيمن صحب من يفهم الشعر كما يفهمه أبو الفضل بن العميد « فانه يتجاوز نقد الأبيات إلى نقد الحروف والكلمات ولا يرضى بتهذيب المعنى حتى يطالب بتخير القافية والوزن[2] » .

وبذلك تكون كلمة ابن العميد أسبق وأشمل من كلمة ابن شهيد ، لأن ابن العميد يربط القوافى والأوزان بالمعانى، فليس كل وزن بصالح لكل معنى، لأن بعض القوافى والأوزان أرق أو أضخم من بعض، كما أن بعض الألفاظ والمعانى ألطف أو أجزل من بعض، وفطنة الشاعر والكاتب هى التى تؤلف بين المعنى وبين لَبوسه من ألفاظ وحروف وقواف وأوزان.

٧ — ويرى ابن شهيد أن البلاغة تختلف باختلاف أقدار المخاطَبين، ومعنى هذا أن البلاغة صلة نفسية بين المتكلم والمخاطب، فهى ترجع إلى فهم المتكلمين لنفوس المخاطَبين، وعلى ذلك لا يكون أساس بلاغة الكلام صلاحيته لأن يلقى إلى جميع الناس فى جميع الأحوال، وإنما بلاغة الكلام أن يبلغ بصاحبه إلى الغرض الذى يرمى إليه عند الخطاب . ويقول فى ذلك:

«وربما لاذ بنا المستطعم بأسم الشعر ممن يخبط[3] العامة والخاصة بسؤاله فيصادف منا حالة لا تتسع فى كبير مبرة فنشاركه ونعتذر له ، وربما أفدناه بأبيات يتعمد بها البقالين ومشايخ القصابين، فاذا قارفت أسماعهم، ومازجت أفهامهم، در حلبهم، وانحلت عقدهم، وجل شخص

(١) ص ١١٨ و ١١٩ من الذخيرة . (٢) مقدّمة كشف مساوى المتنبي .

(٣) الخبط : السؤال، من خبط الشجرة شدّها ثم نفض ورقها لتسقط منها الثمرة .

ذلك البأس فى عيونهم : فما شئت إذ ذاك من خبزة وثيرة يحشى بها كمه ، ورقبة سمينة تدفن فى مخلاته ، ومن كوز فقاع يصب فى فمه ، وتينة رطبة يسدّ بها حلقه ، وسنو سمكة ودكة تدس تحت لسانه ، وفالوذجة رطبة يحنك بها حنكه ، فلا يكاد البأس يستتم ذلك حتى يأتينا فيكب على أيدينا يقبلها ، وأطرافنا يمسحها ، راغبا فى أن نكشف له السر الذى حرك العامة فبذلت ما عندها له و بادرت برفدها اليه[1] » .

وتلك قصة نعرف منها كيف كان الشعر الفصيح ينفع من يستجدون البقالين والقصابين فى الأندلس ، وكيف كانت تلين اللغة لمثل ابن شهيد حتى يخاطب بها فى بلاغةٍ جميع الطبقات .

والمهم أن نعرف رأى صاحبنا أبى عامر حين طُلب منه كشف السر الذى حرك العامة فجادت بعد بخل ، وهشت بعد جمود ، وهو يقول فى الجواب :

"وتعليمه ذلك النحو من أنحاء الشحذ لا نستطيعه : لأن هذا الذى يريد منا تعليمه هو البيان و بين فكره و بينه حجاب . ولكل ضرب من الناس ضرب من الكلام ووجه من البيان[2]" .

٨ — وابن شهيد يرى أنه ليس فى مقدور كل بليغ أن يصل الى كل غرض : فهناك ناس بخلاء من الكبراء يعسر تحريكهم إلى البذل بحيث لا ينجع فيهم تقريظ ، وإذ ذاك "يحتاج الى أثقب ما يكون من الذهن وأوسع ما يكون من الحيلة . إلا أن هذه العصابة لا يمكن لذى النباهة تحريكها ولا بد لها من طبقة يكون لها فى العين بعض التصويب والتصعيد ، ولهذا صار سب الاشراف عسيرا عويصا فانك تجدهم يتدحرج عنهم قبيح المقال ، ولا يضعفهم خبيث الكلام ، لقوة بنيانهم وثبات أركانهم ، فهدم بنيان هؤلاء صعب[3]" .

وهذا الذى يقوله ابن شهيد يحتاج إلى تحديد : فمن الحق أن هناك مواطن يحار فيها البليغ وقد تبدو البلاغة فى بعض الأحيان لونا من اللغو والفضول ، لعجز الكاتب والشاعر والخطيب عن غزو بعض النفوس ، ولكن فى تلك المواطن وحدها يُحتاج الى بيان الكتاب والخطباء

---

(١) ص ١١٩ (٢) ص ١٢٠ (٣) ص ١٢٠

والشعراء، وبمقدار فهم البليغ لما تعقد واستبهم من بعض الأهواء والميول يكون نجاحه فى درك ما يتعسر على سواد المنشئين ، لأن لكل شخصية مهما مكر صاحبها وخبث ولؤم جوانبُ من الضعف ينفذ اليها القول حين يتصل المنشئ بأسرار من يخاطبهم من أهل الشح والكنود ؛ وسر البلاغة لا يظهر إلا فى المواطن التى تبدو مفروغا من الكلام فيها ، وميئوسا من فائدة العود الى شرحها وتفصيلها ، فان المنشئ لا يعجز إلا حيث يكون الجو جو بداهة وظهور بحيث يظهر كل بيان وكأنه حديث مردّد معاد، عند ذلك يعرف البليغ الموفّق كيف يحوّل المسائل الظاهرة الى مشاكل عقلية وروحية واجتماعية، فينقل قلوب الجاحدين وعقولهم الى جواء من البحث والتفكير ويقفهم موقف الحيرة والتردّد بين الخير والشر والبر والعقوق . فليس البليغ هو من يأتى فقط بالبِدْع الطريف، ولكن البليغ هو من يحوِّل الموضوعات العادية الى شئون جدية طريفة تحلل فيها عزائم أهل الشح أو تنهض ضمائرأهل الجمود . وليس من الصحيح أن هناك ناسا يصعب هدم بنيانهم، ولكن الصحيح أن هناك ناسا لا يهدمون لأنهم يهاجمون بمعاول محطمة من الهجو القبيح .

والبليغ يستطيع أن يصل دائما من طريق علم النفس الى مكامن الضعف من نفوس الأقوياء الذين يتوخون أمام دعوات الخير والبر والاحسان، ففى كل نفس مهما لؤمت جوانب خيرة غافية يقدر على إيقاظها البارعون من أهل البيان .

وجملة القول فى هذا المعنى أن البلاغة ضرب من السياسة النفسية، ومن الساسة من تكون نظراتهم أشدّ خطراً على أعدائهم من الجيوش والأساطيل،وكذلك البليغ يكون فى أحيان كثيرة شرا مستطيرا على المعاندين ممن يخاطبهم أو يراسلهم أو يحاورهم فى جدّ أو فى هزل، من قرب أو من بعد ، لأن البلاغة ليست إلا نقل ما فى الروح من حب أو حقد، أو عتب، أو ملام ، وصبّ ذلك كله فى رفق أو عنف فى أفئدة من تخاطب أو تكاتب من عدوّ أو صديق . وذلك يفرض أن تفيض عنا البلاغة ونحن فى أعلى درجة من درجات التيقظ والقوة، وفى أسمى أوج من الغضب أو الحنان، بحيث تكون أنفاسنا شواظا يتلظى حين نهاجم

ونفتك ، ونسيا يتأرج حين نحنو ونعطف . أما وضع الكلام فى ذهول ومن غير درس لأنفس المخاطَبين فهو العىّ الذى استعاذ منه الخطباء، والإفحام الذى تهيب عواقبه الشعراء .

ومن الناس من يظنّ أن البلاغة ليست إلا سواد المداد فى بياض القراطيس !

٩ — على أن ابن شهيد لم يفتــه أن يقرر أنّ سر البــلاغة يرجع الى الطبع قبل أن يرجع الى استيفاء مسائل النحو وحفظ كثير الغريب . وعنده أن البلغاء يتفاوتون بقدر ما يتفاوت تركيب أنفسهم مع أجسامهم :

” فمن كانت نفسه مستولية على جسمه كان مطبوعا روحانيا يُطلع صور الكلام والمعانى فى أجمــل هيئاتها وأروق لباسها . ومن كان جسمه مستوليا على نفسه من أصــل تركيبه كان ما يطلع من الصور ناقصا عن الدرجة الأولى فى التمــام والكمال وحسن الرونق .

” فمن كانت نفسه هى المستولية على جسمه فقد تأتى منه فى حسن نظام صور رائعة تملأ القلوب وتنعش النفوس، فاذا فتشت لحسنها أصــلا لم تجده، ولجمال تركيبها وجها لم تعرفه، وهذا هو الغريب أن يتركب الحسن من غير الحسن، كقول امرئ القيس :

تنورتهـا من أذرعات وأهلها بيثرب أدنى دارها نظر عالى

فهــذه الديباجة إذا تطالبت لهــا أصلا من غريب معنى لم تجــده، ولكن لها من التعلق بالنفس والاستيلاء على القلب ما ترى[1]“ .

وهذا الكلام يمثل جانبا من جوانب البلاغة عند ابن شهيد، وهو جانب الطبع . ومعنى ذلك أنه قد يتفق لنا أن نعجب بفقرة من النثر ، أو بيت من الشــعر ، بدون أن يكون لمــا أعجبنا به معنى غريب، وإنمــا سر إعجابنا يرجع الى ما طُبع به الكلام من شرف الطبع وسمو الروح . والجانب الثانى عند ابن شهيد هو المعنى ، أما اللفظ فهو عنده قالب ولَبوس لا قِوام له بغير المعنى، وهو لذلك يوصى الناقد بأن ”يفتش عن شرف المعانى ، وينظر مواقع البيان ، ويحترس من حلاوة خدع اللفظ[2]“ .

(١) ص ١١٧ (٢) ص ١٥٦

و يقرر أن البليغ "إنمـا يستحق اسم الصناعة بتقحم بحور البيان، وتعمد كرائم المعانى" ولا يتم له ذلك إلا بأن "يمتطى الفصل ويركب الحدّ ، و يطلب النـادرة السائرة وينظم من الحكمـة ما يبقى بعـد موته"[1] .

وكل هذا جدير بالتأمل والدرس ففيه شرح لمـا استغلق على النقاد أزمانا كثيرة، ألسنا نرى فى بعض الرسائل والخطب والقصائد نماذج فاتنـة ، وهى مع ذلك خِلو من غرائب المعانى؟ فلنعرف الآن أن السر فى إعجابنا بأمثال تلك النماذج مرجعه الى الطبع والروح . ونحن نستطيع تعليل ذلك بدرس من نعرف من الناس ، فهناك أفراد غَناؤهم قليل، ومحصولهم ضئيل، ومع ذلك نُفتن بهم أحيانا ونراهم أهلا للحب والإعجاب . وهذا هو سر ذيوع كثير من الآراء الخفيفة الوزن، القليلة العمق، فانها قد تصدر عن فِطر سليمة، وطبائع شريفة، ينقصها العمق ولكنها غنية بالنبل والصفاء .

١٠ — ولا يقف ابن شهيد عنـد اشتراط شرف النفس ، وكرم الطبع، بل يتعدّى ذلك الى الصفات الجسمية : وهو يرى الأجسام من صور النفوس . يوضح ذلك قوله فى المعلمين بقرطبة : "يدركون بالطبيعة و يقصرون بالآلة . وتقصيرهم بالآلة هو من طريق العلل الداخلة، من فساد الآلة الروحانية، والخادمة لآلات الفهم، الباعثة لرقيق الدم فى الشريان الى القلب وزيادة غلظ أعصاب الدماغ ونقصانها عن المقدار الطبيعى، ومايعين على ذلك بالحس وطريق الفراسة من فساد الآلات الظاهرة كفرطحة الرأس وتسفيطه، ونتـوء القمحدوة[2]، والتواء الشدق، وخزر العين، وغلظ الأنف، وانزواء الأرنبة . فنستعيذ بالله أن لايشوه خلقة قلوبنا وجرم أكبادنا"[3] .

وهـذه الأحكام متصلة أوثق اتصال بعلم النفس وعلم منافع الأعضاء ، فليس من شك فى أن للجسم تأثيرا شديدا على الروح حتى فى صورته . والصور المقبولة تبعث فى أصحابها روح الثقة بالنفس . وليس من المجازفة فى شىء أن نتخذ من ذلك تعليلا لهفوات العظماء : فهم فى الأكثر أصحاب أهواء وشهوات، وذلك مظهر من مظاهر الاتساق بين عافية البدن وشباب الروح .

(١) ص ١٥٦ (٢) القمحدوة : عظم الرأس مما يميل الى القفا . (٣) ص ١٢٢

١١ — وابن شهيد وفىّ لمبدئه فى ربط الصلة بين النفس والأعضاء، وقد حمله ذلك على النيل من الجاحظ والغض من قيمته العلمية والأدبية، ورميه بالغفلة والحمق . وقد خطّأ أبا القاسم الافليلى فى تقديمه الجاحظ على سهل بن هارون . ومن رأى ابن شهيد أن حرمان الجاحظ من شرف المنزلة بشرف الصنعة مع تقدّم ابن الزيات وابراهيم بن العباس إما أن يكون لأنه كان مقصرا فى الكتابة و جميع أدواتها ، أو لأنه كان ساقط الهمة، أو لأن إفراط جحوظ عينيه قعد به : لأنه لابدّ للملك من كاتب مقبول الصورة تقع عليه عينه، وأذن ذكية تسمع منه حسه ،وأنف ذكى لا تُذَمّ أنفاسه عند مقاربته له . ولذلك استحسنوا من الكاتب أن يكون طيب الرائحة، سليم آلات الحواس، نقى الثوب، ولا يكون وسخ الضرس منقلب الشفة، مكحل الأظفور، وضر الطوق .

وقد شعر ابن شهيد بأنه من التحامل أن يرمى مثل الجاحظ بنقص فى أدوات الكتابة فقال :

"ربما أنكر قولنا فى شرطه جمع أدوات الكتابة فقيل : وأى أداة نقصت الجاحظ؟ فنقول : أوّل أدوات الكتابة العقل ، ولا يكون كاتب غير عاقل ، وقد نجد عالما غير عاقل ،وجدليا غير حصيف ،وفقيها غير حليم . وقد وجدنا من ينسب العقل الى سهل أكثر ممن ينسبه الى الجاحظ ، ولو شاهد الجاحظ سهلا يخادع الرشيد ملكا ويدبر له حربا ، ويعانى له إطفاء جمرة فتنة ، ناهضا فى ذلك كله بعقله وتجربة علمه لرأى أن تلك السياسة غير تسطير المقال، فى صفة غراميل البغال، وغير الكلام فى الجرذان، وبنات وردان، ولعلم أن بين العالم والكاتب فرقا"(1)

وهذا الكلام يعطى لابن شهيد صورة غير مقبولة ، فالأدب والعلم عنده من وسائل العيش والحظوة لدى الملوك، وبمقدار نجاح الكاتب فى دنياه يكون فضله . وهذا خطأ مبين .

قد تكون دمامة الجاحظ هى التى قعدت به كما قصّر بابن شهيد نفسه ثقل سمعه، وكما تخلف صاحبه الأفليلى لورم أنفه . وإذ ذاك يكون للجاحظ عذره المقبول .

---

(1) ص ١٢٣ و ١٢٤

ولكن هل خطر ببال ابن شهيد أن هناك اختلافا بينا فى تركيب النفوس ؟ إننا نعرف بالتجربة أن العقول شهوات ، فقد تكون السياسة أشهى ما يسمو اليه أمثال سهل بن هارون ولكن لا ريب فى أن العلم أيضا شهوة ، وكان الجاحظ مفتونا أشدّ الفتنة بدرس علم الحيوان ، وكان كذلك مفتونا بدرس طبائع الناس وغرائزهم فى مختلف الطبقات . فليس من العيب أن يهتم بالصغائر فى العلوم لأن العلم فى أصغر جزئياته لا ينال من العالم غير الإكبار والإجلال . إن من العدل أن نزن الأمور بميزان آخر غير النجاح المؤقت الذى يظفر به الكتّاب السياسيون : يجب أن نزن أقدار الرجال بما يبذلون من الجهود فى أعمالهم الأدبية والعلمية ، وإذ ذاك تمكن الموازنة بين ما عمل سهل بن هارون فى ميدان السياسة وبين ما عمله الجاحظ فى ميدان العلم ، أما الموازنة بين حظوظهما الدنيوية فباب من الضلال . ويا ويل أهل الفضل إن قيست أقدارهم بمقياس ما يملكون من دراهم معدودات !

٦ — أبو بكر الباقلانى (١)

١ — لم يصل الينا من آثار أبى بكر محمد بن الطيب الباقلانى إلا كتابه «إعجاز القرآن» وفى بقاء هـذا الكتاب مع ضياع سائر ما وضعه المؤلف دليل على أن معاصريه كانوا اهتموا بنسخه ومدارسته فسلم بذلك من الضياع . ونحن وإن لم نر من مؤلفات الباقلانى غير كتابه فى إعجاز القرآن فانا نستطيع الحكم بأنه خير كتبه : لأنه فى موضوع خطير جدا كان يستوجب من مثله حماسة واستعدادا بالغين . فقد كان بعض الناس فى عصره يرتابون فى إعجاز القرآن وكان فى ارتيابهم ما يسوقه إلى درس الإعجاز من جميع أطرافه ، ودفع الشبه التى كان يذيعها الملحدون فى الحواضر الاسلامية . وإنه ليمثل لنا الأزمة العقلية التى أطبقت على معاصريه إذ يقول :

« ومن أهم ما يجب على أهل دين الله كشفه ، وأولى ما يلزم بحثه ، ما كان لأصل دينهم قواما ، ولقاعدة توحيدهم عمادا ونظاما ، وعلى صدق نبيهم برهانا ، ولمعجزته ثبتا وحجة . لا سيما والجهل ممدود الرواق ، شديد النِّفاق ، مستولٍ على الآفاق . والعلم الى عفاء ودروس ، وعلى خفاء وطموس ، وأهله فى جفوة الزمن البهيم ، يقاسون من عبوسه لقاء الأسد الشتيم ، حتى صار ما يكابدونه قاطعا عن الواجب من سلوك مناهجه ، والأخذ فى سبله . فالناس بين رجلين : ذاهب عن الحق ذاهل عن الرشد ، وآخر مصدود عن نصرته مكدود فى صنعته ، فقد أدى ذلك الى خوض الملحدين فى أصول الدين ، وتشكيكهم أهل الضعف فى كل يقين . وقد قل

---

(١) ولد الباقلانى فى البصرة ، وسكن بغداد ، وبها كانت وفاته يوم الأحد لسبع بقين من ذى القعدة سنة ٤٠٣ وكان من كبار أهل السنة . ورثاه بعض معاصريه بقوله :

أنظر الى جبل تمشى الرجال به	وانظر الى القبر ما يحوى من الصلف
وانظر الى صارم الاسلام مغتمدا	وانظر الى درة الاسلام فى الصدف

والباقلانى : نسبة الى الباقلى بتشديد اللام وقصر الألف . وفيها كلام تجده فى وفيات الأعيان ج ٢ ص ٢٧٠

أنصاره، واشتغل عنـه أعوانه، وأسلمه أهله، فصار عرضة لمن شاء أن يتعرض فيـه حتى عاد مثل الأمر الأوّل على ما خاضوا فيه عند ظهور أمره : فمن قائل إنه سحر، وقائل يقول إنه شعر . وآخر يقول إنه أساطير الأوّلين ... الخ[(١)] » .

وليس فى هـذه الفقرة شىء جديد فان شكوى الزمان من الظواهر الانسانية التى يجدها المطلع فى أكثر ما اثر عن القدماء والمحدثين . ورجال الدين خاصة يكثرون من التبرم بمعاصريهم ووصفهم بالزيغ والالحاد والفسوق . فليس معنى هذا الكلام أن أهل القرن الرابع كانوا أكثر الناس شبهات وأضاليل ، ولكن معناه أنهم كانوا كذلك فى نفس المؤلف ، وفى هذا ما يدفعه الى التأهب لمناضلة المرتابين فى إعجاز القرآن .

٢ — ونحب فى بداية هـذا الفصل أن نحدّد موقفنا فى درس كتاب الباقلانى عن الإعجاز . ونقرر — فى صراحة — أننا لا نريد عرض مسألة الإعجاز على بساط البحث من جديد . وانما يهمنا أن نتبين كيف كان القدماء يفهمون النقد وكيف كانت مذاهبهم فى وزن الكلام البليغ . فكتاب الباقلان فى نظرنا صـورة للحياة الأدبيـة فى أنفس الناقدين من رجال القرن الرابع . وليس حجة فى تقدير القرآن . لأن وزنه أخف من أن يفصل فى تلك المسألة الدقيقة : مسألة الكلام المعجز الذى يسمو ببلاغته على ما يتطلع اليه فرسان الفصاحة والبيان . وهناك جانب آخر لا نذكر أن من الباحثين من أشار اليه : وهو جمع المحاولات الأدبيـة التى حاولها خصوم القرآن، ففى تلك المحاولات صورة من صور النقد لها قيمة فى أنفس من يعنون بتاريخ الآداب . ونحن كمؤرخين للأدب يهمنا أن نستقصى جهد الطاقة ما تناثر هنا وهناك من محاولات الناقدين بدون تفريق بين الخطأ والصواب . فان ذلك فى جملتـه يمكننا من درس الحياة الأدبية دراسة علمية بعيدة عن مطارح الأوهام والظنون .

٣ — من ذلك ما حدّثنا الباقلانى أنه نُقل اليه أن من خصوم القرآن من (جعل يعدله ببعض الأشعار ويوازن بينه وبين غيره من الكلام ولا يرضى بذلك حتى يفضله عليه[(٢)]) — ففى

---

(١) ص ٩ و ١٠ (٢) ص ١٠

هذا الخبر ظاهرة أدبية خطيرة ينبغى أن نقيد أنها وقعت فى القرن الرابع. ولو أن الباقلانى بين لنا كيف كانت تلك المعادلات والموازنات لاستطعنا أن نعرف الى أى حد كانت تلك المحاولات تتصل بتاريخ النقد الأدبى، ولكن ما صنعه الباقلانى نفسه فى نقد امرئ القيس والبحترى يحدد لنا ذلك المنهج بعض التحديد: فقد عرض لأشهر قصيدة نسبت الى امرئ القيس وهى المعلقة فنقدها بيتا بيتا بعد أن أشار الى أنه لا يرتاب فى جودة شعر امرئ القيس ولا يشك فى براعته وفصاحته وما أبدع فى طرق الشعر من أمور اتُّبع فيها كذكر الديار والوقوف عليها وما يتصل بذلك من التشبيه الذى أحدثه والتمليح الذى يوجد فى شعره والتصرف الكثير الذى يصادَف فى قوله والوجوه التى ينقسم اليها كلامه من صناعة وطبع وسلاسة وعلو ومتانة ورقة. ولم ينقد الباقلانى معلقة امرئ القيس إلا ليبين للقارئ أن تلك القصيدة ونظائرها تتفاوت فى أبياتها تفاوتا بينا فى الجودة والرداءة والسلاسة والانعقاد والسلامة والانحلال والتمكن والتسهل والاسترسال والتوحش والاستكراه: فهى على ذلك كلام ينحت من الصخر تارة ويذوب تارة، ويتلون تلوّن الحرباء، ويختلف اختلاف الأهواء، ويكثر فى تصرفه اضطرابه وتتقاذف به أسبابه. ومثل هذا الكلام لا يقارَن بالقرآن الذى يصفه بأنه "قول يجرى فى سبله على نظام، وفى وصفه على منهاج، وفى وضعه على حد، وفى صفاته على باب، وفى بهجته ورونقة على طريق مختلفة مؤتلفة، ومؤتلفة متحدة، ومتباعدة متقاربة، وشارده مطيع، ومطيعه شارد، وهو على متصرفاته واحد: لا يستصعب فى حال ولا يتعقد فى شأن".

٤ — ونتيجة هذا — من وجهة تاريخية — أن الباقلانى ومعاصريه رأوا أنه فى الامكان أن يوازنوا بين قصيدة من الشعر وسورة من القرآن. وان لم يتحد الموضوع. وسبيل ذلك أن تبين محاسن القصيدة ومساويها ويشرح فيها المبتذل والطريف والمقبول والمرذول ثم يقابَل ما سلم فيها بالسورة التى توازيها فى الكمية ليظهر ما فى السورة من المحاسن التى لم يشنها ضعف ولا تهافت ولا فضول.

وهذا النحو من النقد يعد من المحاولات البارعة فى الأدب العربى . ولا عيب فيه إلا التحامل والإسراف . فان خصوم القرآن كانوا يأبون إلا الوصول إلى شواهد يحكمون لها بالفضل . والباقلانى كان يعمد الى القصائد التى يعرف فيها الضعف ليصل دائما الى الحكم للقرآن بالفضل . وقد بلغ به التحامل أن طعن فى قول البحترى :

ما الحسن عندك ياسعاد بمحسن   فيما أتاه ولا الجمال بمجمل

وزعم أن أسلم منه وأبعد من الخلل قول كشاجم :

بحياة حسنك أحسنى وبحق من   جعل الجمال عليك وقفا أجملى

مع أن الذى يفهم الشعر ويتذوقه يحكم بأن بيت كشاجم هذا لا يصح أن يقارن ببيت البحترى إلا عند غُلف القلوب . وأغرب من هذا الشطط أن ترى الباقلانى يأخذ فى نقد بيت البحترى فيقول :

قوله "عندك" حشو وليس بواقع ولا بديع وفيه كلفة . والمعنى الذى قصده أنت تعلم أنه متكرر على لسان الشعراء : وفيه شيء آخر لأنه يذكر أن حسنها لم يحسن فى تهييج وجده وفى تهييم قلبه . وضد هذا المعنى هو الذى يميل اليه أهل الهوى والحب .

٥ — هذا كلام الباقلانى . وهو كلام سقيم يدل على أنه لم يفهم بيت البحترى على الاطلاق ! وعلى هذا النمط من التحامل أفسد الرجل تلك الطريقة الجميلة : موازنة قصيدة من الشعر بسورة من القرآن . وكيف تنتظر العدل من حَكَم يكتب صحيفة الاتهام على هواه ؟

إن الذى يوازن بين قصيدة من الشعر وسورة من القرآن يجب عليه أن يكون مستعدا للحكم بالعدل . وهذا لا يتيسر لناقد يرى من همه أن يبحث عن مساوى القصيدة ويطمس محاسنها أو يتجاهلها أو يغض من قيمتها . وهو فى مقابل ذلك يجدّ فى البحث عن محاسن السورة القرآنية وإبراز مزاياها ولا يستبيح لنفسه التفكير فى وضع ألفاظها أو معانيها أو أغراضها أو أسلوبها موضع النقد . وهذا كاف فى تجريح ما همّوا به قديما من الموازنة بين أثرين : أحدهما من الشعر، وثانيهما من القرآن .

٦ — وتقع بعد ذلك مسألة شغل بها أكثر الباحثين فى إعجاز القرآن .

وهى إعجاز غير القرآن من كلام الله كالتوراة والإنجيل والصحف الربانية .

ويجيب الباقلانى بأنه لا شىء من ذلك بمعجز فى النظم والتأليف وان كان معجزا كالقرآن فيما يتضمن من الأخبار بالغيوب . ويضيف إلى ذلك أنه لم يكن معجزا لأن الله لم يصفه بما وصف به القرآن ولأنه لم يقع التحدى اليه كما وقع التحدى إلى القرآن[1] .

ومعنى ذلك أن الباقلانى يرى أن غير القرآن من كلام الله لم يكن معجزا لأن الله لم يصفه بذلك . وتكون النتيجة أن نسبة الكلام إلى الله لا تعطيه صفة الإعجاز إلا إذا وصف الله كلامه به وتحدى المعارضين اليه كما تحداهم إلى القرآن .

ونحن نسأل : لماذا لم يصف الله التوراة والانجيل بالإعجاز ؟ ولماذا لم يمنح تلك الكتب المزية التى منحها القرآن ؟ ؟ .

وقد توقع الباقلانى أن يوجه اليه هذا السؤال . وكذلك عرض لنا رأيا له قيمته فى فهم القدماء لخطر اللغة العربية ومقارنتها بما سبقها أو عاصرها من اللغات . وهو يرى أن اللغات التى كتبت بها التوراة والانجيل لا يتأتى فيها من وجوه الفصاحة ما يقع به التفاضل الذى ينتهى الى حد الاعجاز . وانما يقع فيها التقارب فى البيان[1] .

فان سأل القارئ : أكان الباقلانى يعرف من اللغات الأجنبية ما يمكنه من الحكم بأن اللغة العربية انفردت من بين سائر اللغات بالتفاضل فى وجوه الفصاحة؟ فانا نجيب بالنفى .

وهو نفسه يحدثنا بأنه رأى أصحابه يذكرون هذا فى سائر الألسنة ويقولون : ليس يقع فيها من التفاوت ما يضمن التقديم العجيب[1] .

٧ — وهنا يتطوع الباقلانى بشرح أسرار تفوق اللغة العربية فيقول :

---

(١) ص ٣٤ .

«ويتكشف بيان ذلك بأنا لا نجد فى القدر الذى نعرفه من الألسنة للشيء الواحد من الأسماء ما نعرفه من اللغة العربية وكذلك لا نعرف فيها الكلمة الواحدة تتناول المعانى الكثيرة على نحو ما تتناوله العربية»[1] .

وهذا المعنى عرض له ابن فارس إذ قال :

«انا لو احتجنا أن نعبر عن السيف وأوصافه باللغة الفارسية لما أمكننا ذلك إلا باسم واحد ونحن نذكر للسيف بالعربية صفات كثيرة وكذلك الأسد والفرس وغيرهما من الأشياء المسماة بالأسماء المترادفة . فأين هذا من ذلك وأين لسائر اللغات من السعة ما للغة العرب»[2] .

والفكرة فى ذاتها سخيفة : لأن فضل اللغة العربية لا يرجع الى ما فيها من كثرة المترادفات إذ كانت هـذه المترادفات من الثروات الضائعة التى لا يحتاج اليها الا عند اللغو والتطويل . والقرآن نفسه الذى اتفقوا على سموه لم يعتمد على المترادفات فى كثير ولا قليل وانما هو كلام طلق يجرى الى غاية فى غير تعمل ولا اعتساف .

٨ — ومن غرائب المقارنات أن المسيو مرسيه استفاد من اجماع علمائنا القدماء على أن كثرة المترادفات من أهم خصائص اللغة العربية فجاء أخيراً وطعن لغتنا طعنة دامية فى تقرير مطول قدمه الى وزير المعارف فى باريس زعم فيه أن اللغة العربية لغة «مائعة» لا تعرف تحديد الألفاظ ولا الصفات[3] .

والمسيو مرسيه غير منصف فى هذا الموضوع لأنه فى تقريره اهتم بجمع الهنات والعيوب وكان الظن به أن لا يتناسى أن المترادفات التى كان منها خمسون اسما للحجر ومائة للسيف وخمسمائة للاسد ليست مترادفات جمعت من اللغة القرشية وهى أساس لغتنا العربية وانما هى كلمات «تصيدها» الرواة من مختلف أرجاء الجزيرة حبا فى المبالغة والإغراب .

فمن يبلغ الباقلانى وابن فارس ان ما كان غرة فى زمانهم أصبح فى زماننا من أعراض الأمراض ؟

---

(١) ص ٣٤ (٢) الصاحبى ص ١٢

(٣) كان ذلك فى خريف سنة ١٩٣٠ ونشر التقرير فى أحد مطبوعات وزارة المعارف الرسمية .

وذلك التمحل من جانب البلاقلانى ساقه الى تقرير « أن الشعر لا يتأتى فى تلك الألسنة على ماقد اتفق فى العربية وان كان قد يتفق فيها فى صنف أو أصناف ضيقة لم يتفق فيها البديع مايمكن ويتأتى فى العربية وكذلك لا يتأتى فى الفارسية جميع الوجوه التى تتبين فيها الفصاحة على ما يتأتى فى العربية » .

٩ — وهذه التهم التى كان يوجهها القدماء الى اللغات الأجنبية يقدمها الأجانب اليوم الى اللغة العربية : فلغتنا فى أذهان كثير من أهل الغرب والشرق لا يتأتى فيها الشعر على ما قد اتفق فى الانجليزية والفرنسية والألمانيه مثلا « وان كان قد يتفق فيها فى صنف أو أصناف ضيقة » فما أعجب ما تشابه التهم على اختلاف الأجيال !.

على أن كلام الباقلانى له دلالته ومعناه : فهو صريح فى اعتزاز القدماء باللغة العربية . وإنا لنجد عند الجاحظ أصلا لهذا القول . وهو يحدثنا بأن الفرس والهند والروم كانت لهم خصائص لم يتفق مثلها للعرب وأن العرب فى مقابل ذلك انفردوا بالفصاحة والبيان[١] .

١٠ — وللقارئ أن يذكر أن هذا « الغرور القومى » كانت له مضار ومنافع ، فمن مضاره أنه صرف العرب عن نقل الشعر الفارسى واليونانى ظنا منهم أن فى شعر امرئ القيس مثلا غنى عن شعر هوميروس . ومن منافعه أنه أغراهم بالاعتزاز بشعرهم ولغتهم حتى ظنوا أن الاعجاز لا يتأتى وقوعه فى غير اللغة العربية التى حسبوها تفردت بالتصرف فى الاستعارات والاشارات .

وقد يكون حظ القدماء أجمل من حظنا فى هذا الباب . فنحن اليوم نؤمن بأن اللغة العربية كسائر اللغات لا يتفق فيها الاعجاز لذاتها . وانما يقع الاعجاز حيث تكون العبقرية فى القلوب والعقول .

ونؤمن بأن فى اللغات ضروبا من التصرف فى القول قد لا يتفق مثلها أحيانا للغة العربية ولكنا لم ننقل من الشعر الأجنبى شيئا يقارب ما نقله أسلافنا من الفلسفة الأجنبية وانصرف

(١) راجع البيان ج ٣ ص ١٢

كثير من شبابنا عن دراسة الشعر القديم فحرموا من تراث الأسلاف وكان لهم فيه معين من الفن لا ينضب ولا يغيض .

ووقف المجددون فى الشعر موقف التردّد والحيرة : فلا هم عرب ينسجون على منوال الفرزدق والبحترى والمتنبي، ولاهم فى طبعهم فرنجة يجيدون محاكاة بيرون وجوت ولامرتين.

١١ — وقد جاء فى كتاب « إعجاز القرآن » ما يفيد أن القرآن ليس من جنس كلام العرب ؟

فما هى حجة الباقلانى؟ حجته أن العرب لم يأتوا بمثله وأن منهم من خشع له بدون أن يدرك معناه . ومن أمثلة ذلك ان جماعة بعثوا بعتبة بن ربيعة الى الرسول — وكان عتبة حسن الحديث عجيب الشأن بليغ الكلام — فلما وصل الى الرسول طمعاً فى أن يأتى أصحابه بما عنده قرأ عليه النبي سورة ﴿ حم . السجدة ﴾ من أولها حتى انتهى الى قوله : ﴿ فان أعرضوا فقل أنذرتكم صاعقة مثل صاعقة عاد وثمود ﴾ .

فوثب عتبة مخافة العذاب .

قال الباقلانى " فاستحكوه ما سمع فذكر أنه لم يسمع منه كلمة واحدة ولا اهتدى لجوابه . ولو كان ذلك من جنس كلامهم لم يخف عليه وجه الاحتجاج والردّ . فقال له عثمان ابن مظعون " لتعلموا أنه من عند الله إذ لم يهتد لجوابه[1] " .

ذلك ماقرره الباقلانى . ومانحسب أحدا يرتاب فى أن هذا محض اختلاق : فانه لايعقل أن يؤمن الرجل بما لا يفهم . ومن المرجح أن مثل هذه الأقاويل مما وضعه الرواة والقُصاص .

ويقول الباقلانى فى موطن آخر :

" قد ذكرنا أن العرب كانت تعرف ما يباين عاداتها من الكلام البليغ لأن ذلك طبعهم ولغتهم فلم يحتاجوا الى تجربة عند سماع القرآن ... وقال تعالى : ﴿ ولو جعلناه قرآنا أعجميا

(١) إعجاز القرآن ص ٣٠ و ٣١

لقالوا لولا فصلت آياته أ أعجمى وعربى» ، فأخبر أنه لو كان أعجميا لكانوا يحتجون فى ردّه إما بأن ذلك خارج عن عرف خطابهم أوكانوا يعتذرون بذهابهم عن معرفة معناه بأنهم لا يتبين لهم وجه الإعجاز فيه لأنه ليس من شأنهم ولا من لسانهم أو بغير ذلك من الأمور وانه إذا تحداهم الى ما هو من لسانهم وشأنهم فعجزوا عنه وجبت الحجة عليهم [1] ".

والقارئ يرى تناقضا بين هذه الفقرة وبين الفقرة التى نقلناها آنفا . وهذا التناقض وقع بين سياقين فصل بينهما بنحو ما ئتى صفحة فللباقلانى عذره حين غاب عنه هنا ما أثبته هناك .

فخلاصة الفقرة الأولى ان القرآن ليس من جنس كلام العرب لأنه اتفق لأحدهم أن خشع له بدون أن يستطيع حكاية لفظه أو معناه .

وخلاصة الفقرة الثانية ان القرآن من جنس كلام العرب . ولولا ذلك لاحتجوا فى ردّه بأنه خارج عن عرف خطابهم ، أو اعتذروا بذهابهم عن معرفة معناه بأنهم لا يتبين لهم وجه الإعجاز فيه لأنه ليس من شأنهم ولا من لسانهم .

١٢ — ونحب أن نفصل رأينا فى هذه المسئلة ونحن نرى أن الفوارق بين اللغات تنحصر فى الألفاظ والأساليب : فاللغة تكون غير عربية إذا كانت ألفاظها أو أساليبها أعجمية . وقد يتفق مثلا أن نفتح كتابا تركيا أو فارسيا فنرى إحدى صفحاته تغلب فيها الكلمات العربية أو تكون بعض الجمل فى ألفاظ عربية ولكننا لا نفهم شيئا لأن الأسلوب غير عربى .

وقد تكون جملة وضعت فى ألفاظ أعجمية ورتبت فى وضعها على الأسلوب العربى . ولكننا لانفهمها لأن ألفاظها غير عربية . ومن هنا يتضح أن العرب فهموا بلا جدال ألفاظ القرآن ومعانيه لانه عربى اللفظ والأسلوب . ولا عبرة بما حكاه الباقلانى من أن بعض العرب عجز عن تأدية ما سمعه من آى القرآن . لأن هذا يخالف المعقول والمنقول ويناقض ما منّ به القرآن على منكريه من أنه بلسان عربى مبين .

(١) ص ٢١٨

١٣ — بقى نوع آخر من وجوه التفاضل فى الكلام وهو المعنى : ونحن نرى أن سر الفصاحة والبلاغة يرجع إلى ما فى المعنى من قوة وروح . ومن المتفق عليه أنه لا يكفى أن يكون المعنى صحيحا ليكون الكلام بليغا . ألا ترى أنه لا يوجد أصدق من قول من قال :

كأننا والماء من حولنا ... قوم جلوس حولهم ماء

ولكن من الذى يقيم وزنا لصدق هذا الكلام ؟ إن هذا الصدق هو التفاهة بعينها . وقد رأى بعض النحاة ان البديهيات لا تسمى كلاما . ومن رأى ذلك البعض أن من يقول " السماء فوقنا والأرض تحتنا " لم يقل شيئا ولا يضاف ما يلفظ به الى الكلام المفيد .

وعلى هذا لا يكفى أن يكون الكلام صادقا ليكون بليغا . و إنما يجب أن يكون مع صدقه طريفا يستهوى العقل والقلب . ومن امثلة ذلك قول قريط بن أنيف :

لو كنت من مازن لم تستبح إبلى ... بنو اللقيطة من ذهل بن شيبانا
إذن لقام بنصرى معشر خُشُنٌ ... عند الحفيظة ان ذو لوثة لانا
قوم إذا الشر أبدى ناجذيه لهم ... طاروا إليه زرافات ووحدانا
لا يسألون أخاهم حين يندبهم ... فى النائبات على ما قال برهانا
لكنّ قومى وان كانوا ذوى عدد ... ليسوا من الشر فى شيء وان هانا
يجزون من ظلم أهل الظلم مغفرة ... ومن إساءة أهل السوء إحسانا
كأن ربك لم يخلق لخشيته ... سواهمو من جميع الناس إنسانا
فليت لى بهمو قوما إذا ركبوا ... شدوا الإغارة فرسانا وركبانا

وهذه القطعة من بدائع الشعر العربى . وهى قطعة خالدة ستظل قوية بارعة ما بقى فى العالم ناس يفهمون سر العربية . ومع هذا لا تستطيع أن تجد فيها ألفاظا يعز على غير قائلها الوصول إليها ، أو أسلوبا فى التعبير يتميز عن غيره من الأساليب . وجمالها كله يرجع إلى دقة المعنى وطرافته وتخير الألفاظ تخيرا يجعلها تمثل مع المعنى كتلة واحدة . فقوله مثلا :

قوم إذا الشر أبدى ناجذيه لهم ... طاروا إليه زرافات ووحدانا

هـذا البيت يمكن رجع طرافتـه الى كلمة " أبدى ناجذيه " وكلمة " طاروا " وهاتان ليستا كلمتين وإنمـا هما المعنى تجسم فى لفظين فرضهما السياق . وقوله :

لكن قـومى وان كانوا ذوى عدد   ليســوا من الشر فى شئ وإن هانا

فقوة هـذا البيت ترجع الى قوله " وان كانوا ذوى عدد " وقوله — " وان هانا " وفيهما أيضا يتجسم المعنى فى قوة وروح . وقد بلغ هذا الشاعر أقصى غايات التهكم فى قوله :

كأن ربك لم يخلق لخشـيته   سواهمو من جميـع النـاس إنسانا

١٤ — وقد تجد من الشعر ما تخلو معانيه وألفاظه من الروعة الظاهرة . ولكن قوة الروح تصـل به الى أسمى غايات الابداع . ومثال ذلك قول حطان بن المعـلى يشكو فقره وما وضع القدر فى رجليه من قيود الأهل والذرية :

أنزلنى الدهر على حكمـه   من شامخ عالٍ الى خفض
وغالنى الدهر بوفـر الغـنى   فليس لى مال سـوى عرضى
أبكانىَ الدهر ويا ربمـا   أضحكنى الدهر بمـا يرضى
لولا بنيات كزغب القطـا   رُددن من بعض الى بعض
لكان لى مضطرب واسـعٌ   فى الأرض ذات الطول والعرض
وإنمـا أولادنا بيننـا   أكبادنا تمشى على الأرض
لو هبت الريح على بعضهـم   لا متنعت عينى عن الغمض

وقوة هذا الشعر ترجع الى الشاعر لا إلى اللفظ ولا الى الأسلوب : ومن ذلك يتضح أن من يزعمون أن القرآن ليس من جنس كلام العرب لم يفهموا شيئا من أسرار الإعجـاز . ولذلك نراهم يدورون حول الظواهر والمحسِّنات اللفظية : فيقول بعضهم إن العرب لم يكونوا يعرفون غير الأسجاع والأمثال فبهرهم القرآن لأنه جاء على نمط غير الذى كانوا يعرفون من أنماط الأسجاع والأمثال . ويقول آخرون : إن العرب كانوا تارة يسجعون وتارة يترسلون فجاء القرآن يجمع بين السجع والترسل فى نظام بديع . ويقول مؤلفو كتاب "المجمل" الذى قررت الوزارة

تدريسه بالمدارس الثانوية : إن العرب لم يكونوا يعرفون غير الشعر وفنونه وأوزانه وأغراضه فجاء القرآن نفاجأهم بلون من الأدب جديد[1] .

١٥ — وهذا كما يرى القارئ يرجع الى الناحية اللفظية أو الفنية . ونحن نرى غير ذلك فنرى أن محمدا عليه السلام اجتذب العرب لأنه نبى ولم يجتذبهم لأنه فنان. فالفن الكلامى لم يكن جديدا عند العرب وانما كان الجديد عندهم أن يأتيهم رجل منهم بأساليب من الفكر والعقل والوجدان غير التى كانوا يألفون. ولو رجعنا الى حزب المعارضة لعهد الرسول لرأيناه لا ينكر إلا ما جاء به القرآن من معان وأغراض . ولم يتعرض مطلقا لما جاء به من ألفاظ وأساليب . فالمعركة كانت تدور رحاها حول ما فى القرآن من الدعوة الى توحيد الله عز شأنه و إفراده بالقدرة والجبروت . ولو تأملنا قليلا لرأينا أن الذى يروعنا من الشاعر الواحد هو ما تنفرد به بعض قصائده أو أبياته من دقة المعنى أو طرافة الخيال .

ومن هنا صح للنقاد القدماء أن يقولوا عن بعض الشعراء :

"لو قال هـذا وسكت لكان أشعر الناس" .

وصح لهم أيضا أن يقولوا :

"أشعر الناس النابغة إذا رغب . والأعشى إذا شرب . وامرؤ القيس إذا طرب . وعمرو ابن كلثوم إذا غضب" .

وهذا كلام دقيق جدّا لأنه يضيف قوة الشعراء الى خصائصهم النفسية والروحية : فالشاعر شاعر لأنه يتحدّث عن ذات نفسه وعن ضميره و روحه ووجدانه ، فهو فيما يرجع الى جوهر نفسه أفصح منه فيما يتعلق بنوافل الأغراض .

ولذلك كان هذا الشاعر أبلغ إذا مدح . وذاك أفصح اذا شبّب . وذاك أخل اذا تحمس . ولو استقرينا المنازعات الأدبية فى الأمم التى نعرفها لرأيناها ترجع الى المعانى والأغراض لا الى الألفاظ والأساليب . فالنزاع فى فرنسا مثلا بين الكلاسيك والرومانتيك كان نزاعا حول الفكرة .

(١) راجع ص ٦٣ و ٦٤

فالكلاسيك يرون أن الأغراض يجب أن تكون موضوعية (objectif) والرومانتيك يفضلون أن تكون الاغراض ذاتية (Subjectif) .

١٦ — وفى مصر والشرق العربى كانت المنازعات الأدبية تدور حول الفكرة فالنزاع الأدبى القديم بين محمدعبده ومعاصريه كان نزاعا حول فكرة . والنزاع بين قاسم أمين ومعاصريه كان يدور حول فكرة . والخصومات العنيفة التى وقعت بين على يوسف وعبد العزيز جاويش كانت حول فكرة . والنزاع القريب جدّا بين الجديد والقديم كان نزاعا حول فكرة. وما نحسب أحدا ممن هاجموا المنفلوطى كان ينكر أن أسلوبه جيد ولكن الذين هاجموه ادّعوا أنهم يحاربون فى شخصه فكرة المحافظة على قديم التقاليد .

ولا جدال فى أن الألفاظ والأساليب تتلوّن وتتشكل بلون الفكرة التى تسيطر عليها. وعلى هذا الأساس وجد الأسلوب الجزل والأسلوب الرقيق . فالرقة والجزالة من مقتضيات المعانى لا الألفاظ . فالمعنى الجزل له لفظ جزل، والمعنى الرقيق له لفظ رقيق . فاذا غلبت الرقة على شاعر مثل البها زهير فمرجعها الى الفكرة لأنه شاعر وديع يعبر عن معانٍ وديعة يلهَم أمثالها أصحاب الوداعة والرقة من الشعراء المترفين . واذا غلبت الجزالة على شاعر مثل المتنبى فمرجعها أيضا الى الفكرة لأنه شاعر طامع فى أسمى ما يطمح اليه فحول الرجال وهو الملك والتغلب والسيطرة والسلطان .

أفبعد هذا البيان يدهش ناس مما أشرت اليه مرة من أن السلامة والتعقيد والرقة والجزالة والوضوح والغموض كلها صور للنفس الانسانية التى تفصح عما يطيف بها من معان وأفكار وأراء وأغراض ؟ .

١٧ — وبعد هذا وذاك : أكان القرآن كلاما من جنس كلام العرب أم كان لونا من التعبير يختلف عما عرفوه وألفوه كل الاختلاف ؟ .

هو كلام من جنس كلامهم، ومن جوهره ومعدنه . ولكنه يمتاز بقوّة المعنى وقوّة الروح . فان قيل : ولِمَ تعذر عليهم أن يأتوا بشىء من مثله؟ فانا نجيب بأن القرآن نفسه فصل

فى هـذه المسألة حين قال ﴿ فأتوا بعشر سور مثله مفتريات وآدعوا من آستطعتم من دون الله إن كنتم صادقين ﴾ .

فلنتأمل جيدا عبارة ﴿إن كنتم صادقين﴾ ففيها الجواب كل الجواب . وهل كان فى مقدور العرب أن يكونوا جميعا أنبياء حتى يصلوا الى ماوصل اليه مواطنهم وزعيمهم وسيدهم محمد بن عبد الله الذى صدقت كلمتهم فيه قبل نبوته حيث لقبوه بالصادق الأمين ؟

١٨ — وقد كان من القـدماء من يرى أن البـلاغة لا ترجع الى المعانى : لأن المعانى فى رأيهم يعـرفها العربى والعجمى والقروى والبدوى . وإنمـا ترجع البلاغة الى جودة اللفظ وصـفائه .

ودليل ذلك عندهم أن الخطب والأشعار الرائعة ما عملت لإفهام المعانى فقط . لأن الردىء من الألفاظ يقوم مقام الجيد منها فى الافهام وان الكلام اذا كان لفظه حلوا عذبا ومعناه وسطا دخل فى جملة الجيد، واذا كان المعنى صوابا واللفظ باردا دخل فى جملة المستهجن الملفوظ[1] .

١٩ — أما نحن فنلقى العجم والقرويين جانبـا ونحصر البلاغة فى جمهور المثقفين . ثم نقرر أن الألفاظ ملك للجميع يجدونها حيث أرادوا فى المعاجم والدواوين، ولا يبقى موضعا للجهد والعنت أو العبقرية إلا المعـانى والأغراض . ومن العبث أن نظن أن البلاغة لا تخرج عن المناورات اللفظية . فان هذا إسراف فى تقدير الزخرف وامتهان لصولة العقول . إن الألفاظ فى مقدور كل شاعر وكل كاتب وكل خطيب . ولكن المعجز حقا هو الفكرة . وليس معنى هذا أننا لا نقيم وزنا للصناعة الفنية . ولكن معناه أننا نقرر أن الفكرة تجىء أولا ويجىء الورق ثانيا كما يقول الفرنسيون .

وقـد رأى ناس قول الباقلانى "ليس القرآن من جنس كلام العرب" فقرروا خاطئين أن القرآن يخالف ما درجت عليه البلاغة العربية من حيث الأسلوب . ولو سألتهم عن تحديد معنى (الأسلوب) لعجزوا عجزا مبينا، لأن الأسلوب فى رأينا هو الصورة الظاهرة لعقل الكاتب

(١) راجع الصناعتين ص ٤٢

وروحه وفكرته ومرماه، وليس فى مقدور أحد من المتفوقين فى علوم البلاغة أن يحدّد الأسلوب تحديدا منطقيا يجمع خصائصه ويمنع ما يتطرق اليه من غريب الأوصاف ، أو أن يدلنا على خواص أسلوب القرآن دلالة واضحة بريئة من عوارض اللبس والغموض، فان ألفاظ القرآن كألفاظ كل كلام عربى مبين لا تمتاز باللفظ ولا بالأداء وإنما تمتاز بالمعنى والغرض والروح .

فان أراد أحد شاهدا على ما نقول فانا نفتح المصحف عرضا بدون تخير ثم ننقل آيات لنسأله أن يعين ما جاء فيه غريبا عن الأساليب العربية . ولنختر خمس آيات من مطلع سورة الأنبياء : ﴿ اقترب للناس حسابهم وهم فى غفلة معرضون . ما يأتيهم من ذكر من ربهم محدث إلا استمعوه وهم يلعبون . لاهية قلوبهم وأسروا النجوى الذين ظلموا هل هذا إلا بشر مثلكم أفتأتون السحر وأنتم تبصرون . قال ربى يعلم القول فى السماء والأرض وهو السميع العليم . بل قالوا أضغاث أحلام بل افتراه بل هو شاعر فليأتنا بآية كما أُرسل الأوّلون ﴾ .

فأين تكون غرابة الأسلوب فى هذه الآيات الخمس ؟ وأين يكون السياق الفنى الغريب عن الأعراب؟ أليس مرجع الروعة فى هذه الآيات الى المعنى والروح؟ أترونها تمتاز بالسجع؟ وكيف والسجع كان معروفا قبل القرآن ؟ أترون ألفاظها متخيرة منتقاة ؟ هو ذلك . ولكن كيف يدور اختيار الألفاظ؟ أترون لاختيار الألفاظ مدارا غير موجبات المعانى والأغراض؟ فان كانت هذه الآيات الخمس لا تكفى فالى القارئ شواهد أخر من القرآن المجيد . يقول الله عز شأنه : ﴿ ولا يجرمنكم شنآن قوم على أن لا تعدلوا ﴾ .

وأنا أشهد صادقا أنى ما فكرت فى هذه الآية إلا دهشت من سموّ هذا النصح النبيل . فأين يكون جمال هذه الآية؟ أترونها من جنس غير جنس كلام العرب كما زعم الباقلانى؟ هيهات! إن ألفاظها تشبه جميع الألفاظ وتركيبها لا يتميز بشىء عن غيره من التراكيب .

ولكن الجمال هنا فى المعنى الشريف الذى قضى به القرآن وذلك المعنى هو الدعوة الى إيثار العدل فى جميع الأحوال من غضب وسكون وحب وشنآن . وقد راجعت صديقا اديبا فى هذه الآية فأراد أن يلتمس الجمال الفنى فى كلمة (ولا يجرمنكم) فان صح افتراض ذلك الصديق

فانا نسأل أيضا ومن أين ظفرت تلك الكلمة بمعنى الإعجاز. أليس مرجع ذلك الى ربطها بالمعنى الذى اقتضاه السياق ؟ على أنه من الخير أن نسوق الآية كاملة لتبين كيف يمكن أن تكون بعض أجزاء الآية الواحدة أقوى من بعض :

﴿ ولا يجرمنكم شنآن قوم على أن لا تعدلوا، اعدلوا هو أقرب للتقوى ﴾ .

ألا ترون إن أنصفتم أن كلمة (اعدلوا هو أقرب للتقوى) تقل فى قوتها عن كلمة ﴿ولا يجرمنكم شنآن قوم على أن لا تعدلوا ﴾ فما هو سبب التفاوت ؟ لا يظن أحد أن مرجع التفاوت هو الأسلوب فان القرآن تفرد فى رأى مخالفينا بوحدة الأداء والتعبير، فلم يبق من فرق بين صدر الآية وعجزها غير تفاوت المعنى . والتفاوت هنا جاء من أن صدر الآية معنى بِكر لا يجرى إلا على ألسنة الحكماء والأنبياء . على حين نرى عجز الآية يؤدى معنى مفهوما لدى جميع الناس .

ثم لننظر قوله جل ثناءه ﴿ ألم أعهد اليكم يابنى آدم أن لا تعبدوا الشيطان انه لكم عدو مبين ﴾ . هذه من غرر الآيات القرآنية : فأين يقع منها الحسن ؟ أترونه فى اللفظ ؟ أترونه فى الأسلوب ؟ وكيف وهى ألفاظ يجدها من يريد فى أسلوب واضح يدركه جميع المخاطبين ويستطيعه جميع الكاتبين . ان الجمال هنا فى الروح العالى : حيث يخاطب الله الآثمين وقد ألقى بهم فى نار الجحيم .

٢٠ — نترك شواهد القرآن جانبا لأنها من المواطن الشائكة . ونوضح نظريتنا بشواهد من النثر الجيد والشعر البليغ .

قيل لأعرابى يسوق مالا كثيرا : لمن هذا المال ؟ قال : لله فى يدى !

تأملوا عبارة "لله فى يدى" لتروا انها من نوادر الكلام الجيد البليغ ، ثم انظروا أترون فيها شيئا غير جمال المعنى ؟

ان الأدباء جميعا يحفظون كتاب عمرو بن مسعدة ، كتاب التوصية الذى ضربت ببلاغته الأمثال ، فلنذكر به القراء :

"كتابى هذا كتاب معنىّ بمن كتب له ، واثق بمن كتب اليه، وأرجو أن لا يضيع حامله بين الثقة والعناية . والسلام" .

أفترون هنا جديدا فى لفظ أو فى أسلوب ؟ إن الطرافة كلها تنحصر فى المعنى لو تنظرون.

وكتب أحد الأمراء يوصى بعض قوّاد الجيش :

"وكن من احتيالك على عدوّك أشدّ حذرا من احتيال عدوّك عليك" .

وهذا كلام نادر قلما تجود بمثله القرائح . فأين يكون جماله ؟ أترونه فى شىء غير المعنى ؟

وكتب عمر بن الخطاب الى أبى موسى الأشعرى :

"عُدْ مرضى المسلمين ، وآشهد جنائزهم، و باشر أمورهم بنفسك، فانما أنت رجل منهم غير أن الله جعلك أثقلهم حملا" .

وهى نصائح عادية وأبلغها جميعا قوله "فانما أنت رجل منهم غير أن الله جعلك أثقلهم حملا" .

أفترون الجمال هنا، جمال البلاغة، فى شىء غير المعنى ؟

٢١ — والشعر ؟ ما جماله وما عذوبته ؟ أنظروا قول ابن الأحنف :

أتأذنون لصب فى زيارتكم فعندكم شهوات السمع والبصر

إن صدر هذا البيت عادىّ لا طريف فيه ولكن تأملوا عجزه حيث يقول (فعندكم شهوات السمع والبصر) ألا ترون انه معنى نادر نفيس وفيه وحده جمال البيت؟ ألا ترون أن لفظة "شهوات" لم تكن أوفى ولا أدق إلا حيث قرنت بالسمع والبصر وتحاشت ماعداهما من نعيم الحواس ؟

وانظروا قول قيس بن ذَرِيح :

الى الله أشكو فقد لُبنى كما شكا الى الله بعد الوالدين يتيمُ

وهذا من الكلام الجيد : فهل كانت جودته فى غير معناه ؟ أليس كل ما هنا من روعة يعود الى تشبيه الزوجة الصالحة بالأم الرءوم، وتشبيه العاشق المهجور بالطفل اليتيم ؟

وانظروا قول جميل بن معمر :

فلو أرسلت يوما بثينة تبتغى　　يمينى ولو عزت علىّ يمينى
لأعطيتها ما جاء يبغى رسولها　　وقلت لها بعد اليمين سلينى
سلينىَ مالى يا بثين فانما　　يبيَّن عند المال كل ضنين
فما لك لما خبّر الناس أنتى　　أسأت بظهر الغيب لم تسلينى
فأبلىَ عذرا أو أجيئ بشاهد　　من الناس عدل أنهم ظلمونى
لحا الله من لاينفع الود عنده　　ومن حبله ان مُدّ غير متين
ومن هو ذو لونين ليس بدائم　　على ثقة خوان كل أمين

وقد تقولون : إن جمال هذا الشعر فى رقته وعذوبته . ولكن أترون الرقة والعذوبة إلا صورة ظاهرة لروح الشاعر وما يضمره لمعشوقته من عطف وحنان ؟ ألم أقل لكم إن الرقة والجزالة هى صفات للمعانى تُمثل فى أشباح الألفاظ !

٢٢ — ولو اننا عدنا الى كتب النقد لرأينا أن القدماء كانوا يجعلون المعنى أساس الصورة بحيث يُعد الشاعر سارقا للمعنى وإن غير من صورته . ومن ذلك قول البعيث :

أترجو كليب أن يجئ حديثها　　بخير وقد أعيا كليبا قديمها

أخذه الفرزدق فقال :

أترجو ربيع أن يجى صغارها　　بخير وقد أعيا ربيعا كبارها

وهذا ليس بشىء فى جانب المعانى التى تؤخذ من المدح الى الهجاء ومن النسيب الى الرثاء وهى كثيرة جدا، ومع ذلك تنبه النقاد الى أنها سرقة، وتنبه الشعراء الى جرائمهم حتى روى عن الأخطل أنه قال : "نحن معاشر الشعراء أسرق من الصاغة"[1].

٢٣ — وأنا مع هذا كله من أعرف الناس بقدر الألفاظ والأساليب فلست أنكر أن الشعراء والكتّاب والخطباء يتفاوتون فى الصياغة الفنية، ولكننى أومن قبل كل شىء بالمعنى

(١) الموشح ص ١٤١

والروح . وأرى الألفاظ على لسان الشاعر والكاتب والخطيب تشبه أدوات الحرب وأسلحة القتال فى أيدى الرجل : فالسيف هو السيف فى يد البطل وفى يد الجبان ، ولكنه فى يد البطل موت أزرق الناب . على حين نراه فى يد الجبان أقل غَناء من العصا فى يد الوليد . والخيل هى الخيل ، ولكن الجواد لا يكون جوادا إلا اذا اعتلى صهوته فارس مغوار ، وهو تحت الرجل الرخو أشبه شيء بالحمار "تحت الفلاح العبيط" والمرأة هى المرأة ، ولكنها بين يدى الرجل الغزل أنضر منها فى حضرة الرجل البليد ! والكتّاب المجيدون الذين أجمع الناس على احترامهم تتفاوت أيامهم تفاوتا شديدا : فهم فى بعض الأيام من فرسان البلاغة وأعيان البيان ، وهم فى أيام أخر يُسفّون ويتهافتون . فما سبب ذلك ؟ السبب معروف فان روح الكاتب يتأثر بمزاجه وظروفه وموضوعه تأثرا بليغا . فلو كان الأسلوب هو سر البلاغة لتحتم أن يكون الكاتب بليغا فى جميع أحواله ، وهذا محال . فلم يبق إلا أن يكون للبلاغة سر آخر غير الأسلوب . وذلك السر هو المعنى والروح . وليست المعانى الجيدة بطائعة للكاتب فى كل لحظة ، ولا الروح القوى بمواتيه فى كل حين . أيفهم قوم الآن أن القرآن من جنس كلام العرب فى اللفظ والأسلوب ؟ أيفهمون الان أن القرآن يمثل النثر العربى فى العصر الذى نزل فيه وأن سرّ إعجازه راجع الى روحه ومعانيه ؟

٢٤ — ومن أغلاط الباقلانى قوله بنفى السجع من القرآن ، وهو يتابع فى هذا أبا الحسن الأشعرى وأصحابه ، ويعارض جمهورا كبيرا من أهل العلم والأدب ، منهم من سبقه ومنهم من عاصره ، وحجة مخالفيه أن السجع مما يبين به فضل الكلام وأنه من الأجناس التى يقع بها التفاضل فى الفصاحة والبيان . ومن أقوى ما يستدلون به على وجود السجع فى القرآن أن المسلمين اتفقوا على أن موسى أفضل من هارون ، ومع ذلك قيل فى موضع "هارون وموسى" مراعاة للسجع ، ولما كانت الفواصل فى موضع آخر بالواو والنون قيل "موسى وهارون"[1] .

---

(١) ص ٥٩

والواقع أن السجع موجود فى القرآن فى مواطن كثيرة ، ولا ينكره إلا معاند لا يفقه ما يقول، ومن أمثلته : ﴿ والسماء ذات الرجع ، والأرض ذات الصدع، إنه لقول فصل ، وما هو بالهزل ﴾[1] .

ومن أمثلته أيضاً : ﴿ والسماء ذات البروج ، واليوم الموعود، وشاهد ومشهود ، قتل أصحاب الأخدود، النار ذات الوقود، إذ هم عليها قعود، وهم على ما يفعلون بالمؤمنين شهود﴾[2].

وكذلك : ﴿ إذا الشمس كورت، وإذا النجوم آنكدرت، وإذا الجبال سُيِّرت ، وإذا العِشار عُطِّلت ، وإذا الوحوش حشرت، وإذا البحار سُجِّرت، وإذا النفوس زوجت، وإذا الموءودة سئلت ، بأى ذنب قتلت ، وإذا الصحف نشرت ، وإذا السماء كشطت ، وإذا الجحيم سعرت، وإذا الجنة أزلفت، علمت نفس ما أحضرت . فلا أقسم بالخُنَّس، الجوارِ الكنَّس، والليل إذا عسعس، والصبح إذا تنفس، إنه لقول رسول كريم، ذى قوة عند ذى العرش مكين، مطاع ثم أمين، وما صاحبكم بمجنون، ولقد رآه بالأفق المبين، وما هو على الغيب بضنين ﴾[3] .

ولا أطيل فى سرد الآيات المسجوعة، ففى السور المكية شواهد كثيرة على السجع والازدواج .

٢٥ — والمهم أن نعرف ما هى حجة الباقلانى على نفى السجع من القرآن لنقدر وزنه للحجج والبينات، وهو يقول :

" لو كان القرآن سجعا لكان غير خارج عن أساليب كلام العرب، ولو كان داخلا فيها لم يقع بذلك إعجاز، ولو جاز أن يقال : هو سجع معجز، لجاز لهم أن يقولوا : شعر معجز ، وكيف والسجع مما كان يألف الكهان من العرب، ونفيه من القرآن أجدر بأن يكون حجة من نفى الشعر ، لأن الكهانة تنافى النبوات، وليس كذلك الشعر[4] " .

(١) سورة الطارق . (٢) سورة البروج . (٣) سورة التكوير . (٤) ص ٦٠

وهذا كلام ساقط ضعيف ، فالسجع موجود فى القرآن ، ولكن الرجل يأبى أن يعترف به ، لأن الاعتراف بوجوده فى القرآن يتضمن الاعتراف بأنه غير خارج عن أساليب كلام العرب ، والاعجاز فى رأيه ينحصر فى الأسلوب ، وما دمنا سلمنا بأن القرآن معجز فانه يجب أن نؤمن بأنه غير مسجوع ، وإلا ساوينا بينه وبين سائر الكلام !

ونحن لا ندرى كيف اتفق للباقلانى وأصحابه من الأشعرية أن يفهموا هذا الفهم العقيم ولا ندرى كيف صح له أن يحتم نفى السجع من القرآن قياسا على نفى الشعر ، بل يزيد على ذلك أن نفى السجع أوجب لأنه كان أسلوب الكهان . والمسألة كلها لعب فى لعب وضلال فى ضلال : لأن اختصاص السجع بالكهان حديث خرافة ، والمعقول أن السجع كان عند أهل الجاهلية لونا من الزخرف الفنى يلجأ اليه الكاتب والخطيب رغبة فى التأثير ، ولم يغلب السجع على الكهان إلا لأنهم كانوا أكثر من غيرهم ثقافة وأدبا ، إذ كانوا قادة الجماهير فى الجاهلية . والسجع فى القرآن لا يمنع من إعجازه ، لأن الاعجاز كما أسلفنا مرجعه الى سمو المعنى وقوة الروح ، والرسول رجل من العرب تفرد من بينهم بتبليغ الرسالة الى قومه ، فمن الواضح أنه ينقلها اليهم فى أجمل ما عرفوا من الأساليب . ونفى الشعر عن القرآن ليس معناه أن الشعر غير صالح للإعجاز كما توهم الباقلانى ، ولكنى أرجح أن الشعر لعهد النبوة لم يكن من تقاليده الاهتمام بالشؤون الجدية ، وخاصة المسائل الروحية والدينية ، ولذلك نجد القرآن يعرّض بالشعر ويتهم الشعراء باللغو والفضول والهيام فى أودية الخيال . والشعر مع هذا فى أسلوبه لعهد النبوة كان أضيق من أن يتسع لشرح المشاكل الدينية والاجتماعية التى أطال فى شرحها القرآن ، ومن هذا يتبين أن عدم تبليغ الرسول رسالته شعرا لم يكن معناه أنه تحامى الشعر لئلا يشارك العرب فى أساليبهم كما ظن الباقلانى وأصحابه الأشعريون .

٢٦ — على أن الباقلانى لا يقف عند هذا الخطأ بل يتعداه الى خطأ أشنع فى فهم السجع فيقول :

" والذى يقدرون أنه سجع فهو وهم لأنه قد يكون الكلام على مثال السجع وان لم يكن سجعا ، لأن ما يكون به الكلام سجعا يختص ببعض الوجوه دون بعض ، لأن السجع من الكلام يتبع المعنى فيه اللفظ الذى يؤدى السجع ، وليس كذلك ما اتفق مما هو فى تقدير السجع من القرآن لأن اللفظ يقع فيه تابعا للمعنى ،وفصلٌ بين أن ينتظم الكلام فى نفسه بألفاظه التى تؤدى المعنى المقصود فيه وبين أن يكون المعنى منتظما دون اللفظ ، ومتى ارتبط المعنى بالسجع كانت إفادة السجع كافادة غيره ، ومتى ارتبط المعنى نفسه دون السجع كان مستجلبا لتجنيس الكلام دون تصحيح المعنى"[1] .

وخلاصة هذه الفكرة أن الكلام لا يكون سجعا إلا اذا كان المعنى فيه تابعا للفظ ولا ندرى من أين أتى الباقلانى بهذه القاعدة . والصواب أن خير السجع ما كان اللفظ فيه تابعا للمعنى ، كما أشار الى ذلك غير واحد ممن كتبوا فى فنون البيان ، ونحن اذا تأملنا السجع فى القرآن رأينا اللفظ فيه تابعا المعنى ، ونرى القرآن فى مواطن كثيرة يضحى بفواصل السجع فى سبيل المعنى ، لا كما يفعل المتكلفون حين يضحون بالمعنى فى سبيل السجع .

وهناك خطأ آخر تورط فيه الباقلانى إذ يقول :

" لو كان الذى فى القرآن على ما تقدرونه سجعا لكان مذموما مرذولا ، لأن السجع إذا تفاوتت أوزانه واختلفت طرقه كان قبيحا من الكلام ، وللسجع منهج مرتب محفوظ وطريق مضبوط ، متى أخل به المتكلم أوقع الخلل فى كلامه ونُسب الى الخروج على الفصاحة ، كما أن الشاعر إذا خرج عن الوزن المعهود كان مخطئا وكان شعره مرذولا ، وربما أخرجه عن كونه شعرا ، وقد علمنا أن بعض ما يدعونه سجعا متقارب الفواصل متدانى المقاطع ، وبعضها مما يمتد حتى يتضاعف طوله عليه وترد الفاصلة على ذلك الوزن الأول بعد كلام كثير ، وهذا فى السجع غير مرضىّ ولا محمود"[2] .

(١) ص ٦٠ و ٦١ (٢) ص ٦١

ووجه الخطأ هنا أن الباقلانى يحاكم القرآن الى قواعد وضعها المتأخرون، وكان أولى به أن يفهم أن القرآن هو الأساس، وخروج القرآن على السجع من حين الى حين من دلائل سلامته وبلاغته ، لأن التزام السجع باب الى الغلو والإغراق ، ولم يقبح السجع على ألسنة المتأخرين إلا لأنهم التزموا به ما لا يلزم فى التزيين والتجميل . والذين قالوا بوجود السجع فى القرآن لم يفرضوا التزامه فى جميع الأحوال ولا وقعوا فى مثل ما وقع فيه الباقلانى من الخطأ حين نفاه على الاطلاق (١) .

---

(١) يحسن بالقارئ أن يرجع الى الفصل الذى بسطنا فيه «أطوار السجع» فى الجزء الأول .

٧ — أبو القاسم الآمدى

١ — لم يصل الينا من أخبار الحسن بن بشر الآمدى شىء كثير . وكل ما نعرفه أنه ولد بالبصرة — ولا ندرى متى — وأنه انتقل الى بغداد فتلقى النحو واللغة عن الأخفش والزجاج وابن دريد وابن السّراج ، وأنه عاد الى البصرة فكتب لأبى الحسن أحمد وأبى أحمد طلحة بن الحسن بن المثنى . وكتب بعدهما للقاضى أبى جعفر بن عبد الواحد . ثم لأخيه أبى الحسن محمد بن عبد الواحد ثم لزم بيته بالبصرة الى أن مات نحو سنة ٣٧١ هـ [(١)] .

٢ — وليس فيما قرأنا من أخباره ما يعين مذهبه فى الحياة . ونستطيع فقط أن نتخذ من مؤلفاته دليلا على أن حياته العقلية قُصرت أو كادت على اللغة والنقد . يؤيد ذلك مجموعة كتبه التى أشار اليها ياقوت ومنها : كتاب المختلف والمؤتلف فى أسماء الشعراء . وكتاب نثر المنظوم . وكتاب الموازنة بين أبى تمام والبحترى . وكتاب فى أن الشاعرين لا تتفق خواطرهما . وكتاب ما فى عيار الشعر لابن طباطبا من الخطأ . وكتاب فرق بين الخاص والمشترك من معانى الشعر . وكتاب تفضيل شعر امرئ القيس على الجاهليين . وكتاب تبيين غلط قدامة بن جعفر فى كتاب نقد الشعر . وكتاب معانى شعر البحترى . وكتاب الرد على ابن عمار فيما خطّأ فيه أبا تمام . وكتاب فعلت وأفعلت [(٢)] .

وهذه المجموعة تعين اتجاهات ذهنه فى حياته الأدبية : فهو من النقاد المولعين بدرس الشعر ونقد ما كتب عنه . وهو بنوع خاص مغرم بدرس البحترى وأبى تمام ، وتعقب ما كتبه رجال القرن الثالث عن الشعر والشعراء . ولو بقيت مؤلفاته لاستطعنا أن نصل الى شىء كثير من المعارف الأدبية التى كان يملكها رجال القرن الثالث والرابع ، ولأمكننا أن نعرف

---

(١) راجع ترجمته فى معجم الأدباء ج ٣ ص ٥٤ — ٦١ (٢) ياقوت ص ٥٨ ج ٣

الى أى حد كان أولئك القوم يعرفون من الدقائق الفنية التى تسبق الى أذهان الشعراء فتتفق أو تختلف وَفقا لاختلاف الأحوال أو توافُق المشاعر والأذواق .

وهناك شواهد تدل على أنه فى حياته الاجتماعية كان حريصا على تتبع أحوال معاصريه وربط ما يسمع من أخبارهم بما نُقل اليه من أخبار السالفين وتقييد ما عرف عن أهل عصره من النوادر والفكاهات .

٣ — وكان فوق ذلك كثير الشعر، حسن الطبع، جيد الصنعة، مشتهرا بالتشبيهات — كما قال ياقوت — ولكن شعره ضاع وما بقى منه يدل على أنه كان جيد المعانى فى أسلوب ينقصه الرُّواء . من ذلك قوله :

يا واحدا بان فى الزمان	ممن يجاريه أو يدانى
دعنىَ من نائل جزيل	يعجز عن شكره لسانى
فلست والله مستميحا	ولا أخًا طامعا ترانى
وهب اذا كنت لى وهوبا	من بعض أخلاقك الحسان

وقوله فى عالم تمتام :

لا تنظرن الى تُعتعه اذا	رام الكلام ولفظه المعتاص
وانظر الى الحكم التى يأتى بها	تشفيك عند تطلق وخلاص
فالدر ليس يناله غواصه	حتى تقطع أنفس الغواص

ومن الشعر الفكاهى قوله فى أحد القضاة :

رأيت قلنسوة تستغيـ	ـث من فوق رأس تنادى خذونى
وقد قلقت فهى طورا تميـ	ـل من عن يسار ومن عن يمين
فطورا تراها فويق القفا	وطورا تراها فويق الجبين
فقلت لها أى شىء دهاك	فردت بقول كئيب حزين
دهانىَ أنْ لست فى قالبى	وأخشى من الناس أن يبصرونى

وأن يعبثــوا بمزاح معى ... وإن فعلوا ذاك بى قطعــونى

فقلت لها مرّ من تعــرفين ... من المنكرين لهــذى الشؤون

ومن كان يشهق إما رآك ... ويخــرج من جــوفه كالرنين

ومن كان يصــفع فى الله لا ... يمل ويشــتدّ فى غير لين

ويسلح ملأك كيــل التمام ... إما عــلى صحــة أو جنـون

ففـارقهـا ذلك الانــزعاج ... وعادت إلى حالهـا فى السكون

٤ — وأهم ما بقى من آثار الآمدى هو كتابه "الموازنة بين أبى تمـام والبحترى" وهو كتاب يضعه فى الصف الأول ويقدّمه على كثير من الناقدين .

وأساريه فى ذلك الكتاب من أدق الأساليب وأصفاها وأبعدها من اللغو والفضول ، وآراؤه فى نقد الشعر آراء جيدة سديدة نعجب لها اليوم أشدّ العجب و بيننا و بينه عشرة قرون .

٥ — وأمتن ما يصل بيننا و بين ذلك الرجل — على بعد العهـد — معرفته لنفسية الأدعياء أدعياء الأدب والبيان : فهو يقرّر أن الناس يعتقدون أن الشعر منفرد من بين سائر الأشياء بجواز العلم به لكل أحد والحكم عليه لكل ناظر . لأن الذى يعرف منهم من الذهب والفضة والرقيق والخيل والسلاح والثياب والطيب أكثر مما يعرف من الشـعر لا يتهم نفسه فى المعرفة بالشعر تهمته إياها فى المعرفة بتلك الأشياء : لأنه يرى الفرس فيعجبه ملاحة سبيبه ، واستدارة كفله ، وبريق شعره ، وصحة قوائمه ، وسلامة أعضائه ، و براءته من العيـوب الظاهرة والباطنة ، ولكنه لا يقدم على ابتياعه حتى يشاور فى أمره أصحاب البصر به . ويرى السـيف فيبهره منه جلاؤه ، وصقاله ، وصفاء حديده ، ولكنه لا يمضى فيـه اختياره حتى يعتمد على من يعرف حســنه وطبعه وجوهره وفرنده ومضاءه . ويريد ابتياع ثوب الوشى فيروقه منــه حسن طرزه ، وكثرة صوره ، وبديع نقوشــه ، واختلاط ألوانه ، فلا يبـادر إلى إعطاء ثمنــه حتى يرجع إلى أهل العلم بجوهره وجودة رقعتــه وصحة نسجه وصحة إبريسمه .

ولكنه لا يجرى على هذه القاعدة فى الشعر لأنه ربما سمع القصـيدة فأعجبه منها حسن وزنها

أو دقة معانيها أو ما آشتملت عليه من مواعظ وآداب وحكم وأمثال : فيتعجل بالحكم لها على سوٰاها قبل أن يرجع إلى من هو أعلم منه بالشعر واستواء نظمه ووضع ألفاظه فى مواضعها، وغير ذلك من الأنظار الدقيقة التى لا يدركها إلا أرباب الصناعة (١) .

٦ — ومن الدقائق الغريبة أن نرى الآمدى منذ عشرة قرون يفهم أن هناك حاسة فنية يرجع اليها الناقد حين يعوزه الإفصاح عما يدركه من أسرار البيان : فهو يحدثنا أنه كما قد يكون الفرسان سليمين من كل عيب موجود فيهما سائرعلامات العتق والجودة والنجابة و يكون أحدهما أفضل من الآخر بفرق لا يعلمه إلا أهل الخبرة والدراية الطويلة، وتكون الجاريتان بارعتين فى الجمال سليمتين من كل عيب فيفرق بينهما العالم بأمر الرقيق حتى يجعل فى الثمن بينهما فضلا كبيرا بدون أن يقدر على عبارة توضح وجه ذلك الفرق وإنما يعرفه بطبعه وكثرة دربته وطول ملابسته ، فكذلك الشعر : قد يتقارب البيتان الجيدان النادران فيعلم أهل العلم بصناعة الشعر أيهما أجود إن كان معناهما واحدا، وأيهما أجود فى معناه إن كان معناهما مختلفا (٢) .

٧ — وهذه النظرية البعيدة فى تقدير الحاسة الفنية لم تكن مما انفرد به الآمدى : فقد سُبق اليها ولكنه آستغلها أحسن آستغلال . وأجمل ما جاء فى هذا الباب ما حكاه إسحق الموصلى : "قال لى المعتصم أخبرنى عن معرفة النغم و بينها لى — فقلت إن من الأشياء أشياء تحيط بها المعرفة ولا تؤدّيها الصفة" .

قال : "وسألنى محمد الأمين عن شعرين متقاربين وقال : اختر أحدهما فاخترت . فقال : من أين فضلت هذا على هذا وهما متقاربان ؟ فقلت : لو تفاوتا لأمكننى التبيين ، ولكنهما تقاربا ففاضلت بينهما بشىء تشهد به الطبيعة ولا يعبر عنه اللسان" . وقيل لخلف الأحمر : إنك لا تزال تردّ الشى من الشعر وتقول هو ردىء والناس يستحسنونه فقال :

"إذا قال لك الصيرفى : إن هذا الدرهم زائف فليس بنافعك قول غيره إنه جيد" (٢) .

ولكن كيف السبيل الى كسب الذوق الأدبى أو الحاسة الفنية ؟

(١) الموازنة ص ٢٠٦ (٢) الموازنة ص ٢٠٧

حنا يجيب الآمدى بأن ذلك لا يكون إلا بكثرة النظر فى الشعر، والارتياض فيه، وطول الملابسة له والانقطاع اليه، والانكباب عليه، والجد فيه، والحرص على معرفة أسراره وغوامضه .

٨ — والآمدى مع هذا يقرر بأنه ليس فى مقدور كل إنسان أن يصل الى كسب الذوق الأدبى بطول الممارسة : لأن كل امرئ إنما يتيسر له ما فى طبعه قبوله وما فى طاقته تعلمه . وليس كل طبع قابلا لفهم أسرار الأدب والبيان ومن هنا صح له أن يقول :

« واعلم أيها السائل المتعنت أن هذا الذى تسائله ليس فى وسعه أن يجعلك فى العلم بالصناعة كنفسه . ولا يجد سبيلا الى قذف ذلك فى نفسك ولا فى نفس ولده ومَن هو أخص الناس به، ولا أن يأتيك فى ذلك بعلة قاطعة ولا حجة باهرة . على أن العلم الذى لا يستقر فى الذهن إلا بالروية والمشاهدة وطول الملابسة لا يمكن أن ينتقل الى ذهن آخر بمجرد القول والصفة . إلا إذا استطاع صاحب البصر بالسيوف أن يصف لك عشرة آلاف سيف مختلفات الأجناس والجواهر، بحيث يجعلك مشاهدا لها كلها فى لحظة واحدة، عالما بكل علة، محيطا بكل حجة .

”وبعد فلعل الذى غرك فى دعواك المعرفة بالشعر والقدرة على الحكم فيه أن عندك خزانة كتب تشتمل على عدّة من دواوين الشعراء تتصفحها أحيانا وتحفظ منها القصيدة أو القصائد وفاتك أنك لم تغتر هذا الاغترار فيما يتعلق بثياب بدنك، وأثاث بيتك، وطرق نفقتك؛ لأنا لا نراك تبتاع وشيا ولا آلة ولا تصرف دينارا بدرهم ولا درهما بدينار، حتى ترجع الى من يعرف ذلك دونك فتستعين به على حاجتك مخافة أن تفجع فى مالك . فكان خليقا بك أن تسلّم أمر الشعر إلى أهله مخافة أن تفجع فى عقلك . ومصيبة الغبن فى العقل أكبر من مصيبة الغبن فى المال“.[1]

٩ — والآمدى يؤثر الشعر المطبوع على الشعر المصنوع . ويعيب على الشعراء طلب الإغراق والإبداع والميل الى وحشىّ المعانى والألفاظ، وإن كان ذلك مما يروى ويستجاد

(١) ص ٢٠٧ و ٢٠٨

فى المعانى والألفاظ والتعابير . فالشاعر الحضرى لا يُقبل منه التوعر لأنه خروج على فطرته ، وقد يقبل من البدوى لأنه يجرى فيه على سجيته ، فكأن الفطرة هى الميزان . وهذا كما يرى القارى من أدق الأحكام .

وقد يكون لهذا الاتجاه دخل فى أعمار الألفاظ ، فبعضها عُمِّر طويلا لأنه وافق هوى فى أنفس الحضريين وبعضها هجر فمات لقلة الاستعمال : ومن هذه الناحية فضَّل الآمدى البحترى على أبى تمام : لأن البحترى كان يتعمد حذف الغريب والوحشى من شعره ليقربه من فهم من يمتدحه . إلا أن يأتيه طبعه باللفظة بعد اللفظة فى موضعها من غير طلب لها . وكان من أمره فى ذلك أنه كان يكنى أبا عبادة ، فلما دخل العراق تكنى أبا الحسن ليزيل العنجهية والأعرابية ويساوى فى مذاهبه أهل الحاضرة ويقرب بهذه الكنية الى أهل النباهة والكتاب من الشيعة . فهو بذلك بدوى تحضر فراج شعره فى البدو والحضر (١) . ولا كذلك أبو تمام فانه حضرى تشبه بأهل البدو فلم ينفق بالبادية ولا عند أكثر الحاضرة .

١١ — والآمدى لا يستبعد اللحن بل يقرر أنه " لا يكاد يعرى منه أحد من الشعراء المحدثين ولا يسلم منه شاعر من الشعراء الاسلاميين . وأنه قد جاء فى أشعار المتقدمين ما لا يقوم العذر فيه إلا بالتأويلات البعيدة . وأن ما عيب على البحترى من مخالفة المقاييس والبعد عن الصواب قد جاء كثير مثله فى أشعار القدماء . والأعراب الفصحاء (٢) " .

والواقع أن اللحن قديم . ومن الخطأ أن يُظن أن العرب لم يلحنوا إلا حين اختلطوا بالأعاجم . ولكنه من الواجب أن يلاحظ أن لطبائع الشعراء والكتاب دخلا فى فيما أُثرعنهم من اللحن : لأن لبعض الأذهان طرائق خاصة فى التعبير قد تعدّ انحرافا عن الصواب . فى حين أنها تفصح عن أغراض اصحابها أتم الافصاح — ولو ترك الناس على فطرتهم لكان من طرائق تعبيرهم مادّة صالحة لعلم النفس : لأن الأساليب الكتابية صور للاتجاهات العقلية ، والوجدانية ، والنفسية . وفى العقول كما فى الأساليب وضوح وغموض وخطأ وصواب .

(١) راجع ص ١٣ (٢) ص ١٤

بين صاحب أبى تمام وصاحب البحترى

اخترع الآمدى مناظرة طريفـة تمثل النزاع الذى قام بين أصحاب أبى تمـام وأصحاب البحترى . وهى مناظرة طويلة يجدها القارئ فى صدر كتاب "الموازنة بين الطائيين" ورأينا أن نثبت طرفا منها فى هذا الفصل ليرى القارئ كيف لانَ النثر وعذُب على قلم الآمدى وهو يصوغ هذا الحديث[1] :

صاحب أبى تمام — كيف يجوز لقائل أن يقول إن البحترى أشعر من أبى تمام ، وعن أبى تمام أخذ ، وعلى حذوه احتذى ، ومن معانيه استقى : حتى قيل الطائى الأكبر والطـائى الأصـــغر .

صـاحب البحترى — أما الصحبة له فما صحبه ، ولا تتلمذ له ،ولا روى ذلك أحد عنه ولا نقله ، ولا أرى قط أنه محتاج اليه .

ودليل ذلك الخبر المستفيض من اجتماعهما وتعارفهما عنـد أبى سعيد محمد بن يوسف الثغرى وقد دخل عليه البحترى بقصيدته التى أولها :

* أأفاق صب من هوى فأفيقا *

وأبو تمام حاضر فلما أنشدها علق أبو تمام منها أبياتا كثيرة فلما فرغ من الانشاد أقبـل أبو تمام على محمـد بن يوسف فقال : أيهـا الأمير ! ما ظننت أن أحدا يقدم على أن يسرق شعرى وينشده بحضرتى حتى اليوم ! ثم اندفع ينشد ما حفظه حتى أتى على أبيات كثيرة من القصيدة فبهت البحترى . ورأى أبو تمام الإنكار فى وجه أبى سعيد فحينئذ قال أبو تمام :

"أيها الأمير والله ما الشعر إلا له وإنه أحسن فيه الاحسان كله" وأقبل يقرظه ، ويصف معانيه ، ويذكر محاسنه ، ولم يقنع من محمد بن يوسف حتى أضعف له الجائزة . فمن كان يقول مثل هذه القصيدة التى هى من عين شعره ، وفاخر كلامه ، قبل أن يعرف أبا تمـام ، جدير به

(١) اكتفينا فى إثبات هذه الصفحات بما أورده المرحوم مصطفى لطفى المنفلوطى فى مختاراته . ومن أراد الشواهد فليرجع اليها فى صدر كتاب الموازنة فهى هناك أروق وأمتع .

أن يستغنى عن أن يصحبه، أو يتلمذ له أو لغيره من الشعراء . على أننى لا أنكر أنه استعار بعض معانى أبى تمام لقرب البلدين وكثرة ما كان يطرق سمع البحترى من شعره . وليس ذلك بمقتض أن يكون أبو تمام أستاذ البحترى ولا بمانع أن يكون البحترى أشعر من أبى تمام . فهذا كثيّر قد أخذ من جميل واستقى من معانيه، فما رأينا أحدا قال إن جميلا أشعر منه بل هو عند أهل العلم بالشعر والرواية أشعر من جميل .

صاحب أبى تمام — إن البحترى نفسه يعترف أن أبا تمام أشعر منه فقد سئل عنه وعن أبى تمام : « فقال إن جيده خير من جيدى » وجيد أبى تمام كثير .

صاحب البحترى — إن كان هذا الخبر صحيحا فهو للبحترى لا عليه، لأن قوله هذا يدل على أن شعر أبى تمام كثير الاختلاف، وشعره شديد الاستواء، والمستوى الشعر أولى بالتقدمة من المختلف الشعر، وقد اجتمعنا نحن وأنتم على أن أبا تمام يعلو علوا حسنا وينحط انحطاطا قبيحا . وأن البحترى يعلو بتوسط ولا يسقط . ومن لا يسقط ولا يُسفّ أفضل ممن يسقط ويُسفّ .

صاحب أبى تمام — إن أبا تمام انفرد بمذهب اخترعه وصار فيه أولا وإماما متبوعا وشُهر به حتى قيل هذا مذهب أبى تمام وطريقة أبى تمام . وسلك الناس نهجه واقتفوا أثره، وهى فضيلة عرىَ عن مثلها البحترى .

صاحب البحترى — ليس الأمر على ما وصفت، وليس أبو تمام صاحب هذا المذهب ولا بأول فيه ولا سابق اليه، بل سلك فيه سبيل مسلم بن الوليد واحتذى حذوه وأفرط فى ذلك وأسرف حتى زال عن النهج المعروف، والسّنن المألوف، بل إن مسلما غير مبتدع له ولكنه رأى هذه الأنواع التى وقع عليها آسم البديع متفرقة فى أشعار المتقدمين فقصدها وأكثر فى شعره منها . ولكنه حرص على أن يضعها فى مواضعها ولم يسلم مع ذلك من الطعن عليه حتى قيل أنه أوّل من أفسد الشعر فجاء أبو تمام على أثره واستحسن مذهبه، وأحب أن يجعل كل بيت من شعره غير خال من هذه الأصناف، فسلك طريقا وعرا، وآستكره الألفاظ

والمعانى استكراها : ففسد شعره ، وذهبت طلاوته ، ونشف ماؤه . فقد سقط الآن احتجاجكم باختراع أبى تمام لهذا المذهب وسبقه اليه . وكل ما فى المسئلة أنه استكثر منه وأفرط فكان إفراطه فيه من أعظم ذنوبه ، وأكبر عيوبه . أما البحترى فانه ما فارق عمود الشعر وطريقته المعروفة على كثرة ما جاء فى شعره من الاستعارة والتجنيس والمطابقة فكان انفراده بحسن العبارة وحلاوة اللفظ وصحة المعنى والبعد عن التكلف والتعمل سببا فى إجماع الناس على استحسان شعره واستجادته وتداوله . ونَفاق شعر الشاعر دليل على علو مكانته واضطلاعه بما يلائم الأذواق ويلامس القلوب من أساليب الكلام ومناهجه .

صاحب أبى تمام — إنما أعرض عن شعر أبى تمام من لم يفهمه لدقة معانيه وقصور فهمه عنه ، أما النقاد والعلماء فقد فهموه وعرفوا قدره ، وإذا عرفت هذه الطبقة فضيلته لم يضره طعن من طعن بعدها عليه .

صاحب البحترى — لا يستطيع أحد أن ينكر منزلة ابن الأعرابى وأحمد بن يحيى الشيبانى ودعبل بن على الخزاعى من الشعر ومنزلتهم من العلم بكلام العرب . وقد علمتم مذهبهم فى أبى تمام وازدراءهم بشعره . حتى قال دعبل : إن ثلث شعره محال ، وثلثه مسروق ، وثلثه صالح . وقال : ما جعل الله أبا تمام من الشعراء بل شعره بالخطب والكلام المنثور أشبه منه بالشعر . وقال ابن الأعرابى فى شعر أبى تمام : ان كان هذا شعرا فكلام العرب باطل ! وهذا محمد بن يزيد المبرّد ما علمناه دوّن له كبير شىء .

صاحب أبى تمام — إن دعبلا كان يَشْنأ(١) أبا تمام ويحسده على ما هو معروف ومشهور ، فلا يُقبل قول شاعر فى شاعر . وأما ابن الأعرابى فكان شديد التعصب عليه لغرابة مذهبه ، ولأنه كان يرد عليه من معانيه مالا يفهمه ولا يعلمه ، فكان إذا سئل عن شىء منها يأنف أن يقول لا أدرى فيعدل الى الطعن عليه . ولا مانع أن يكون جميع من تذكرونه على هذا القياس .

---

(١) يشنأ : يبغض .

صاحب البحترى — لا عيب على ابن الأعرابى فى طعنه على شاعر عدل فى شعره عن مذاهب العرب الى الاستعارات البعيدة المخرجة للكلام الى الخطأ والإحالة . والعيب فى ذلك يلحق أبا تمام إذ عدل عن المحجة الى طريقة يجهلها ابن الأعرابى وأمثاله من المصطلمين بالسليقة العربية .

صاحب أبى تمام — إن العلم فى شعر أبى تمام أظهر منه فى شعر البحترى ، والشاعر العالم أفضل من الشاعر غير العالم .

صاحب البحترى — كان الخليل بن أحمد عالما شاعرا ، وكان الأصمعى شاعرا عالما ، وكان الكسائى كذلك ، وكان خلف بن حيان الأحمر أشعر العلماء ، وما بلغ بهم العلم طبقة من كان فى زمانهم من الشعراء غير العلماء ، وقد كان أبو تمام يعمل على أن يدل فى شعره على علمه باللغة وكلام العرب .

أما البحترى فلم يقصد هذا ولا اعتمده ، ولا كان يعدّه فضيلة ولا يراه علما ، بل كان يرى أنه شاعر لا بدّ له أن يقرب شعره من فهم سامعه فلا يأتى بالغريب إلا أن يتفق له فى اللفظة بعد اللفظة فى موضعه من غير طلب له ولا حرص عليه . على أن هذا العلم الذى تؤثرون به أبا تمام لم ينفعه : فقد كان يلحن فى شعره لحنا يضيق العذر فيه ولا يجد المتأول له مخرجا منه إلا بالحيلة والتمحل الشديد .

صاحب أبى تمام — لسنا ننكر أن يكون صاحبنا قد وهم فى بعض شعره وعدل عن الوجه الأوضح فى كثير من معانيه . وغير غريب على فكر نتج من المحاسن ما نتج ، وولّد من البدائع ما ولّد ، أن يلحقه الكلال فى الأوقات ، والزلل فى الأحيان ؛ بل من الواجب لمن أحسن إحسانه أن يسامح فى سهوه ويتجاوز له عن خطأه . وما رأينا أحدا من شعراء الجاهلية سلم من الطعن ولا من أخذ الرواة عليه الغلط والعيب ، وكذلك ما أخذته الرواة على المحدثين المتأخرين من الغلط والخطأ واللحن أشهر من أن يحتاج إلى أن نبرهنه أو ندل عليه ، وما كان أحد من

أولئك ولا هؤلاء مجهول الحق ولا مجحود الفضل بل عفّى إحسانهم على إساءتهم، وتجويدهم على تقصيرهم .

صاحب البحترى — أما أخذ السهو والغلط على من أُخذ عليهم من المتقدّمين والمتأخرين ففى البيت الواحد والبيتين والثلاثة . أما أبو تمام فلا تكاد تخلو له قصيدة واحدة من عدّة أبيات يكون فيها مفسداً أو مُحيلا أو عادلا عن السنن أو مستعيرا آستعارة قبيحة أو مخطئا للمعنى بطلب الطباق والتجنيس ، أو مبهما بسوء العبارة والتعقيد حتى لا يفهم ولا يوجد له مخـــرج .

صاحب أبى تمام — إنكم تنكرون على أبى تمام من الفضل ما يعترف به البحترى نفسه فقد رثاه بعد موته رثاء اعترف فيه له بالسبق وفضله على شعراء عصره .

صاحب البحترى — لم لا يفعل البحترى ذلك وقد كان هو وأبو تمام صديقين متحابين وأخوين متصافيين يجمعهما الطالب والنسب والمكتسب ، فليس بمنكر ولا غريب أن يشهد أحدهما لصاحبه بالفضل ويصفه بأحسن ما فيه ، وينحله ما ليس فيه ، على أن الميت خاصة يُعطَى فى تأبينه من التقريظ والوصف وجميل الذكر أضعاف ما كان يستحقه .

صاحب أبى تمام — كيفما كان الأمر لا تستطيعون أن تدفعوا ما أجمع عليه الرواة والعلماء أن جيد أبى تمام لا يتعلق به جيد أمثاله . وإذا كان جيده بهذه المكانة وكان من الممكن إغفال رديئه وآطراحه كأنه لم يقله فلا يبقى ريب فى أنه أشعر شعراء عصره والبحترى واحد منهم .

صاحب البحترى — إنما صار جيد أبى تمام موصوفا ومذكورا لندرته ووقوعه فى تضاعيف الردىء فيكون له رونق وماء عند المقابلة بينه وبين ما يليه . وجيد البحترى كجيد أبى تمام إلا أنه يقع فى جيد مثله أو متوسط فلا يفاجئ النفس منه ما يفاجئها من جيد صاحبه .

---

٨ – أبو هلال العسكرى

١ — فى الأدب العربى رجلان باسم العسكرى يشتبهان كثيرا على الباحثين؛ لأن كلا منهما الحسن بن عبد الله العسكرى . وكان من أسباب هذا اللبس أن أخطأ صديقنا الأستاذ خير الدين الزركلى فى كتابه "الأعلام"[١] فأرخ وفاة أحدهما بوفاة الآخر اعتمادا على فهرس دار الكتب المصرية .

قال ياقوت : أما وفاته فلم يبلغنى منها شىء غير أنى وجدت فى آخر كتاب الأوائل من تصنيفه (وفرغنا من املاء هذا الكتاب لعشر خلت من شعبان سنة ٣٩٥) وقد ظن جورجى زيدان أن هذا تاريخ الوفاة .

والفرق بين ذينك الشخصين أن أحدهما يكنى أبا أحمد وهو الحسن بن عبد الله بن سعيد العسكرى؛ وثانيهما يكنى أبا هلال وهو الحسن بن عبد الله بن سهل العسكرى ؛ وقيل إن أبا هلال كان ابن أخت أبى أحمد[٢] .

والعسكرى نسبة الى عسكر مكرم؛ وهى مدينة من كور الأهواز ؛ ومكرم الذى تنسب اليه مكرم الباهلى وهو أول من اختطها؛ كما يقول ابن خلكان[٣] .

٢ — وكان أبو أحمد العسكرى من رجال اللغة والرواية . وكان الصاحب ابن عباد يود الاجتماع به ولا يجد اليه سبيلا ؛ فقال لمخدومه مؤيد الدولة بن بويه : ان عسكر مكرم قد اختلت أحوالها؛ وأحتاج الى كشفها بنفسى؛ فأذن له فى ذلك؛ فلما أتاها توقع أن يزوره أبو أحمد العسكرى فلم يزره . فكتب الصاحب اليه :

ولما أبيتم أن تزوروا وقلتمو ضعفنا فلم نقدر على الوخدان[٤]

---

(١) ص ٢٢٩ ج ١ (٢) ياقوت ص ١٢٧ ج ٣ (٣) وفيات الأعيان ص ٢٣٥ ج ١

(٤) الوخدان : سعة الخطوة كالوخد والوخيد .

أتيناكمو من بعد أرض نزوركم ... وكم منزل بكر لنا وعوان
نسائلكم هل من قرى لنزيلكم ... بملء جفون لا بملء جفان

وكتب مع هذه الأبيات شيئا من النثر فجاوبه أبو أحمد عن النثر بنثر مثله، وجاوبه عن الشعر بهذه الأبيات :

أروم نهوضا ثم يثنى عزيمتى ... تعوّذ أعضائى من الرجفان
فضمّنت بيت ابن الشريد كأنما ... تعمد تشبيهى به وعنانى
"أهمّ بأمر الحزم لو أستطيعه ... وقد حيل بين العير والنزوان"

فلما وقف الصاحب على الجواب عجب من اتفاق هذا البيت له وقال : «والله لو علمت أنه يقع له هذا البيت لما كتبت اليه على هذا الروىّ» .

وقد رأى أبو أحمد أن هـذا لا يقنع الصاحب وانه لا بدّ من الحمل على النفس، فركب بغلة وقصده فلم يتمكن من الوصول اليه لاستيلاء الحشم، فصعد تلعة ورفع صوته بقول أبى تمام :

مالى أرى القبة الفيحاء مقفلة ... دونى وقد طال ما استفتحت مقفلها
كأنها جنة الفردوس معرضة ... وليس لى عمل زاكٍ فأدخلها

فناداه الصاحب : ادخلها يا أبا أحمد فلك السابقة الأولى ! فتبادر اليه أصحابه فحملوه حتى جلس بين يديه فسأله عن مسألة فقال : الخبير صادفت ! فقال الصاحب : يا أبا أحمد ! تغرب فى كل شىء حتى فى المثل السائر ! فقال : تفاءلت عن السقوط بحضرة مولانا . وأصل المثل (على الخبير سقطت) وكانت وفاة أبى أحمد العسكرى سنة ٣٨٢ [1]

وانما كتبنا هذه الكلمة عن أبى أحمد لأنه كان أستاذ أبى هلال، ولنرشد القارئ الى أن أبا هلال حين يقول فى الصناعتين : «أخبرنا أبو أحمد» فانه لا يريد رجلا سواه . ومن

---

(١) وفيات ج ١ ص ٢٣٥ وقيل سنة ٣٨٧ ياقوت ج ٣ ص ١٣٤

كتاب الصناعتين نعرف شيئا كثيرا عن أبى أحمد العسكرى من الوجهة الأدبية، فقد نقل عنه أشياء كثيرة فى أغلب ضروب البيان ، واختار شذرات من نثره تمثله من أوساط الكتاب[1] .

٣ — أما أبو هلال فهو شخصية قوية جذابة لها أثر عظيم فى اللغة العربية، ولولم يكن له إلا كتاب الصناعتين لكفى دلالة على فضله وبراعته وتفوقه فيما عنى به من درس الشعر والنثر وتعقب مذاهب الشعراء والكتاب .

كان أبو هلال أبىّ النفس ، قوى القلب ، يترفع عن الدنايا وينأى بنفسه عما يرتطم فيه أدعياء الأدب من كسب العيش عن طريق التزلف الى الأمراء والرؤساء. وقد رأينا أن أستاذه وخاله أبا أحمد العسكرى كان قدوة له فى ذلك، إذ كان الصاحب يستدعيه الى حضرته فيعتذر بالضعف والشيخوخة فرارا من أن يحشر فى زمرة الأتباع وطلاب المغانم وأرباب الغايات .

كان أبو هلال يتجر فى الثياب احترازا من الطمع والدناءة والتبذل[2]، ولكنه كان قوى الشعور بأن تلك مهنة لا تليق به ولا بأدبه، فكان يزفر بمثل قوله :

جلوسىَ فى سوق أبيع وأشترى ... دليل على أن الأنام قرودُ
ولا خير فى قوم يذل كرامهم ... ويعظم فيهم نذلهم ويسود
ويهجوهمو عنى رثاثة كسوتى ... هجاء قبيحا ما عليه مزيد

وقوله :

إذا كان مالى مال من يلقط العجم[3] ... وحالىَ فيكم حال من حاك أو حجم
فأين انتفاعى بالأصالة والحجا ... وما ربحت كفى على العلم والحكم
ومن ذا الذى فى الناس يبصر حالتى ... فلا يلعن القرطاس والحبر والقلم[4]

٤ — وقد كان أبو هلال مع هذا التأبى متصل الحبل بالصاحب بن عباد ، وليس فى كتب التراجم ما يشرح لنا صلته بذلك الوزير الذى استعبد معاصريه من الكتاب

(١) أنظر ص ٣١٩ صناعتين . (٢) ص ١٣٥ ج ٣ ياقوت . (٣) العجم : النوى .
(٤) ص ١٣٦

والشعراء ، ولكني رأيت في كتاب الصناعتين ما يدل على أن صلته به كانت قوية ، ولذلك مظهران :

الأول اشادته بأدب الصاحب ، والثاني تحامله على المتنبي، وكان ابن عباد يكره المتنبي كرها شديدا لترفعه عن مدحه، فكان لذلك يدفع النقاد الى النيل منه والوقوع فيه ، والغض من شعره .

أما إشادته بأدب الصاحب فتظهر في استشهاده بكلامه ، كقوله في باب السجع والازدواج : " ومثله قول الصاحب : لكنه عمد الى الشوق فأجرى جياده غرا وقرحا، وأورى زناده قدحا فقدحا ... وقوله : هل من حق الفضل تهضمه شغفا ببلدتك، وتظلمه كلفا بأهل جلدتك ، ... وقوله : وقد كتبت الى فلان ما يوجز الطريق الى تخلية نفسه، وينجز وعد الثقة في فك حبسه [1] " .

ونرى أبا هلال في مكان آخر يقول : "روى لنا أن عمر بن أبي ربيعة أنشد ابن عباس رضي الله عنه :

* تشط غدا دار جيراننا *

فقال ابن عباس :

* وللدار بعد غد أبعد *

فقال عمر : والله ما قلت إلا كذلك ... وإذا كان القوم في قبيلة واحدة وفي أرض واحدة فان خواطرهم تقع متقاربة، كما أن أخلاقهم وشمائلهم تكون متضارعة ... وأنشدت الصاحب اسماعيل بن عباد :

* كانت سراة الناس تحت أظله *

فسبقني وقال :

* فغدت سراة الناس فوق سراته *

وكذلك كنت قلت، فعلى هذا جائز ما يدعى لهم [2] .

(١) ص ٢٠٢ (٢) ص ١٧٣

وفى هذه العبارة تظهر مجاملة أبى هلال للصاحب، فهو يتخذ من حضور ذهنه دليلا على أن حضور الذهن من النعم التى قد يهبها الله للناس !

ونراه فى باب الفصل والوصل يقول : "وهكذا يفعل الكتّاب الحذاق، والمترسلون المبرزون ... ألا ترى ما كتب الصاحب فى آخر رسالة له : فان حنثت فيما حلفت، فلا خطوتَ لتحصيل مجد، ولا نهضت لاقتناء حمد، ولا سعيت الى مقام فخر، ولا حرصت على علو ذكر ... وهذه اليمين التى لو سمعها عامر بن الظرب لقال هى الغموس[1]، لا القسم باللات والعزى ومناة الثالثة الأخرى ... فأتى بأيمان ظريفة ومعان غريبة .

وكتب أيضا فى آخر رسالة : وأنا متوقع لكتابك، توقع الظمآن للماء الزلال، والصوام لهلال شوّال .

وكتب آخر أخرى : وسئل أن أخلفه فى تجشيم مولاى الى هذا المجمع، ليقرب علينا تناول البدر بمشاهدته، ولمس الشمس بغرته .

فانظر كيف يقطع كلماته على كل معنى بديع، ولفظ شريف[2]" .

٥ — وأما تحامله على المتنبى فيظهر فى مواطن كثيرة من كتابه، فهو لا يذكره باسمه، ولا يتحدّث عن شعره إلا حين يريد التمثيل للشعر القبيح . ففى باب تمييز المعانى ينشد قول السيد الحميرى :

أيارب إنى لم أرد بالذى به ... مدحت عليا غير وجهك فارحم

ثم يقول : "فهذا كلام عاقل يضع الشىء فى موضعه، ويستعمله فى إبانه، ليس كمن قال وهو فى زماننا :

جفخت وهم لايجفخون بها بهم ... شيم على الحسب الأغر دلائل[3]

فأشمت عدوه بنفسه .

(١) اليمين الغموس بالغين المعجمة التى تغمس صاحبها فى النار .
(٢) ص ٣٥٤ و ٣٥٥
(٣) لم يذكر أبو هلال عجز البيت (ص ٤٥) . ص ٢٩٣

وفى باب الكناية والتعريض يقول : «ومن شنيع الكناية قول بعض المتأخرين :

إنى على شغفى بمـا فى خمرها   لأعف عمـا فى سراويلاتها

وسمعت بعض الشيوخ يقول : الفجور أحسن من عفاف يعبر عنه بهذا اللفظ» .

و« بعض الشيوخ » ذاك هو الصاحب بن عباد الذى قيد هذه الملاحظة فى آخر رسالته فى الكشف عن مساوى المتنبى (١) .

وفى باب الترصيع يقول : « ومن معيب هذا الباب أيضا قول بعض المتأخرين :

عجب الوشاة من اللحـاة وقولهم   دع ما نراك ضعفت عن إخفائه

هذا ردىء لتعمية معناه (٢) » .

وفى باب التوشيح يقول : « ومما عيب من هذا الضرب ... قول بعض المتأخرين :

فقلقلت بالهم الذى قلقل الحشا   قلاقـل عيس كلهن قلاقـل

وإنمـا أخذه من قول أبى تمـام فأفسده :

طلبتك من نسل الجديل وشدقم   كومٌ عقـائلُ من عقائل كوم (٣) »

٦ — وتحامل أبى هلال على المتنبى هو المطعن الظاهر فى أخلاقه ، فقد كان يستطيع أن ينقد شـعر المتنبى فيظهر الجيد منه والردىء ، ولكل شاعر جيد وردىء، ولكنه سلك خطة واحدة هى النص على السخيف من شعر المتنبى مع التعامى عن معانيـه الجيدة، وخياله الوثاب . فانضم بذلك إلى النقاد المغرضين الذين كلفوا بالبحث عن عيوب المتنبى ابتغاء مرضاة الوزير ابن عباد، وما أحط الأدب إذا سخر لأهل الملك والسلطان !

٧ — ويعدّ نثر أبى هلال من الطبقة العالية . وهو يسجع ، ولكنه لا يلتزم السجع ، والتعبير المشرق الفصيح من أظهر مميزاته، ولا يكاد القارئ يرى فى نثره عبارة غامضة أو فكرة

---

(١) مخطوطة فى دار الكتب المصرية .   (٢) ص ٣٠٠   (٣) ص ٣٠٤ والجديل وشدقم فحلان كانا للنعمان .

يحوطها اللبس ، وإنما يمضى فى الشرح والإيضاح بلغة سهلة مقبولة لا يعتريها ضعف ولا التواء . وانظر قوله فى جودة الرصف وحسن النظم :

«أجناس الكلام المنظوم ثلاثة : الرسائل والخطب والشعر . وجميعها تحتاج إلى حسن التأليف وجودة التركيب . وحسن التأليف يزيد المعنى وضوحا وشرحا . وسوء التأليف مع رداءة الرصف والتركيب شعبة من التعمية . فاذا كان المعنى سبيا[١] ، ورصف الكلام رديا ، لم يوجد له قبول ولم تظهر عليه طلاوة . وإذا كان المعنى وسطا ، ورصف الكلام جيدا ، كان أحسن موقعا وأطيب مستمعا ، فهو بمنزلة العقد إذا جعل كل خرزة منه إلى ما يليق بها كان رائعا فى المرأى وإن لم يكن مرتفعا جليلا ، وان اختل نظمه فضمت الحبة إلى ما لا يليق بها اقتحمته العين وإن كان فائقا ثمينا . وحسن الرصف أن توضع الالفاظ فى مواضعها وتمكن فى أماكنها ، ولا يستعمل فيها التقديم والتأخير والحذف والزيادة إلا حذفا لا يفسد الكلام ولا يعمى المعنى ... وسوء الرصف تقديم ما ينبغى تأخيره منها وصرفها عن وجوهها وتغير صيغتها ومخالفة الاستعمال فى نظمها[٢] .

ولا يستطيع وضع لغة التأليف فى مثل هذه السهولة وهذه الدقة إلا الكتاب المتفوقون .

وانظر أيضا قوله :

" البلاغة ليست مقصورة على أمة دون أمة ، ولا على ملك دون سوقة ، ولا على لسان دون لسان ، بل هى مقسومة على أكثر الألسنة . فهم فيها مشتركون ، وهى موجودة فى كلام اليونان وكلام العجم وكلام الهند وغيرهم ، ولكنها فى العرب أكثر لكثرة تصرفها فى النثر والنظم والخطب والكتب والسجع والمزدوج والرجز ، وهم أيضا متفاوتون فيها ، فقد يكون العبد بليغا ولا يكون سيده ، وتكون الأمة بليغة ولا تكون ربتها ، فالبلاغة قد تكون فى أعراب البادية دون ملوكها ، وقد يحسنها الصبى والمرأة "[٣] .

---

(١) السبى ، هنا ، معناه الجيد ، والسبية : الدرة . (٢) ص ١٢٠ الصناعتين .

(٣) ص ٢١٣ التفضيل بين بلاغتى العرب والعجم ضمن مجموعة التحفة البهية طبع الآستانة .

وجمال هذه الفقرة يرجع الى دقتها وسلامتها من الفضول، وفيها صورة لفهم رجال ذلك العهد لمواقع البلاغة ، فهى فى رأيهم ليست وقفا على أمة دون أمة، ولكنهم يشعرون أن العرب أقدر الناس على الكلام البليغ ، ولا يمكن أن يطالَب الرجل بغير ذلك، فمن الصعب أن يدرك الناقد أن هناك لغة أجمل من لغته، إذ كان تذوق الأساليب يرجع الى طول الألفة والصداقة الروحية لأسرار الكتّاب والشعراء . وفى رأيى أن البلاغة كالموسيقا لا تُفهم ولا تُذاق إلا بطول السماع، فهناك ألحان شرقية بديعة لا يدرك جمالها إلا الشرقيون ، ولو سمعها الغربيون لسخروا منها وعدوها من عبث الرعاع . وهناك ألحان غربية دقيقة لا يقدّرها إلا الغربيون، ولو سمعها الشرقيون لسدّوا آذانهم وقالوا هذه همهمة الأعجام !

٨ — وكان أبو هلال يجيد الشعر ، ويضع شعره فى طبقة أشعار المفلقين، فينشده فى الصناعتين مستشهدا به كما يستشهد بشعر أبى تمام والبحترى، أو النابغة وامرئ القيس، ومن إليهم من القدماء والمحدَثين، وهذا يدل على اعتداده بقيمته الفنية ، ونحن كذلك نراه من الشعراء المجيدين، فنستحسن قوله — وقد أنشده فى باب المطابقة — :

قل لمن أدنيه جهدى ... وهو يقصينىَ جهده
ولمن ترضاه مولا ... ك ولا يرضاك عبده
أمليحٌ بمليح الشـ ... ـكل أن يخلف وعده
أم جميلٌ بجميل الـ ... ـوجه أن ينقض عهده
ما الذى صدك عنى ... ليت ما صدك صده (١)

ونستجيد قوله فى تفضيل الشتاء على غيره من الأزمنة :

إن روح الشتاء خلّص روحى ... من حرور تشوى الوجوه وتكوى
برد الماء والهواء كأن قد ... سرق البرد من جوانح خِلْو

(١) ص ٢٤٧ من الصناعتين .

ريحه تلمس الصدور فتشفى وغماماته تصوب فتروى

لست أنسى منه دماثة دجن ثم من بعده نضارة صحو

وجنوبا يبشر الأرض بالقطـ ـر كما بشر العليل ببرو

وغيوما مطرزات الحواشى بوميض من البروق وخفو

كلما أرخت السماء عُراها جمع القطر بين سفل وعلو

وهى تعطيك حين هبت شمالا برد ماء فيها ورقة جو

وليال أطلن مدة درسى مثلما قد مددن فى عمر لهوى (١)

---

(١) ص ١٣٨ ج ٣ ياقوت .

٩ - كتاب الصناعتين

١ — أجمل أثر لأبى هلال العسكرى هو كتاب الصناعتين : الكتابة والشعر . وقد أراد أن يودعه جميع ما يحتاج اليه فى صنعة الكلام نثره ونظمه ، من غير إخلال ولا إسهاب ، وجعله عشرة أبواب مشتملة على ثلاثة وخمسين فصلا ، تكلم فيها عن موضوع البلاغة ، وتمييز الكلام جيده من رديئه ، والإيجاز والإطناب ، وحسن الأخذ وقبحه ، والتشبيه والسجع والازدواج ، والبديع وفنونه ، الخ .

والغاية من علم البلاغة فيما نص أبو هلال هى أن يعرف المتأدب إعجاز القرآن . وهى فكرة كثيرة الذيوع عند المتقدّمين : فعلوم اللغة العربية فى عرفهم إنما وضعت لفهم القرآن المجيد ، وهم يريدون أن يطمئن المؤمن الى إعجاز القرآن اطمئنانا مؤسسا على قواعد من البيان تحمل المنصف على الإقرار باعجاز ذلك الكتاب . وهناك غايات ثانوية منها فهم الأدب ومنها القدرة على إجادة الإنشاء[1] . وقد أشار أبو هلال الى أن الكتب المصنفة فى ذلك الفن كانت لعهده قليلة وأن أشهرها كتاب البيان والتبيين للجاحظ ، وهو فى رأيه كتاب جم المنافع لما اشتمل عليه من جيد الفصول والفقر والخطب والأخبار ، وما حواه من أسماء الخطباء والبلغاء ، إلا أن الإبانة عن حدود البلاغة وأقسام البيان والفصاحة مبثوثة فى تضاعيفه : فهى ضالة بين الأمثلة لا توجد إلا بالتأمل الطويل ، والتصفح الكثير[2] .

٢ — كتاب الصناعتين كتاب جيد ، تشعر وأنت تقرؤه أنه كتاب نادر المثال ، والمؤلف قوى الشعور بذلك ، فإنا نراه يقول بعد أن شرح نعوت البلاغة ووجوه البيان والفصاحة : «ولم يسبقنى الى تفسير هذه الأبواب وشرح وجوهها أحد ، وإنما اقتصر من كان قبلى على ذكر تلك النعوت عارية مما هى مفتقرة اليه من إيضاح غامضها ، وإنارة مظلمها ،

---

(١) ص ٣ من مقدّمة الصناعتين . (٢) ص ٥

فكان المنفعة بها للعالم دون المتعلم ، والسابق دون اللاحق ، وربما اعترض الشك فيها للعالم المبرز، فسقطت عنه معرفة كثير منها ،وأنت أيدك الله تعتمد ما ذكرته من ذلك، وتأتمّ بما شرحته منه، وتستدل به على ما ألفيته من جنسه اذا عثرت به، لتستغنى عن جميع ما صنف فى البلاغة، وسائر ما ذكر من أصناف البيان والفصاحة، إن شاء الله[(١)] ".

ونراه يقول بعد أن تكلم عن قبح الأخذ : «وقد أتيت فى هذا الباب على الكفاية، ولا أعلم أحدا ممن صنف فى سرق الشعر فمثل بين قول المبتدئ وقول التالى و بين فضل الأول على الآخر والآخر على الأول غيرى ، و إنما كان العلماء قبلى ينبهون على مواضع السرق فقط، فقس بما أوردته على ما تركته، فانى لو استقصيته لخرج الكتاب عن المراد[(٢)] .

٣ — وأول ما يلاحَظ فى كتاب الصناعتين أنه كتاب أدب قبل أن يكون كتاب نقد، فان المؤلف ينتهز جميع الفرص ليعرض للقارئ طرائف النثر الجيد والشعر البليغ ، وهو لا يكتفى بشاهد واحد، و إنما يندفع فينتقل من رسالة أنيقة الى حكمة بليغة، ومن بيت جيد الى قطعة مختارة . وقد بقى كتاب الصناعتين لذلك مرجعا لأجمل ما أنتجته القرائح العربية : ففيه نماذج من النثر البليغ قد يندر أن نجدها فى كتاب سواه، واليك هذه الدرة التى نقلها عن كثير ابن هراسة فى وصية ابنه :

" يا بنى! إن من الناس ناسا ينقصونك اذا زدتهم ، وتهون عليهم اذا أكرمتهم ، ليس لرضاهم موضع فتقصده، ولا لسخطهم موقع فتحذره، فاذا عرفت أولئك بأعيانهم ، فابد لهم وجه المودّة وآمنعهم موضع الخاصة ، ليكون ما أبديت لهم من وجه المودة حاجزا دون شرهم وما منعتهم من موضع الخاصة قاطعا بحرمتهم[(٣)] " .

٤ — ومن أظهر الدلائل على أنه كتاب أدب قبل أن يكون كتاب نقد أنه يكثر من الاستطراد، والاستطراد هو المنهج الغالب على كتب الأدب الخالص، وهو منهج جميل كان يريد به القدماء نشر المعارف الأدبية، أو ما يسمى اليوم بالثقافة العامة، ومن أمثلة

(١) ص ٣٩ (٢) ص ١٧٩ (٣) ص ٢٤٠

استطراده أنه أراد أن يضرب مثلا للعلم الكثير في القول اليسير فقال : وسئل بعض الأوائل : ما كان سبب موت أخيك؟ قال : كونه! ... وهنا مضى أبو هلال يخبرنا أن الناس تنازعوا هذا المعنى . فقد قيل لأعرابي : كيف حالك؟ فقال : ماحال من يفنى ببقائه ، ويسقم بسلامته ، ويؤتى من مأمنه . وأن النبي عليه السلام قال : كفى بالسلامة داء . وأن حميد بن ثور قال :

أرى بصرى قد رابنى بعد صحة وحسبك داء أن تصح وتسلما

وقال آخر :

كانت قناتى لا تلين لغامز فألانها الإصباح والإمساء

ودعوت ربى بالسلامة جاهدا ليصحنى فاذا السلامة داء

وقال ابن الرومى :

لعمرك ما الدنيا بدار إقامة اذا زال عن نفس البصير غطاؤها

وكيف بقاء العيش فيها وانما ينال بأسباب الفناء بقاؤها

وقريب من ذلك قول محمد بن على : مالك من عيشك إلا لذة تزدلف بك إلى حمامك ، وتقربك من يومك . فأية أكلة ليس معها غَصَص ، وشربة ليس معها شَرَق؟ فتأمل أمرك . فكأنك قد صرت الحبيب[(١)] المفقود أو الخيال المخترم . وقال أبو العتاهية :

* أسرع فى نقص امرئ تمامه *

ولم يكتف بهذا أبو هلال ، بل ذكر أن أول من نطق بهذا المعنى النمر بن تولب فى الجاهلية إذ قال :

يود الفتى طول السلامة والغنى وكيف يرى طول السلامة يفعل

يرد الفتى بعد اعتدال وصحة ينوء اذا رام القيام ويحمل

ثم ذكر من الأمثال : كل من أقام شخص ، وكل من زاد نقص . وأضاف الى ذلك شيئا من مختار شعره فى هذا المعنى[(٢)] .

(١) فى الأصل «الجيب» وهو تحريف ، والتصويب عن الكامل ج ١ ص ٨٧ طبعة الخشاب .

(٢) راجع ص ٢٧ — ٢٩

٥ — ومما يؤاخذ عليه أبو هلال أنه يهمل أسماء الكتاب والشعراء فى كثير من الشواهد، كأن يقول: كتب بعضهم الى أخ له[(١)] "أما بعد فان المرء ليسره درك ما لم يكن ليفوته، ويسوءه فوت مالم يكن ليدركه، فليكن سرورك فيما قدمت من خير، وأسفك على ما فاتك من بر" وكأن يقول: "كتب بعضهم يصف رجلا فقال: "أما بعد فانك قد كتبت تسأل عن فلان كأنك قد هممت بالقدوم عليه، أو حدثت نفسك بالوفود اليه، فلا تفعل، فان حسن الظن به لا يقع إلا بخذلان الله تعالى، وإن الطمع فيما عنده لايخطر على القلب إلا بسوء التوكل على الله تعالى، والرجاء لما فى يديه لا ينبغى إلا بعد اليأس من رحمة الله تعالى، لا يرى إلا أن الإقتار الذى نهى الله عنه هو التبذير الذى يعاقب عليه، والاقتصاد الذى أمر به هو الإسراف الذى يغضب منه ... وأن مواساة الرجل أخاه من الذنوب الموبقة، وأفضاله عليه إحدى الكبائر المرهقة، وأن الله تعالى لا يغفر أن يؤثر المرء على نفسه ويغفر ما دون ذلك لمن يشاء![(٢)]»

٦ — ويكثر أبو هلال من كلمة "قال الشاعر، وقال الآخر" من غير تعيين، وهذا عيب لم ينفرد به، وانما هو عيب غالب على أكثر المؤلفين فى اللغة العربية، وصلنا به الى الجهل المطبق بتمييز العصور بعضها من بعض، ولو نسبت كل كلمة الى قائلها لعرفنا كثيرا من تطورات المعنى والألفاظ والأساليب.

٧ — وسر البلاغة عند أبى هلال يرجع الى الألفاظ "وليس الشأن فى ايراد المعانى، لأن المعانى يعرفها العربى والعجمى، والقروى والبدوى، وانما هو فى جودة اللفظ وصفائه، وحسنه وبهائه[(٣)]" ودليله على أن مدار البلاغة على تحسين اللفظ أن الخطب الرائعة، والأشعار الرائقة، ما عملت لإفهام المعانى فقط، لأن الردىء من الألفاظ يقوم مقام الجيد منها فى الإفهام. ودليل آخر عنده أن الكلام اذا كان لفظه حلوا عذبا ومعناه وسطا دخل فى جملة الجيد، واذا كان المعنى صوابا واللفظ باردا فاترا — والفاتر شر من البارد — كان مستهجنا ملفوظا، ومذموما مردودا[(٤)].

(١) ص ٣١ (٢) ص ٢٨١ (٣) ص ٤٢ (٤) أنظر ص ٤٢ و ٤٣

وقد ضرب المثل فيما سبق بالعقد المنظوم : فانه يكون أروع إذا جُعلت كل خرزة منه إلى ما يليق بها وان لم يكن مرتفعا جليلا ، وان اختل نظمه فضمت الحبة منه إلى مالا يليق بها اقتحمته العين وان كان فائقا ثمينا .

وقد عرض فى باب التتميم إلى قول الخنساء :

وان صخرا لتأتمّ الهداة به كأنه عَلَم فى رأســه نار

وبين أنه مأخوذ من قول الأعشى :

وتُدفَن منه الصالحات وان يُسِئْ يكن ما أساء النار فى رأسى كبكبا

إلا أنها أخرجته فى معرض أحسن من معرض الأعشى . ثم قال : "وهـذا دليل على صحة ما قلناه من أن مدار البلاغة على تحسين اللفظ وتجميل الصورة(١)"

٨ — وحسن اللفظ عند أبى هلال موقوف على جمال المعنى، فلا خير فيما أُجيد لفظه إذا سخف معناه(٢) . والكلام عنده بسلاسته وسهولته وتخير لفظه وإصابة معناه وجودة مطالعه واستواء تقاسيمه، مع عدم ضروراته بحيث يكون المنظوم مثل المنثور فى حسن رصفه وتأليفه، وكمال صوغه وتركيبه(٣) . وهو يفضل الكلام السهل، ويراه أدل على قدرة الشاعر والكاتب(٤) .

وهذا حق: فان سهولة الكلام تحتاج الى صنعة ومهارة وحذق، وليس فى مقـدور كل كاتب أن يخاطب النـاس جميعا بمـا يفهمون فى لغـة سهلة تجـرى الى أذهانهـم وعقولهم وأذواقهم، ثم تظل مع ذلك فوق قُواهم لا يسـتطيعون أن يأتوا بشئ من مثـل ما فيهـا من الألفاظ المتخيرة، والمعانى الشريفة، والخيال الجميل .

وقد ضرب المثل للسهل الممتنع بقول العباس بن الأحنف :

إليـك أشـكو رب ما حلّ بى من صدّ هــذا التائه المعجبِ
إن قال لم يفعل وإن سِيل لم يبــذل وإن عـوتب لم يُعتبِ
صبٌّ بعصـيانى ولو قال لى لا تشــرب البارد لم أشربِ

(١) ص ٣١٠ (٢) ص ٤٤ (٣) ص ٣٩ (٤) ص ٤٤

وقول البحترى :

أيها العاتب الذى ليس يرضى نم هنيئا فلست أطعم غمضا
إن لى من هواك وجدا قد استه لك نومى ومضجعا قد أقضا
فجفونى فى عبرة ليس ترقا وفؤادى فى لوعة ما تقضّى
بأبى شادنٌ تعلق قلبى بجفون فواتر اللحظ مرضى
لست أنساه إذ بدا من قريب يتثنى تثنىَ الغصن غضا
واعتذارى إليه حين تجافى لىَ عن بعض ما أتيت وأغضى
واعتلاقى تفاح خديه تقبيـ لا ولثما طورا وشما وعضا

وقول الآخر :

صرفتَ القلب فانصرفا ولم ترع الذى سلفا
وبنتَ فلم أذب كمدا عليك ولم أمت أسفا
كلانا واجد فى النا س ممن ملّه خلفا

ولكن السهولة عند أبى هلال شىء آخر غير الليونة ، فالكلام الذى يسهل حتى يصل الى الرخاوة والانحلال ردىء مردود[(١)] .

والكلام الجزل يجىء بعد السهل فى الرتبة ، والجزل فى رأيه هو الذى تعرفه العامة اذا سمعته ولا تستعمله فى محاوراتها[(٢)] . والفرق بين السهل والجزل على هذا أن السهل تفهمه العامة وتطمع فيه مع عجزها عنه ، أما الجزل فهو ماتفهمه العامة وتشعر مع فهمها له أنها لاتقدر عليه .

والجزالة عند أبى هلال شىء آخر غير الوعورة ، فهى الجمع بين القوة والسهولة ، كقول سعيد بن حميد :

"وأنا من لايحاجك عن نفسه ، ولا يغالطك عن جرمه ، ولا يلتمس رضاك إلا من جهته ، ولا يستدعى برك إلا من طريقته ، ولا يستعطفك إلا بالإقرار بالذنب ، ولا يستميلك

---

(١) ص ٤٧ (٢) ص ٤٧

إلا بالاعتراف بالجرم . نبت بى عنك غِرة الحداثة، وردتنى اليك الحنكة، وباعدتنى منك الثقة بالأيام، وأدنتنى اليك الضرورة. فان رأيت أن تستقبل الصنيعة بقبول العذر، وتجدد النعمة باطراح الحقد، فان قديم الحرمة وحديث التوبة يمحقان ما بينهما من الإساءة، فان أيام القدرة وان طالت قصيرة، والمتعة بها وان كثرت قليلة، فعلت"[١] .

ومما هو أجزل من هذا قول الشعبى للحجاج وقد أراد قتله لخروجه عليه مع ابن الأشعث :
" أجدب بنا الجناب، وأحزن بنا المنزل، واستحلسنا الحذر[٢]، واكتحلنا السهر، وأصابتنا فتنة لم نكن فيها بررة أتقياء، ولا فجرة أقوياء" فعفا عنه[٣] .

ومع اهتمام أبى هلال باللفظ نراه ينص فى مكان آخر على أن المدار على إصابة المعنى، وأن المعانى تحل من الكلام محل الأبدان، والألفاظ تجرى معها مجرى الكسوة[٤] . وهنا يناقض رأيه الأول، فضلا عن ضعف تشبيه المعانى بالأبدان والألفاظ بالأثواب، وكان أولى لو شبه الألفاظ بالأجسام والمعانى بالأرواح . وفى رأيى أنه يجب أن يُفرَق بين المعنى والغرض، لأن ما جرى عليه أبو هلال وغيره من كتاب النقد والبيان يرتكز على وحدة البيت فى الشعر، وعلى وحدة الفاصلة فى النثر، مع أنه يجب التفكير فى وحدة الغرض الذى سيق من أجله الكلام، وبذلك ننقل النقد الى أفق أوسع، وتكون المعانى الجزئية وحدات تتكوّن منها الرسالة أو الخطبة أو القصيدة، كما ينظم العقد من حبات الجمان[٥] .

وهناك أبواب فى كتاب الصناعتين تشعرك بنفحات الأدب الجميل، وان لم تكن فى جملتها من مبتكرات أبى هلال . ففى باب الالتفات شواهد بديعة مسندة الى الأصمعى إذ قال : أتعرف التفاتات جرير؟ قلت : لا، قال :

أتنسى إذ تودعنا سليمى بعود بَشامة؟ سُقِىَ البَشامُ

---

(١) ص ٤٩ (٢) استحلسنا الحذر : اتخذناه حلسا . والحلس بالكسر كساء على ظهر البعير تحت البرذعة ويبسط فى البيت . (٣) ص ٤٩ (٤) ص ٥١ (٥) انظر الصفحات ٩٣ — ١٠٢ من كتاب (الموازنة بين الشعراء) .

ألا تراه مقبلا على شعره (لعل الصواب شأنه) ثم التفت الى البشام فدعا له ؟

وقـــوله :

طرب الحمام بذى الأراك فشاقنى ... لا زلت فى علل[1] وأيك ناضـــر[2]

وفى باب الرجوع يمثل بقول القائل : ليس معك من العقل شىء، بلى بمقدار ما يوجب الحجة عليك . وقول الشاعر :

أليس قليلا نظرة ان نظرتها ... اليك؟ وكلا ليس منك قليل[3]

وفى تجاهل العارف يتحفنا بهذه القطعة النفيسة من نثره هو — طيب الله ثراه — إذ يقول «سمعت بورود كتابك، فاستفزنى الفرح قبل رؤيته، وهز عطفى المرح أمام مشاهدته، فما أدرى أسمعت بورود كتاب، أم ظفرت برجوع شباب، ولم أدر ما رأيت : أخط مسطور، أم روض ممطور؟ وكلام منثور، أم وشى منشـــور؟ ولم أدر ما أبصرت فى أثنائه : أأبيات شعر، أم عقود در؟ ولم أدر ما حملته : أغيث حل بوادى ظمآن، أم غوث سيق الى لهفان[4]»

وقـــد يُلاحظ أن أبا هلال يغالى أحيانا فى نقده ، فيؤاخذ مثلا أوس بن حَجَر فى قوله :

ولست بخابئٍ أبدا طعاما ... حذار غد، لكل غد طعامُ

لـــا تكرر فيه من لفظ غد[5] .

ونحن لا نطالب أبا هلال بأن يصيب فى كل أحكامه، فذلك مطلب عسير، وانما يكفى أن نقول إن كتابه يضع القارئ فى حركة فكرية متصلة . وأنا شخصيا مدين له، فقد قرأته أكثر من عشرين مرة ، وأشعر كلما عدت اليه بأنه كتابٌ جديد يُقرأ لأول مرة، وذلك أقصى ما يطلب من الكتاب النفيس .

---

(١) العلل، بالتحريك، الشرب بعد الشرب تباعا . (٢) ص ٣١٠ (٣) ص ٣١٣

(٤) ص ٣١٤ (٥) ص ٤١

١٠ - أبو على الحاتمى

١ - أبو على محمد بن الحسن بن المظفر الحاتمى من الشخصيات القوية التى غابت أخبارها عن الناس فلم يعرفها منهم إلا القليل : وسبب ذلك يرجع إلى أن جمهورنا لا يعرف من أعيان الشعر والنثر والنقد إلا من وصلت اليه من آثارهم صُبابات كافية تميط اللثام عن بعض الجوانب من أدبهم المجهول . ونحن من بين الأمم لا نعرف من أدبنا القديم إلا قليلا ، لأن نهضتنا الحديثة تشبه يقظة المخمور الذى ينظر حواليه فتتراءى له صور وأشباح لا يميزها إلا بجهد شديد . من أجل ذلك قل عندنا من صحت عزيمته على النظر إلى أدب العرب بمثل ما ينظر الأوربيون إلى أدب اليونان والرومان . وسيرى القارئ فى هذا الفصل بوارق من ذهن الحاتمى تشعره بأن من المخجل أن يُنسى مثل هذا الرجل فى عصر يزعم ناشئوه أنهم طلاب مجد وأنهم حريصون على وصل ما انقطع من تراثهم الفكرى المجيد .

٢ - ألف أبو على الحاتمى عدّة كتب فى اللغة والأدب والنقد، منها حلية المحاضرة فى صناعة الشعر ، والموضحة فى مساوى المتنبي ، والهلباجة فى صناعة الشعر ، وسر الصناعة فى الشعر أيضا ، والحالى والعاطل فى الشعر كذلك ، وكتاب المجاز فى الشعر أيضا [(١)] . وهذا الإلحاح فى الكتابة عن الشعر يدل على أنه كان من المولعين بدرس الشعر ونقده وأنه كان من أئمة زمانه فى هذا الباب . وقد ضاعت كتبه النقدية مع الأسف الموجع ، ولم يبق منها إلا شواهد ضئيلة تذكى الحسرة فى أنفس من يقدرون قيمة النقد الحق فى دلالته على ثقابة الذهن ، ومتانة العقل ، وسلامة الذوق ، وإفصاحه عن تطور الحياة العقلية فى مختلف الأجيال .

ولنسارع فنقدم للقارئ كلمة حفظت فى " زهر الآداب " تمثل فهم الحاتمى لوحدة القصيد إذ يقول :

---

(١) ياقوت ج ٦ ص ٥٠٢

"مثل القصيدة مثل الإنسان فى اتصال بعض أعضائه ببعض ، فمتى انفصل واحد عن الآخر وباينه فى صحة التركيب غادر الجسم ذا عاهة تتخون محاسنه ، وتعفى معالمه . وقد وجدت حذاق المتقدمين ، وأرباب الصناعة من المحدثين ، يحترسون فى مثل هذه الحال احتراسا يجنبهم شوائب النقصان ، ويقف بهم على محجة الإحسان ، حتى يقع الاتصال ، ويؤمن الانفصال ، وتأتى القصيدة فى تناسب صدورها وأعجازها ، وانتظام نسيبها بمديحها ، كالرسالة البليغة والخطبة الموجزة لا ينفصل جزء منها عن جزء . وهذا مذهب اختص به المحدثون لتوقد خواطرهم ، ولطف أفكارهم ، واعتمادهم البديع وأفانينه فى أشعارهم ، وكأنه مذهب سهلوا حزنه ، ونهجوا دارسه . فأما الفحول الأوائل ومن تلاهم من المخضرمين والاسلاميين فمذهبهم التعالم عن كذا الى كذا ، وقصارى كل أحد منهم وصف ناقته بالعتق والنجابة والنجاء ، وأنه امتطاها فادرع عليها جلباب الليل . وربما اتفق لأحدهم معنى لطيف يتخلص به الى غرض لم يعتمده ، إلا أن طبعه السليم ، وصراطه فى الشعر المستقيم ، نضا بتاره ، وأوقد بالبقاع ناره . فمن أحسن تخلص شاعر الى معتمده قول النابغة الذبيانى :

فكفكفت منى عبرة فرددتها ... على النحر منها مستهل ودامعُ

على حين عاتبت المشيب على الصبا ... وقلت ألما أصح والشيب وازع

وقد حال هم دون ذلك شاغل ... مكان الشغاف تبتغيه الأصابع

وعيد أبى قابوس فى غير كنهه ... أتانى ودونى راكس فالضواجع

وهذا كلام متناسب تقتضى أوائله أواخره ، ولا يتميز منه شىء عن شىء . ولو توصل الى ذلك بعض الشعراء المحدثين الذين واصلوا تفتيش المعانى ، وفتحوا أبواب البديع ، واجتنوا ثمر الآداب ، وفتحوا زهر الكلام ، لكان معجزا عجبا ، فكيف بجاهل بدوى إنما يغترف من قليب قلبه ، ويستمد عفو هاجسه"[1] .

---

(١) ج ٣ ص ١٧ و ١٨

أليس فى هذه الفقرات دليل على أن الحاتمى كان بعيد الغور فى نقد الشعر؟ ألا تسمو نظراته هذه الى أدق ما وصل اليه النقاد فى العصر الحديث ؟ وأى تمثيل أصدق من تمثيل القصيدة بالإنسان فى اتصال بعض أعضائه ببعض ؟ يضاف الى ذلك جرأته فى رمى الجاهليين ومن تلاهم من المخضرمين والإسلاميين بقلة الفهم لأسرار الصناعة، وقصر ذلك على المحدثين الذين توقدت خواطرهم ولطفت أفكارهم واعتمدوا أفانين البديع . وإنما عددنا ذلك جرأة لأن الرأى الغالب فى تلك الأيام كان يميل الى تفضيل القدماء واختصاصهم بالإمامة فى الشعر ورمى من عداهم بالتخلف والإسفاف . على أن الحاتمى لم يفته أن يقرر أن البدوى الجاهل قد يغترف من قليب قلبه ويستمدّ عفو هاجسه فيأتى بالمعجز الذى يعز أحيانا على العارفين بأسرار البيان .

٣ — ولكن هذه البراعة التى يمثلها ما بقى للحاتمى من الشذرات القليلة لم ترتفع به كثيرا فى الأوساط الأدبية لعصره ولم يتحدث عنه من معاصريه إلا القليل . فما تعليل ذلك؟ إننا نفترض أن خمول الحاتمى يرجع الى انصراف الناس عنه لصلَفه وكبريائه وذهابه بنفسه الى أبعد غايات الزهو والخيلاء، وقد حدّثنا ياقوت أنه كان مبغّضا الى أهل العلم فهجاه ابن الحجاج وغيره بأهاج مرة (١) . ولم يكن لهذا البغض من سبب فيما نفترض غير إسراف الحاتمى فى العُجب ودعواه التفرد بالحذق واللوذعية والذكاء : والحذلقة من أخطر ما يُرزأ به العلماء والأدباء وهى تجلب الى أصحابها من ألوان العداوة والبغضاء ما يذهب بما لَهم من وطيد المجد وكريم الصيت . وقد يتفق لأهل العلم والأدب أن يُشغلوا بالإعلان عن مواهبهم وكفاياتهم فيكون ذلك أسرع الى هدمهم وتهوين أقدارهم فى أنفس الناس . وكيف لا يضيق الجمهور صدرا بحذلقة الحاتمى وهو يقول عن نفسه فى مقدّمة كتاب وضعه فى سر صناعة الشعر :

«وقد خدمت سيف الدولة — تجاوز الله عن فرطاته ! — وأنا ابن تسع عشرة سنة تميل بى سنة الصبا وتنقاد بى أريحية الشباب بهذا العلم، وكان كلفا به عَلِقا علاقة المغرم

(١) معجم الأدباء ج ٦ ص ٥٠١

بأهله، منقبا عن أسراره . وُوزِنتُ فى مجلسه تكرمة وإدناء وتسوية فى الرتبة — ولم تسفر خداى عن عذاريهما — بأبى على الفارسى وهو فارس العربية وحائز قصب السبق فيها منذ أربعين سنة؛ وبأبى عبد الله بن خالويه وكان له السهم الفائز فى علوم العربية تصرفا فى أنواعه، وتوسعا فى معرفة قواعده وأوضاعه، وبأبى الطيب اللغوى وكان كما قيل حتف الكلمة الشرود حفظا وتيقظا، ونازعت العلماء ومُدحت فى مصنفاتهم، وعُددت فى الأفراد الذين منهم أبو سعيد السيرافى وعلى بن عيسى الرمانى وأبو سعيد المعلى، واتخذت بعضا ممن كان يقع الايتاء عليه سخرة، وأنا إذ ذاك غرير الغرارة، تميد بى أسرار السرور، ويسرى علىّ رخاء الاقبال، وأختال فى ملاءة العز فى بُلَهْنِية من العيش وخفض من النعيم، وخطوب الدهر راقدة وأيامه مساعدة » .

فعلام يدل هذا الكلام ؟ ألا يدل على أن الحاتمى كان مفتونا بنفسه أشد الفتنة ، ومسرفا فى الزهو أشنع الاسراف ؟ وقد نفهم أن يدافع الرجل عن نفسه فيذكر من مناقبه ومحامده ما يشاء حين يرى الجمهور يجحد فضله، ويطمس محاسنه، ولكنا نعرف كذلك أن هذا لا يقع إلا من المشغوفين بالشهرة والصيت : لأنهم يتوهمون دائما أنهم مغبونون ، وأن الجمهور لفضلهم كنود .

٤ — وقد اصطدم كبرياء الحاتمى بكبرياء المتنبي ، وكانا متعاصرين يضمر كلاهما لصاحبه أقتم ألوان البغضاء . والشاعر والناقد حين يختصمان يصلان الى أبشع صور التحامل والعدوان، ولاسيما اذا اصطبغت الخصومة بصبغة سياسية ظاهرها التعصب للأدب وباطنها التحزب الشنيع . وهذا هو الذى وقع فى خصومة الحاتمى للمتنبي : فقد كان الحاتمى صديقا أو تبعا للوزير المهلبي، وكان المهلبي يبغض المتنبي بغضا شديدا لترفعه عن مدحه واتصاله بأنداده من الوزراء والرؤساء، وكذلك تربص الحاتمى وانتظر قدوم المتنبي الى بغداد ليناظره ويؤلب العامة عليه ويزهدهم فى شعره، فتم له من ذلك بعض ما أراد .

٥ — ترك الحاتمى رسالتين فى نقد المتنبي : أولاهما خلاصة ما جرى فى المجلس الذى تلاقيا فيه لأول مرة، وهى رسالة مغرضة بالطبع، لأنه تكلم وحده وقص ظروف المناظرة على هواه . ولكن ذلك لا يمنع من أن نصدق الحاتمى حين يذكر أنه ضايق المتنبي، لأننا نعرف أن كل ناقد أقوى من كل شاعر، لأن كل معول يؤثر فى كل بناء، والناقد يستطيع كل شىء متى آستباح لنفسه الظلم واختلاق العيوب . والمتنبي كان رجلا واسع الشهرة ، والمشاهير فى الغالب جبناء : يتوهم أكثرهم أن سوء القالة يذهب بأمجد الأعمال، ويأتى على أرفع الأقدار. وبعض هذا الوهم صواب .

ولنترك الحاتمى يتحدث قليلا لنرى خُيلاءه وقد قارع المتنبي :

« كان أبو الطيب المتنبي عند وروده مدينة السلام التحف رداء الكبر ، وأذال ذيول التيه ، وصعّر خده، ونأى بجانبه ، وكان لا يلقى أحدا إلا نافضا مذرويه،[1] رافلا فى التيه فى برديه، يخيّل اليه أن العلم مقصور عليه ، وأن الشعر بحر لم يغترف نمير مائه غيره، وروض لم يرع نُوّاره سواه ، فدل بذلك مُديدة ... حتى تخيل أنه القريع الذى لا يقارع، والنزيع الذى لا يجارى ولا ينازع ، وأنه رب الغَلَب ، ومالك القصب ، وثقلت وطأته على أهل الأدب بمدينة السلام فطأطأ كثير منهم رأسه، وخفض جناحه، وطامن على التسليم له جأشه ، تخيل أبو محمد المهلبي أن أحدا لا يقدر على مساجلته ومجاراته ولا يقوم لتتبعه بشىء من مطاعنه . وساء معز الدولة أن يرد عن حضرة عدوّه رجل فلا يكون فى مملكته أحد يماثله فى صناعته ويساويه فى منزلته، نهدت حينئذ متتبعا عواره، ومتعقبا آثاره، ومطفيا ناره، ومهتكا أسراره، ومقلما أظفاره، وناشرا لمطاويه، وممزقا جلباب مساويه ... الخ»[2] .

والرسالة تقع فى أربع عشرة صفحة كلها مقارعة ونضال، وهى تمثل طريقة الحاتمى فى الكتابة ومذهبه فى النقد ، وفيها فقرات قوية ، كقوله يجيب المتنبي وقد سأله عن خبره

(١) المذروان بالكسر أطراف الألية، بلا واحد، أو هو المذرى، ومن الرأس ناحيتاه، ومن القوس ما يقع عليها طرف الوتر من أعلى وأسفل . وجاء ينفض مذرويه باغيا متهددا (قاموس) .

(٢) ياقوت ج ٦ ص ٥٦٥ وقد وردت القصة أيضا فى وفيات الأعيان ج ٢ ص ٢٣٢ باختلاف قليل .

فى تثاقل وفتور : "أنا بخير، لولا ما جنيت على نفسى من قصدك ، وكلفت قدمى فى المسير الى مثالك"[١] ونقدات الحاتمى فى هذا المجلس لا تخرج عن أخذ المتنبي بالسرقات الشعرية وسوء التعبير فى طائفة من الأبيات اشتهر أمرها بين الناقدين . وقد ختمت هذه الرسالة بفقرات تفصح عن سرور المهلبي ومعز الدولة بهزيمة المتنبي؛ وهى كذلك دليل ما وصفنا به الحاتمى من الإسراف فى التيه والخيلاء .

٦ — أما الرسالة الثانيــة فهى أعظم أثر وصلنا عن الحاتمى، وهى رسالة ردّ فيها حكم المتنبي الى أصولها من كلام أرسطاليس، وقد وضع لهـا مقدّمة صغيرة أراد أن يشعرنا بهـا أنه فى نقــده عف نزيه إذ حدّثنا أنه يدافـع عن المتنبي "حين اتُّهـم بسرقة ما فى شعره من أغراض فلسفية ومعان منطقية"[٢] لأن ذلك إن كان وقع من المتنبي "عن فحص ونظر وبحث فقد أغرق فى درس العلوم ، وان يكن ذلك منه على سبيل الاتفاق فقــد زاد على الفلاســفة بالإيجاز والبلاغة "[٣] وهو فى الحالين على غاية من الفضل، ونهاية من النبل .

وقد رأيت بعد الاطلاع على هذه (الرسالة الحـاتمية) أن صاحبنا نال من المتنبي باللطف مالم ينله بالعنف، فقد أخذ يسرد كلمات أرسطاليس ثم يعقبها بشعر المتنبي، فاستطاع بذلك أن يفضح المتنبي فضيحة شــنعاء . وفى الحق أن هــذا العمل كان غاية فى اللؤم من جانب الحاتمى، لأن حكم المتنبي تبدو فطرية لأول وهلة، وذلك سر سحرها فى أنفس القراء، ولكنها تبدو متكلفة مصنوعة حين تُقرن الى ما نقلت عنــه من كلام أرسطاليس، وذلك سهم من النقد مسموم .

ومن أمثلة ذلك أن يقول المتنبي :

فان قليل الحب بالعقل صالح وإن كثير الحب بالجهل فاسدُ

وهو بيت مقبول ، ولكنه أقل قيمــة من الحكمة التى أُخذ عنهـا فى قول أرسطاليس "يسير من ضياء الحس خير من كثير من حفظ الحكمة"[٣] .

(١) ص ٥٠٦ (٢) الرسالة الحاتمية (ص ١٤٤ من مجموعة التحفة البهية) . (٣) ص ١٤٦

وقول المتنبي :

يراد من القلب نسيانكم وتأبى الطباع على الناقل

يبدو للقارئ متنافر المعنى بعض الشيء، ثم يُفضح تنافره حين يُنظر الى أصله فى قول أرسطاليس " روم نقل الطباع من ردئ الأطماع شديد الامتناع[1] " .

وقول المتنبي :

اذا ترحلت عن قوم وقد قدروا أن لا تفارقهم فالراحلون همُ

أقل عمقا من قول أرسطاليس :

" من لم يردك لنفسه فهو النائى عنك وإن كنت قريبا منه ، ومن يردك لنفسك فأنت قريب منه وإن تباعدت عنه[2] " .

وقول المتنبي :

لعل عتبك محمود عواقبهُ فربما صحت الأجسام بالعللِ

أقل وضوحا من قول أرسطاليس :

"وقد يفسد العضو لصلاح أعضاء كالكى والفصد اللذين يفسدان الأعضاء لصلاح غيرها[2]"

وقول المتنبي :

وما التيه طِبي فيهمو غير أننى بغيض الىّ الجاهلُ المتعاقلُ

أقل تعليلًا من قول أرسطاليس :

"إن الحكيم تريه الحكمة أن فوق علمه علما فهو يتواضع لتلك الزيادة ، والجاهل يظن أنه قد تناهى فيسقط بجهله فتمقته النفوس[3]" .

وقول المتنبي :

ومن ينفق الساعات فى جمع ماله مخافة فقر فالذى فعل الفقرُ

منقول من قول أرسطاليس :

" من أفنى مدته فى جمع المال خوف العدم فقد أسلم نفسه للعدم[4]" .

(١) ص ١٤٥ (٢) ص ١٤٧ (٣) ص ١٤٨ (٤) ص ١٥٠

والرسالة الحاتمية تقع فى خمس عشرة صفحة نقد بها مؤلفها نحو عشرين ومائة بيت من شعر المتنبي، وهى كما أشرنا طعنة نجلاء يهون بجانبها كل ما لقى المتنبي من خصومه المسرفين.

٧ — ولكن لا يتوهم القارئ أن الحاتمى أصاب فى كل ما رمى به المتنبي من سرقة معانى أرسطاليس، فقد يتفق الرجلان أحيانا فى المعنى وينفرد المتنبي بجمال الصورة.

نقول المتنبي :

إذا آعتاد الفتى خوض المنايا   فأهون ما يمــرّ به الوحولُ

أروع بلا جدال من قول أرسطاليس :

"من آستمرت عليه الحوادث لم يألم بحلولها" [(١)] .

وقول المتنبي :

إنعم ولَذّ فللأمور أواخرٌ   أبدا كما كانت لهن أوائلُ

معنى عادى : فلا قيمة للادعاء بأنه مسروق من قول أرسطاليس :

"كل ما له أوّل تدعو الضرورة إلى أن له آخرا" [(٢)] .

وقول المتنبي :

نحن بنو الموتى، فما بالنا   نعاف ما لا بدّ من شربه

أفعل فى النفس من قول أرسطاليس :

"كرهُ ما لا بد من كونه عجزٌ فى صحة العقل" [(٣)] .

٨ — ولنا أن نأخذ على الحاتمى وقوفه عند أرسطاليس، كأن المتنبي لم يعرف فيلسوفا سواه، وهذا يشعر بأن ارسطاليس كان معروفا جدا عند العرب لذلك العهد، حتى آستطاع الحاتمى أن يرجع اليه طائفة كبيرة من حكم المتنبي، ويُشعر كذلك بأن الشعراء كانوا يتصرفون فيما يقرءون تصرف الخبرة والعقل، فقد نظر المتنبي إلى قول أرسطاليس : "ليس جمال الإنسان بنافع له إذا كان ميت الحس من العلم".

---

(١) ص ١٤٥   (٢) ص ١٥٥   (٣) ص ١٥٨

ثم أداره فى نفسه وما زال به حتى أغرقه فى لجة من الشعر حين قال :

لا يعجبنّ مَضيما حسن بزّته ... وهل يروق دفينا جودة الكفن

٩ — ولنا أن نلاحظ أن الرسالة الثانية للحاتمى أوفر أدبا من رسالته الأولى عن المتنبى ، وقد يكون السبب فى ذلك أنها كتبت بعد موت الشاعر : بدليل قوله فى أول المراجعة "قال المتنبى رحمه الله !" .

ولنا أن نلاحظ كذلك أن الحاتمى كتب رسالته الثانيـة وقد اكتهل وغلب عليـه الوقار وفارقه النزق الذى ساد فى رسالته الأولى ، وحسبنا أن نقرأ قوله فى مقدّمة الرسالة الثانية :

"أما بعد فان أحق ما آحتكمت اليه نفوس أولى النظر ، وانقادت اليه آراء أهل الفكر ، وجلت الشبه عنه نواظر المتصفحين ، وأمضت به عزائمها قلوب المعتبرين : العـدل ، فانه سنخ[1] العقل ، وحليف النهى ، وصنو الفهم ، وعدو الهوى" .

١٠ — هذا وكان الحاتمى متين الشعر ، كما كان رصين النثر ، وهو الذى يقول :

لى حبيب لو قيـل لى ما تمنّى ... ما تعديتـــه ولو بالمنـــونِ

أشتهى أن أحلّ فى كل جسم ... فأراه بلحظ تلك العيـون

وهو القائل فى قصر الليل :

يارب ليل سرور خلتـــه قِصرا ... كعارض البرق فى أفق الدجى برقا

قـــد كاد يعـثر أولاه بآخره ... وكاد يسبق منـــه فجره الشفقـا

وهو القائل فى وصف الثريا :

وليـــل أقمنا فيـــه نُعمل كأسنـا ... إلى أن بدا للصبح فى الليل عسكرُ

ونجـــم الـثريا فى السماء كأنه ... عـــلى حلة زرقاء جيبٌ مـــدنّرُ

ومات رحمه الله سنة ٣٨٨ وكان أبوه كذلك شاعرا أثبت له صاحب اليتيمه عدة مقطوعات فليرجع اليها القارئ هناك[2] .

(١) السنخ ، بالكسر ، الأصل .

(٢) ج ٣ ص ١٢

١١ – أبو عبد الله المرزبانى

١ – المرزبانى هو أبو عبد الله محمد بن عمران بن موسى بن سعيد . وأصله من خراسان – كما ذكر ابن النديم[1] – وهو من بيت رياسة ومجد : فقد كان أبوه نائب صاحب خراسان بالباب ببغداد . وقد نسب الى بعض أجداده وكان اسمه المرزبان . وهو اسم لا يطلق عند العجم إلا على الرجل المقدّر : العظيم القدر . ومعناه بالعربية حافظ الحد[2] .

ولد فى بغداد سنة ٢٩٧ وتوفى سنة ٣٨٤ وقيل سنة ٣٧٨

وليس لدينا من أخبار المرزبانى إلا نُتف يسيرة ، وأظهر أخباره أنه كان رجلا غنيا كريما يُفضل على أساتذته وتلاميذه ، وكانت داره مأوى لأهل العلم والأدب يبيتون فيها على الرحب والسعة حين يشاءون . ولم يكن يؤخذ عليه من الهفوات إلا إدمان الشراب . وكان من عادته فى ذلك أن يضع بين يديه زجاجة حبر و زجاجة خمر فلا يزال يشرب ويكتب وهو مقسم الفكر والاحساس بين الواقع والخيال . وقد شعر رحمه الله بخطر ذلك على عقله وصحته وظهر أثر تململه حين سأله عضد الدولة مرة عن حاله فقد أجاب « كيف حال من هو بين قارورتين ؟ ! » يعنى قارورة الحبر وقارورة الخمر .

٢ – وكان فى حياته العقلية يؤثر مذهب المعتزلة : فقد صنف فى أخبارهم كتابا كبيرا . وكان المعتزلة فى تلك الأيام يقودون الحركة الفكرية والأدبية فى الأقطار الاسلامية . وقد أُخذ عليه سامحه الله شىء من التسامح فى رواية الحديث .

وكان فى جملة حاله معروفا بصدق اللهجة وسعة المعرفة وكثرة السماع . وكان معاصروه يرونه من محاسن الدنيا ، ومنهم من يقدّمه على الجاحظ . ولعل ذلك هو السبب فى تحامل بعض المغرضين عليه كأبى حيان التوحيدى الذى كان يقارنه بابن شاذان وابن الحلال ، ممن كان

(١) الفهرست ص ١٩٠ طبع القاهرة . (٢) ابن خلكان ص ٣٢٧ ج ٢

لهم جمع ورواية وليس لهم فيما جمعوه نقط ولا إعجام ولا إسراج ولا إلجام[1] . ولو بقيت كتب المرزبانى كلها أوجلها لاستطعنا أن نزن ما كان له من فكر وعقل وأسلوب ، ولكن أكثرها ضاع ولم يبق منها إلا النزر القليل . غير أننا نجد ابن النديم مفتونا به أشد الفتون . وابن النديم حجة فى تقدير المصنفين والكتّاب والأخباريين ، وقد حدّثنا أنه رأى كتاب المرزبانى عن الشعراء المشهورين والمكثرين من شعراء المحدثين . وقد أثبت فى هذا الكتاب مختار أشعارهم و بيّن أنسابهم وأزمانهم . وأن له كتابا آخر اسمه «المفيد» يشتمل الفصل الأول منه على أخبار المقلين من شعراء الجاهلية والاسلام وأخبار من غلبت عليه كنية منهم أو شُهر بكنية ابنه أو عُرف بأمه أو نسب إلى جدّه أو عزى إلى مواليه وما جانس هذه الأحوال . ويشتمل الفصل الثانى على ما رُوى من نعوت الشعراء وعيوبهم فى أجسامهم وصورهم كالسودان ، والعور ، والعميان والعمش والبرصان ، وسائر ما يؤثر فى الجسد من شعر الرأس إلى القدمين عضو عضوا . ويشتمل الفصل الثالث على مذاهب الشعراء فى دياناتهم كالشيعة وأهل الكلام والخوارج والمتهمين واليهود والنصارى ومن جرى مجراهم . ويشتمل الفصل الأخير على من ترك قول الشعر فى الجاهلية تكبرا وفى الاسلام تدينا ، ومن ترك المديح ترفعا ، والهجاء تكرما ، والغزل تعففا ، ومن أنفذ شعره فى معنى واحد كالسّيد بن محمد الحميرى والعباس ابن الأحنف ومن جرى مجراهما . وله كتاب آخر اسمه "الرياض" ذكر فيه أخبار المتيمين من الشعراء الجاهليين والمخضرمين والاسلاميين وفيه ذكر الحب وما يتشعب عنه وذكر ابتدائه وانتهائه وما ذكر أهل اللغة من أسمائه وأجناسه واشتقاق تلك الأسماء بشواهد من أشعار الجاهليين والمخضرمين والاسلاميين والمحدثين .

٣ — وليس المهم أن نلخص وصف ابن النديم لمؤلفات المرزبانى ففى مقدور القارئ أن يرجع اليه فى الفهرست[2] ، ولكن يهمنا أن نشير إلى أن مجموعة مؤلفات المرزبانى تدور حول نقطة واحدة هى تنظيم الثقافة الأدبية .

---

(١) ياقوت ج ٣ ص ١٠٣ (٢) أنظر ص ١٩٠ — ١٩٣

فقد عُنى الرجل بأن يجمع أخبار الشعراء ويرتبها ترتيبا قد يعجز عنه أدباء اليوم فيضع للجاهليين كتابا، وللمحدثين كتابا، وعُنى كذلك بأن يضع مؤلفات مستقلة فى أكثر الشؤون الأدبية ككتابه عما وصف به العرب الصيف والشتاء والحرّ والبرد والغيوم والبروق والرياح والأمطار والرواء والاستسقاء ومادخل فى جملتها من أوصاف الربيع والخريف. وكتبه عن الزهد والزهاد والحجابة والحجاب والعدل والسيرة وأخبار الأولاد والزوجات والأهل وما جاء فيهم من مدح وذم، وكتابه عن الأنوار والثمار الذى ساق فيه طرفا مما قيل فى الورد والنرجس وجميع الأنوار من الأشعار وما جاء فيها من الآثار والأخبار. وكتابه فى نسخ العهود إلى القضاة وكتابه عن أشعار النساء، الخ.

ومن المدهش أنه ألف كتابا فى أخبار الشعراء سماه "المعجم" تحدث فيه عن نحو خمسة آلاف شاعر وأثبت فيه أبياتا لكل من تحدّث عنهم من الشعراء. فمن الذى يعرف اليوم هذا المقدار من أسماء الشعراء مع أننا اجترنا من تاريخ الأدب نحو خمسة عشر قرنا وكان المرزبانى لم يجتز منه غير خمسة قرون ؟

ومما يوضح ما أشرنا إليه من عناية ذلك الرجل بتنظيم الثقافة الأدبية أنه كان ألف كتابا سماه " تلقيح العقول " فى أكثر من مائة باب جمع فيه كل ما يهم المتأدبين الاطلاع عليه مما قيل عن العلم والعقل والأدب وما جانس ذلك[1].

٤ — ولم يطبع من مؤلفات المرزبانى — فيما علمنا — غير كتاب الموشح الذى نشرته جمعية نشر الكتب العربية بالقاهرة سنة ١٣٤٣ هـ وهو كتاب جيد حدّثنا المؤلف فى مقدّمته أنه اهتم بذكر ما أُنكر على الشعراء فى أشعارهم من العيوب التى سبيل أهل عصره ومَن بعدهم أن يجتنبوها ويعدلوا عنها. وأنه أودع كتابه ما سهل وجوده وقرب متناوله من ذكر عيوب الشعراء التى نبه عليها أهل العلم وأوضحوا الغلط فيها من اللحن والسناد والإيطاء والإقواء والإكفاء والتضمين والكسر والإحالة والتناقض واختلاف اللفظ وهلهلة النسج وغير ذلك من سائر ما عِيب على الشعراء قديمهم ومحدثيهم فى أشعارهم خاصة، سوى عيوبهم فى أنفسهم وأجسامهم

(١) الفهرست ص ١٩١

وأخلاقهم وطبائعهم وأنسابهم ودياناتهم، وغير هذه الخصال من معايبهم التى استقصاها فى كتابه الملقب "بالمفيد"، وسوى سرقات معانى الشعر التى أتى بكثير منها فى كتابه الذى تحدّث فيه عن فضائل الشعر ووصف محاسنه ومنافعه ومضاره وأوزانه وعيوبه ونعت أجناسه وضروبه وعروضه وأعيانه ومختاره وتأديب قائليه ومنشديه والبيان عن منحوله ومسروقه، وما يتصل بذلك من مختلف الأغراض (١).

٥ — وقد راجعنا كتاب الموشح عدة مرات فلم نظفر للمؤلف بما يميزه عن غيره من مصنفى الروايات والأخبار . وإن كنا نعترف بأن الرجل أجاد الجمع والتصنيف وقدّم للقارئ معارض مختلفة مما أُخذ على الشعراء . وأكثر ما أثبته لا نجده اليوم فى غير كتابه . وإن كنا نعثر على أصوله مبعثرة هنا وهناك . فأنت حين تطلع على كتاب الموشح ترى مواده معروفة لك مستأنسة إليك بطول ما صادفتها فى شتى المطالعات . ولكنك لو أردت أن تظفر بمجموعة ما قال النقاد القدماء عن الأخطل أو جرير مثلا لما استطعت أن تجدها منظمة على نحو ما تجدها فى هذا الكتاب. على أن المؤلف كثيرا ما تظهر شخصيته فيُعرَف رأيه ومذهبه فى النقد كقوله مثلا فى نقد قول الطائى :

وقد سدّ مندوحة القاصعا ء منهم وأمسك بالنافقاء

"ولم نعب من هذه الألفاظ شيئا غير أنها من الغريب المصدود عنه . وليس يحسن من المحدثين استعمالها : لأنها لا تجاوَر بأمثالها ولا تتبع أشكالها. فكأنها تشكو الغربة فى كلامهم" (٢).

ومعنى هذا أن الغريب الوحشى قد يحسن استعماله اذا اطّرد فى كلام متأبد غريب . أما فى الكلام السلس فاستعماله غير مقبول . وهو يوافق بعض الموافقة ما يراه الجاحظ من أن الوحشى من الكلام يفهمه الوحشى من الناس كما يفهم السوقى رطانة السوقى . والتفاهم عند المرزبانى والجاحظ هو الأساس فى اختيار الألفاظ، إذ كان الناس لا يقبلون الألفاظ أو يرفضونها إلا موصولة بما يألفون .

(١) راجع مقدمة الموشح . (٢) الموشح ص ٣١١

٦ — ولا يخلو المرزبانى — على فضله — من تحامل : فقد رأيته يغض من قيمة مختارات أبى تمام إذ يقول :

"وللطائى سرقات كثيرة أحسن فى بعضها وأخطأ فى بعضها . ولما نظرت فى الكتاب الذى ألفه فى اختيار الأشعار وجدته قد طوى أكثر احسان الشعراء . وإنما سرق بعض ذلك فطوى ذكره وجعل بعضه عدّة يرجع اليها فى وقت حاجته ورجاء أن يترك أهل المذاكرة أصول أشعارهم على وجوهها ويقنعوا باختياره لهم فتغبى عليهم سرقاته . ولا يعذر الشاعر فى سرقاته حتى يزيد فى إضاءة المعنى ، أو يأتى بأجزل من الكلام الأول، أو يسنح له بذلك معنى يفضح به ما يتقدمه ولا يفتضح به، وينظر إلى ماقصده نظر مستغن عنه لافقير اليه"[1] .

ففى هذه الفقرة تجنّ شديد على أبى تمام وإزراء بإحسانه فى تأليف مختاراته . وما أحسب الخاطر الذى مر ببال المرزبانى مر ببال ناقد شريف القصد . فهو يرى أن أبا تمام قصر اختياره على الاشعار التى لم يسرق منها، وأنه طوى الأشعار التى يرجو أن يغير عليها . وأنه أراد أن يصرف المتأدبين بمختاراته عن الرجوع إلى الأصول التى سرق منها ما استُجيد من شعره ...

ولا أدرى كيف يصح هذا من المرزبانى إلا أن أرجّح أنه كان من خصوم أبى تمام . وقد كان أبو تمام ابتُلى فى حياته وبعد مماته بمعارضة شديدة كادت تقتلع مجده من جذوره وترمى به فى هاوية العفاء . وسبب ذلك أن أبا تمام ظفر بشهرة قوية أخملت مئات الشعراء . والشهرة القوية تخلق الخصوم خلقا وترمى صاحبها بعداوات مسمومة لم يجترح فى خلقها إثما ولاجناية، حتى صح للمرزبانى على نزاهته أن يتهمه بسوء النية فى تأليف المختارات مع أن فى الحماسة بابين لم نجد لهما مثيلا فى مجموعة أدبية وهما باب المراثى وباب النسيب .

٧ — ويغلب على المرزبانى أن يسوق المآخذ بدون أن يتعقبها بنقد أو تمحيص، وأحيانا يضيف اليها كلمة صغيرة تعين رأيه . من ذلك أنه نقل الكلمة الآتية بسندها عن بعض معاصريه :

(١) ص ٣١٢

"دخلت على أبى تمام الطائى وقد عمل شعرا لم أسمع أحسن منه وفى الأبيات بيت واحد ليس كسائرها . فعلم أنى قد وقفت على البيت فقلت : لو أسقطت هذا البيت ! فضحك وقال : أتراك أعلم بهذا منى؟ إنما مَثَل هذا مَثَل رجل له بنون جماعة كلهم أديب جميل متقدّم ومنهم واحد قبيح متخلف فهو يعرف أمره و يرى مكانه ولا يشتهى أن يموت . ولهذه العلة ما وقع مثل هذا فى أشعار الناس[1]" .

ونقل بعد ذلك هذه الكلمة . "قال مثقال الشاعر : قلت لأبى تمام تقول الشعر الجيد ثم تقول البيت الردىء! فقال : مَثَل هذا مَثَل رجل له عشرة بنين منهم واحد أعمى فلا يحب أن يموت" وفى التعقيب على هاتين الفقرتين يكتفى المرزبانى بأن يقول . "وهذه حجة ضعيفة جداً[1]" .

وأحيانا قليلة يبسط القول بعض الشىء فى النقد والمقابلة كما فعل فى نقد قول امرئ القيس :

ألا أيها الليل الطويل ألا انجلِ بصبح وما الإصباح منك بأمثلِ

فقد بين أن أفضل منه قول الطِّرِمّاح بن حكيم :

بلى إن للعينين فى الصبح راحة لطرحهما طرفيهما كل مطرح

ثم قال "فأحسن فى قوله وأجمل وأتى بحق لا يدفع ، وبين عن الفرق بين ليله ونهاره ، وإنما أجمع الشعراء على ذلك — أى حضور الهم بالليل وذهابه بالنهار — من تضاعف بلائهم بالليل وشدّة كلفهم لقلة المساعد وفقد المجيب وتقييد اللحظ عن أقصى مرامى النظر الذى لا بدّ أن يؤدّى الى القلب بتأمله سببا يخفف عنه أو يغلب عليه فينسى ما سواه[2]" .

وللمرزبانى ملاحظات صغيرة متفرقة قد لا يتنبه إليها القارىء المتصفح ويستجيدها المتأمل كقوله فى التعقيب على قول أبى العتاهية :

حلاوة عيشك ممزوجة فما تأكل الشهد إلا بسم

(١) ص ٣٢١ (٢) ص ٣٢ و ٣٣

فالمعنى صحيح لأن الشاعر جعله مثلا لبؤس الدنيا الممازج لنعيمها . ولكن يلاحظ المرزبانى أن العبارة غير مرضية : لأننا لم نر أحدا أكل شهدا بسم . وأجود من هذا البيت لفظا وأصح معنى قول ابن الرومى :

وهل خُلة معسولة الطعم تجتنى ... من البيض إلا حيث واشٍ يكيدها
مع الواصل الواشى وهل تجتنى يد ... جنى النحل إلا حيث نحلَ يذودها (١)

وتلك ملاحظه دقيقة وهى تذكر بما نقله عن أحد معاصريه وقد سأل أبا تمام : أخبرنى عن قولك :

كأن بنى نبهان يوم وفاته ... نجوم سماء خرّ من بينها البدرُ

أردت أن تصف حسن حالهم بعده أو سوء حالهم؟ فأجاب أبو تمام : لا والله إلا سوء حالهم لأن قمرهم قد ذهب . فقال المعترض : والله ما تكون الكواكب أحسن ما تكون إلا اذا لم يكن معها قمر (٢).

٨ — وقد اشار المرزبانى فى غير موضع الى وحدة البيت فقد تحدّث عما أخذ على امرئ القيس فى قوله يصف الليل :

فقلت له لما تمطى بصلبه ... وأردف أعجازا وناء بكلكل
ألا أيها الليل الطويل ألا انجل ... بصبح وما الإصباح منك بأمثل

فانه لم يشرح ما أراد بالبيت الأول إلا فى البيت الثانى . وهذا عيب عند العرب لأن خير الشعر ما لم يحتج البيت منه الى بيت آخر . وخير الأبيات ما استغنى بعض أجزائه ببعض الى وصول القافية كقول الشاعر :

الله أنجح ما طلبت به ... والبر خير حقيبة الرجل

فان قوله (الله أنجح ما طلبت به) كلام مستغن بنفسه وكذلك باقى البيت . على أن فى هذا البيت واو عطف عطفت جملة على جملة وما ليس فيه واو عطف أبلغ . وأجود من هذا قول النابغة الذبيانى فى اعتذاره الى النعمان :

(١) ص ٢٦١ (٢) ص ٣٠٧

ولست بمستبق أخا لا تلمه على شعث، أى الرجال المهذبُ

فكلامه فى أول البيت مستغن بنفسه وكذلك آخره حتى لو ابتدأ مبتدئ فقال (أى الرجال المهذب) لاعتذار أو غيره لأتى بكلام مستوفٍ لا يحتاج الى سواه[1] .

وقد أشار الجاحظ فى بعض كتبه الى هذه المسئلة . ومن الخير أن ننبه القارئ الى أن وحدة البيت لا تنافى وحدة القصيدة، وإن ظن ناس غير ذلك، فان الوحدة فى البيت يراد بها اتساق النغم والألحان بحيث يصح الوقف فى نهاية كل بيت، ولهذا قيمة فى الرنة الموسيقية التى يحرص عليها شعراء العرب أشدّ الحرص . أما وحدة القصيدة فيراد بها وحدة الغرض، وذلك أن يقدر الشاعر لنفسه صورة شعرية يرسمها رويدا رويدا فى نظام وانسجام الى أن يتمها بتمام القصيدة .

ولأجل أن نبين للقارئ أن وحدة البيت ضرورية جدا لحفظ الموسيقا الشعرية ننقل له قطعة لابى العتاهية خلت من وحدة البيت على نحو ما يخلو منها الشعر الفرنسى مثلا، ولنتأمل كيف يقول :

ياذا الذى فى الحب يلحى أما	والله لو كلفت منه كما
كلفت من حب رخيم لما	لمت على الحب فذرنى وما
ألقى فانى لست أدرى بما	بليت إلا أننى بينما
أنا بباب القصر فى بعض ما	أطوف فى قصرهم إذ رمى
قلبى غزال بسهام فما	أخطا بها قلبى، ولكنما
سهماه عينان له كلما	أراد قتلى بهما سلما

وهذا النوع من الشعر كان يسميه القدماء "المضمن" وهو عندهم من الشعر المعيب . لأن خير الشعر فى حكمهم ما قام بنفسه وكفى بعضه دون بعض . ولا نزال نحن نتبع أسلافنا فيما اطمأنوا إليه من خصائص القوافى والأوزان لأن للإلف أثرا شديدا فى تكوين الذوق . والشعر من الفنون التى تتحكم فى قدرها الأذواق .

(١) أنظر ص ٣٣ و ٢٦١

٩ — وفى الموشح عبارات نقـديه تكاد تبلغ الغـاية فى دقة الوصف وليتأمل القارئ ما نقله المؤلف فى تحديد الشعر الجيد عن محمد بن يزيد النحوى :

„ أحسن الشعر ما قارب فيه القائل اذا شبّه . وأحسن منه ما أصاب به الحقيقة ونبـه فيه بفطنته على ما يخفى على غيره وساقه برصف قوى واختصار قريب وعدل فيه عن الإفراط[1]“.

وهذا كلام دقيق وإن كنا لا نوافق ابن يزيد فى استهجانه قول بعضهم فى النحافة :

فلو أن ما أبقيت منى معلق بعـود ثمـام ما تأود عودها

وقال الآخر يصف سرعة ناقته :

* ويمنعها من أن تطير زمامها *

لأن فى الإزراء بمثـل هذه الأخيلة إزراء بمواهب الذكاء . فهناك أخيلة شعرية تجافى الحقائق فى كثير من الأحيان . ولكنها تظـل مع ذلك مقبولة يهش لهـا الذوق لدلالتها على ما وُهب الشاعر من بارع الذكاء .

وقد استنكر النقاد قول المتنبى :

كفى بجسمى نحولا أننى رجل لـولا مخاطبتى إياك لم ترنى

وعدوه غلوا غير مقبول مع أننا قد نستطيب قول بعض المولّدين :

عادنى ممرضى فـلم ير منّى فوق فرش السقام شيئا يراهُ

قال لى أين أنت قلت التمسنى فبكى حين لم تجـدنى يداهُ

ولسنا نستطيب هذا لصحة معناه وإنما نستطيبه للصورة التى قدّمها الشاعر فى وصف آثار النحول .

١٠ — والمرزبانى يهتم بتقييد ما يؤثر عن أخلاق الشعراء وتظهر فى ثنايا كلامه نزعة الحقد على المشاهير وان اجتهد فى إخفاء ذلك وحاول أن يصبغ كلامه بصبغة البحث الصرف فقد حدثنا أن أهاجى البحترى للخلفاء والملوك أشبه بهجاء سفلة الناس ورعاعهم وأنها تجمع بين

(١) ص ٢٤٣

سخافة اللفظ وهلهلة النسج والبعد من الصواب ، وأنه قد هجا نحوا من أربعين رئيسا ممن مدحهم منهم خليفتان: هما المنتصر والمستعين. وساق بعدهما الوزراء ورؤساء القوّاد ومن جرى مجراهم من أعاظم الكتّاب والكبراء بعد أن مدحهم وأخذ جوائزهم ، وأن حاله فى ذلك تنبئ عن سوء العهد وخبث الطوية ، وأنه نقل نحوا من عشرين قصيدة من مدائحه لجماعة توفر حظه منهم عليها الى مدح غيرهم وأمات أسماء من مدحهم أوّلا مع سعة ذرعه بقول الشعر واقتداره على التوسع فيه .

ويقول المرزبانى فى التعقيب على هذه المثالب :

"ولم أذكر حاله فى ذلك على طريق التحامل مع اعتقادى فضله وتقديمه ولكنى أحببت أن أبين أمره لمن لعله انسترعنه وحسبنا الله ونعم الوكيل[1] " .

وظاهر هذه الكلمة نزيه . ولكنها تمثل شهوة خفية طالما التبس أمرها على الناقدين. على أن المرزبانى مشكور على أى حال: فمن أمثال هذه الهفوات تنكشف جوانب من النفس الانسانية . والناقد مسئول عن كشف ما يتعذر كشفه على الجمهور من أخلاق الشعراء والكتّاب والباحثين .

ومن يدرى! فلعل الناس يعيشون فى رذائلهم أضعاف ما يعيشون فى فضائلهم ، ولست أريد بهذا كمية الحياة ، وإنما أريد روحها وسرها ، فان النفس لاتجانب الجادّة السوية إلا وهى ثائرة . والنفس فى لحظات الثورة تحيا حيوات طويلة قوية يصغر بجانبها ما تقضيه فى هدوء ووقار من طوال السنين . ولو أن المرزبانى قدّر أنه قد يجىء من رجال الأخلاق من يعلل هفوات البحترى بمثل ما عللنا لرأى أنه ليس مما يشفى النفس أن يبين أمر البحترى لمن لعله انسترعنه! وما الذى كان يقع لو ظلت صغائر البحترى مستورة وظفر بلسان صدق فى الآخرين؟

١١ — هذا وقد كنا نحب أن نطيل القول فى نقد ما اشتمل عليه كتاب الموشح ، وخاصة ما وقع بين شعراء العصر العباسى وبين رجال اللغة كالأصمعى وابن الأعرابى ، فان ذلك

(١) راجع ص ٣٣٦

يمثل النزاع بين القديم والحديث ، وتلك إحدى المشاكل التى تتجدد على اختلاف العصور .

وفيما رواه المرزبانى طائفة من الطُرف والفكاهات كانت تحسن روايتها فى هذا الكتاب ، ولكنا نرى الاكتفاء بما أسلفناه راجين أن يكون فيه كشف عن منهج المرزبانى فى إحياء الثقافة الأدبية ، ونشر ما تداوله الناقدون من هفوات الشعراء .

والموشح مطبوع يستطيع الرجوع اليه من يريد المزيد[1] .

(١) من أطرف ما نقل المرزبانى من أخبار النزاع بين اللغويين والشعراء ما جاء فى ص ٢٩٦
«حدث العباس بن ميمون قال : سمعت الأصمعى يقول : حضرنا مأدبة وأبو محرز خلف الأحمر وابن مناذر معنا فقال له ابن مناذر : يا أبا محرز ! إن يكن امرؤ القيس والنابغة وزهير ماتوا فهذه أشعارهم مخلدة ، فقس شعرى الى أشعارهم : قال : فأخذ صحفة مملوءة مرقا فرمى بها عليه ! »

الباب الخامس

كتاب الآراء والمذاهب

١ — أبو حيان التوحيدى

١ — لست اعدو الحق إذا قلت : إن الأدب العالى لا يقع إلا متأثرا بعاطفتين اثنتين : الحب أو الحقد . ولن نجد فى تاريخ الاداب العربية كاتبا مجيدا أو شاعرا بليغا أو خطيبا منطيقا خلت نفسه من رقة الحب ، أو قسوة البغض . فالسر فى عبقرية البحترى مثلا يرجع إلى قوة شغفه بمعالم الجمال ، كما أن السر فى عبقرية ابن الرومى يرجع إلى تطيره وحقده على من عرف ومن لم يعرف من سعداء الناس . وكذلك يعود السر فى تفوق عبد الحميد ابن يحيى إلى مروءته ونبل نفسه وعطفه على فقراء الكتّاب ، كما يعود الفضل فى فصاحة الحجاج إلى ما كان يضطرم فى صدره من نيران الحقد والضغينة والبغض والموجدة على الثائرين من أهل العراق .

وأبو حيان التوحيدى الذى نريد أن نفيض فى الحديث عنه رجل خلقته البأساء، وأنشأه الحقد على الموهوبين من أهل العلم والأدب والجاه . ولن تجده فى صميم أدبه إلا رعدا يزمجر كلما مر بباله خاطر الغنى والفقر ، والنعيم والبؤس ، والنباهة والخمول .

٢ — لا تسأل متى ولد ، ولا أين ولد ، فذلك رجل نشأ فى بيئة خاملة لم تكن تطمع فى مجد حتى تقيد تاريخ ميلاد ، ويكفى أن تعرف أنه فارسى الأصل ، وأنهم تردّدوا بين نسبته إلى واسط أو نيسابور أو شيراز ، وأنه عاش فى القرن الرابع وشهد صدر القرن الخامس ، فقد نص فى كتاب الصداقة والصديق على أنه كتبه فى سنة ٤٠٠ للهجرة . وجاء فى تاريخ شيراز أنه توفى سنة ٤١٤ [١] وفى هذا مايرجح أنه من أهل شيراز . وليس بغريب أن يكون هذا حظ التوحيدى فى تحديد مولده وتاريخ ميلاده فقد اختلف الناس فى مولد الشيخ محمد عبده فى مصر مع أنه

(١) حدّثنا بذلك المسيو ماسينيون وهو يناقش الرسالة فى السوربون . ولم نستطع مع الأسف أن نجد نسخة فى مصر من ذلك الكتاب .

نشأ فى عصر مغمور بأسباب الدقة والنظام . ولهذا الغموض فى حياة التوحيدى قيمة فى فهم جدّه العاثر، وحظه المنكود، فلو كان رجلا مجدودا فى دنياه لتلفت الناس اليه واهتموا بنسبه وعرفوا مسقط رأسه، لكنهم عرفوه شقيا محروما فانصرفوا عنه ، وأغفلوا أمره، حتى عجب ياقوت من أن لم ير أحداً عنى به من كتاب السير والتراجم على كثرة من اهتموا بهم من العلماء والكتاب والشعراء .

٣ — قلت إن نبوغ أبى حيان التوحيدى يرجع إلى حقده وثورته على الحياة والأحياء، ولأذكر أن تلك الثورة شبت فى مفتتح حياته ومستهل صباه، حين سمع بأخبار ابن العميد والصاحب ابن عباد وما كان يجرى بين أيديهما من أسباب الرزق والرغد والطمأنينة ، فقصد ابن العميد واستظل بفنائه حينا، ثم تحوّل الى ظلال ابن عباد، ولكنه لم يجد من فيض هذين الجدولين ماينقع غلته، ويطفىء صداه . هنالك انفجر بركان غضبه وتحوّل إلى أتون متسعر يرمى باللهب الماحق والشواظ المبيد . وقد حدّثنا فى كتابه (مثالب الوزيرين)[1] أنه لما قدم على الصاحب قدم اليه نجاح بن سلمة ناظر خزانة كتبه ثلاثين مجلدة من رسائله وقال: يقول لك مولانا انسخ هذا فانه قد طلب منه بخراسان . فارتاع التوحيدى وخاف على بصره من نسخ تلك الرسائل الطوال ، ثم تضجر وتبرم وأشار إلى أنه توجه من العراق إلى باب الصاحب ليتخلص من شؤم حرفة الوراقة التى لم تكن كاسدة ببغداد ، فوصل ذلك إلى الصاحب فحقد عليه ، وكان رجلا لايقبل أن يعصى له أمر، أو يراجع فى قول . ثم كانت أيام التوحيدى عنده أيام إهمال ونسيان، فرحل عنه وأصلاه نيران الفحش والسباب . ولننظر كيف يقول :

”ماذنبى، أكرمك الله، إذا سألت عنه مشايخ الوقت، وأعلام العصر، فوصفوه بما جمعت لك فى هذا المكان ! على أنى قد سترت كثيرا من مخازيه ، إما هربا من الاطالة، أو صيانة للقلم عن رسم الفواحش ، وبث الفضائح، وذكر ما يسمج مسموعه ، ويكره التحدث به ؛ سوى ما فاتنى من حديثه، فانى فارقته سنة ٣٧٠ “ .

(١) ياقوت ص ٣٩٦ ح ٥

"وماذنبي إن ذكرت عنه ماجرعنيه من مرارة الخيبة بعد الأمل، وحملني عليه من الاخفاق بعد الطمع، مع الخدمة الطويلة والوعد المتصل، والظن الحسن، حتى كأني خُصصت بخساسته وحدى، أو وجب أن أعامل بها دون غيرى"[1] .

٤ — وقد ختم التوحيدى كتابه مثالب الوزيرين بكلمة تدل على أنه كان يفهم أن الأدب باب من أبواب الرزق وسبيل من سبل الغنى، إذ صرح بأنه يحسد الذى يقول :

أعدّ خمسين حولا ما علىّ يدٌ   لأجنبىّ ولا فضلٌ لذى رحم
الحمد لله شكرا قد قنعت فلا   أشكو لئيما ولا أطرى أخا كرم

ثم صرح بأنه كان يتمنى أن يكون ذلك الرجل، ولكن العجز فى رأيه غالب لأنه مبذور فى الطينة، ثم استحسن قول الآخر :

ضيّق العذر فى الضراعة أنا   لو قنعنا بقسمنا لكفانا
ما لنا نعبد الأنام إذا كا   ن الى الله فقرنا وغنانا

ثم دعا بما دعا به بعض النساك :

" اللهم صن وجوهنا باليسار، ولا تبذلها بالإقتار، فنسترزق أهل رزقك، ونسأل شر خلقك، ونُبتَلى بحمد من أعطى، وذم من منع، وأنت من دونهم ولىّ الإعطاء، وبيدك خزائن الأرض والسماء"[2] .

وهذا نص فى أنه كان مشغولا برزقه، وأنه كان لذلك معنيا بحمد الكرماء، وذم البخلاء، دفعا للفقر وطلبا للمال، فدرجت نفسه على الحرص والطمع، وألف الحقد على الأغنياء الباخلين، وكان مثله مثل المتنبى الذى تفجر شعره بالحقد على العالم والثورة على الوجود : لأنه لم يجد من يناصره فى طلب الغنى والجاه والملك، ومن هنا قلّت فى شعر المتنبى عواطف الحب والإخاء والوفاء : لأن مطامعه المادية حولته إلى رجل لا يدرك غير معانى الأثرة والشح والضغن والجحود .

(١) ياقوت ص ٣٩٦ ج ٥ (٢) ياقوت ص ٤٠٤ و ٤٠٥ ج ٥

٥ — وما زال التوحيدى يتقدّم إلى نفسه وقود الغيظ والحفيظة حتى غلبه طبعة الجامح فى أخريات عمره ، فقدم كتبه طعمة للنـار ، حتى لا يكون بينه و بين العالم وشيجة من علم أو أدب أو دين ، ثم كتب فى ذلك رسالة مطولة تفيض بالألم اللاذع والحزن الوجيع . وقد حدّثنا فى تلك الرسالة بما يؤيد ماذهبنا اليه من أنه كان يتخذ العلم وسيلة إلى الغنى والجاه إذ قال فى وصف الغرض من كتبه :

«على أنى جمعت أكثرها للناس ، ولطلب المثالة منهم ، ولعقد الرياسة بينهم ، ولمد الجاه عندهم ، فحرمت ذلك كله» .

وفى تلك الرسالة فقرات مُرّة موجعة تثير العطف على ذلك الرجل الذى شقى كل الشقاء بما رزق من رقة الحس ، ودقة الفهـم ، وقوّة الادراك . ولقـد صوّر بلواه بالناس أصدق تصوير حين قال :

« فإن قلت ولم تسمهم بسوء الظن ، وتقرع جماعتهم بهذا العيب ؟

"فجوابى لك : أن عِيانى منهم فى الحياة هو الذى حقق ظنى بهم بعد الممات . وكيف أتركها لأناس جاورتهم عشرين سنة فما صح لى من أحدهم وداد ، ولاظهر لى من إنسان منهم حِفاظ ، ولقـد اضطررت بينهم بعـد العشرة والمعرفة فى أوقات كثيرة إلى أكل الخضر فى الصحراء ، وإلى التكفف الفاضح عنـد الخاصة والعامة . وإلى بيع الدين والمروءة ، وإلى تعاطى الرياء بالسمعة والنفاق ، وإلى ما لا يحسن بالحر أن يرسمه بالقـلم ، ويطرح فى قلب صاحبه الألم ، وأحوال الزمان بادية لعينك ، بارزة بين مسائك وصباحك ، وليس ما قلت بخاف عليك مع معرفتك وفطنتك ، وشدّة تتبعك وتفرغك ، وما كان يجب أن ترتاب فى صواب مافعلته وأتيته بمـا قدّمته ووصفته ، وبما أمسكت عنه وطويتـه ، إما هربا من التطويل ، وإما خوفا من القال والقيل " .

٦ — وهذه الكلمة تعطينا صورة واضحـة من النزاع الدائم الموصول الذى كانت تثـور محرجاته بلا انقطاع بين التوحيدى وبين معاصريه ، فذلك رجل يعرف ماهو الضمير ، وماهى

متانة الخلق، ومامعنى الكرامة، ومامدلول الإباء، ولكن أحداث دهره قهرته على المشى فوق تلك الأشـواك : أشواك الملق والمداهنـة والرياء ، فمشى مجروح القلب ، مقتول النفس ، مطعون الوجدان . وكان اقترافه لخزيات الضعة والهوان والصـغار ممـا يضرم فى نفسه ثورة الحقـد على الرؤساء المسعودين الذيـن لا ينال فيض ما لديهم بغير أسـباب الخسة والدناءة والإسـفاف .

٧ — وفى تلك المعركة الداميـة التى خرج منها التوحيدى وهو بيـن الكتاب أهجى وأفحش من ابن الرومى بين الشعراء ، لا نجد بدا من الحكم عليه بأنه كان رجلا ظاهر الطمع والجشع والحرص، قبِل فى جمع المـال عن طريق الأدب أن يبيع دينه ومروءته وأن يقترف مالايحسن بالحر أن يرسمه بالقلم : فى حين أنه كان يستطيع أن يدوس بقدميه مايملك أصحاب التيجان ويُقبـل بنفس حازمة غنية على استدرار إحدى الصناعات ليعيش ، ثم يلقى العالم إن شاء بمثل قول أبى هلال :

جلوسىَ فى سوق أبيع وأشترى دليـــل على أن الأنام قـــرود
ولا خير فى قـوم يذل كرامهـم ويعظم فيهـم نذلهم ويســـود

ولكنه أخذ يلوم الناس ويؤاخذهم بمالا يؤاخذ به نفسه ولا يتورع هو عن الوقوع فيه . ودليل ذلك ما حكاه فى كتاب مثالب الوزيرين إذ قال :

”جرى بينى وبين ابن مِسكويه شىء : قال لى مرة أما ترى الى خطأ صاحبنا — يعنى ابن العميد — فى إعطائه فلانا ألف دينار ضربة واحدة؟ لقد أضاع هذا المـال الخطير فيمن لا يستحق . فقلت بعـد ما أطال الحديث وتقطع بالأسف : أيها الشيخ ! إنى أسألك عن شىء واحد فاصدق فانه لا مَدَبَّ للكذب بينى وبينك ، لو غلط صاحبك فيك بهـذا العطاء وبأضعافه وأضعاف أضعافه، أكنت تخيلـه فى نفسك مخطئا ومبذرا ومفسدا أو جاهلا بحق المـال ؟ أوكنت تقول : ما أحسن ما فعل ! وليته أربى عليه ! فان كان الذى تسمع على حقيقته فاعلم أن الذى يرد ورد مقالك إنما هو الحسد، أو شىء آخر من جنسه، وأنت تدّعى

الحكمة وتتكلف فى الأخلاق، وتزيف الزائف وتختار منها المختار، فأفطن لأمرك، وأطلع على سرك وشرك[(١)]».

ولو أنه حاسب نفسه بمثل ما حاسب به ابن مسكويه لرأى ثورته على أهل زمانه تأخذ وقودها من قلب حاسد حقود، وهو مع هذا يدعى الحكمة ويتكلف الأخلاق.

ويظهر مع الأسف أن الانسان يبالغ فى درس الغرائز ونقد الطباع، فاذا وصل الى نفسه خلا درسه من القوة وخلا نقده من العمق، وأسبغ على خصاله وشمائله أثواب الرضا والاعجاب.



٨ — هذا الذى قدمناه عن التوحيدى جعل لنا منه شخصيتين مختلفتين بعض الاختلاف: الشخصية الأولى شخصية الأديب الذى يحدثنا عن نفسه وعن أشجانه وعن عتبه على الناس وتبرمه بالحياة. والشخصية الثانية شخصية الباحث الذى ينقل الصور المختلفة لما يفهم معاصروه من ضروب العلوم والآداب والفنون. وهذه الشخصية الثانية شخصية الباحث تقدمه الينا رجلا فهم النزعات الفلسفية والأخلاقية والأدبية، ثم صورها لنا تصويرا يقرب من الإتقان فى كتاب المقابسات. وكتاب المقابسات هذا كتاب عظيم، طبع أولا بالهند، ثم طبع أخيرا فى مصر طبعا متقنا معنيا به من بعض الوجوه. وكتاب المقابسات لا ينفع المبتدئين إلا قليلا، ولكنه نافع كل النفع لمن وقفوا على معضلات الفلسفة الاسلامية. ولعل أهم ما فيه أنه يعطينا صورة من الكتابة الفلسفية لعهده، وإن كنا نرى فى ذلك بعض البعد عن الصواب، لأنه يحاكى الجاحظ فى أسلوبه الفلسفى والأدبى فيترك السجع ويقبل على الازدواج، غير أنه على كل حال لون من الكتابة الفلسفية التى تقبلها الناس فى ذلك الحين. وأدق ما يلاحظ على كتاب المقابسات أنه يطلعنا على ناحية خطيرة من عقلية الباحثين فى ذلك العهد، فهم يعرفون كيف تثار المشاكل وكيف تبذر بذور الخلاف، فاذا حاولوا

(١) ياقوت ص ٤٠٦ ج ٥

الاجابة والتعليل ظهروا ضعفاء عاجزين. وهذه ظاهرة تجدها حيث تتصفح كتاب المقابسات ولعل السبب فى ذلك أنهم كانوا يعانون أزمة عقلية خطرة لم يتح لهم التغلب عليها ، وكان من أثرها أن كثر الشك والارتياب والالحاد بين طبقات المفكرين .

ومن طريف ما أثاره أبو حيان التوحيدى فى إحدى المقابسات ما أنطق به أبا إسحاق النصيبى إذ قال :

"ما أعجب أمر أهل الجنة ! قيل وكيف ؟ قال لأنهم يبقون أبدا هناك ، لاعمل لهم إلا الأكل والشرب والنكاح؟ أما تضيق صدورهم . أما يكلّون . أما يربأون بأنفسهم عن هذه الحال الخسيسة التى هى مشاكلة لحال البهيمية ؟ أما يأنفون ؟ أما يضجرون[1] ؟

وفى الجواب على هذا السؤال الخطر أطال أبو حيان إطالة مملة لا تقنع ولا تفيد ، لأنه افترض أن نعيم الجنة بالعقل لا بالحس ، وأن العقل لا يعتريه الملل ، ولا تصيبه الكافة ، ولا يمسه اللغوب . وعلى ذلك بقى الاعتراض حيث وقع : لأن القرآن أعطى اللذات الحسية شأنا غير قليل ، وجعلها من الغايات التى يسمو اليها المؤمنون .

٩ — أما الشخصية الأولى شخصية الأديب فهى الجانب الأقوى من نفسية التوحيدى . وتتمثل هذه الشخصية الرائعة فى رسائله الوجدانية ، وفى استطراداته الممتعة التى جرى بها قلمه فى كتاب الصداقة والصديق . والجانب الوجدانى من التوحيدى تكوّن ونشأ فى هجير الفاقة والبؤس ومعاناة الأيام . ولا تراه يجيد إلا حيث يتحدّث عن نكد دنياه وسواد لياليه . وانك لترثى له وتبكى لشكواه حين تراه يطالعك بأمثال الكلمة الآتية :

"وسمعت الخوارزمى أبا بكر محمد بن العباس الشاعر البليغ يقول : (اللهم نفِّق سوق الوفاء فقد كسدت ، وأصلح قلوب الناس فقد فسدت ، ولا تمتنى حتى يبور الجهل ، كما بار العقل ، ويموت النقص كما مات العلم" وأقول : "اللهم اسمع واستجب ، فقد برح الخفاء ، وغلب الجفاء ، وطال الانتظار ، ووقع اليأس ، ومرض الأمل ، وأشفى الرجاء[2]" والخوارزمى

---

(١) راجع ص ١٩٤ من المقابسات . (٢) ص ١ من الصداقة والصديق .

هـذا الذى يعجب به التوحيدى ويتحدث عنه ويتأسى به رجل عانى فى دهره مرارة الجور والحيف، ورأى الناس يقدمون عليه بديع الزمان وهو لدن العود غض الاهاب، فلا عجب أن يردد "التوحيدى" شكاته وأنينه وهو الذى رأى كيف تقدم عليه الأقدار أمثال ابن عباد .

١٠ — ولنقل هنا كلمة عن كتاب الصداقة والصديق فاليه يرجع الفضل فى تصوير الجانب الوجدانى من التوحيدى رحمه الله . ابتدأ هـذا الكتاب بزفرة وانتهى بزفرة . ابتدأ بالكلمة التى نقلناها آنفا عن الخوارزمى، وانتهى بقوله فى الاعتذار عن طول تلك الرسالة "فأقبل حاطك الله هذا القدر الذى قد بدأته وأعدته ، ونشرته وطويتـه، على أنك لو علمت فى أى وقت ارتفعت هذه الرسالة، وعلى أى حال تمت، لتعجبت، وما كان يقل فى عينك منها يكثر فى نفسك ، وما يصغر منهـا بنقدك يكبر بعقلك . والله أسأل خاتمة مقرونة بغنيمة، وعاقبـة مفضية الى كرامة، فقد بلغت شمسى رأس الحائط، والله أستعين على كل ماهم النفس، ووزع الفكر، وأدنى من الوسواس " .

وكتاب الصداقة والصديق كتب فى أدق وقت من حياة التوحيدى، كتب حين بلغت شمسـه رأس الحائط كما قال ، كتب بعد كتابه مثالب الوزيرين بمدة قد تكون طويلة، فهو أنضج ثمرة من أدب التوحيـدى . وليس يهمنا فى هـذا المقام ما اشتمل عليـه من الفقرات الجميلة، والمقطوعات البديعة، والأخبار الطريفة، إنما يهمنا بنوع خاص ماهر فيه من الصور الفنية الرائعة التى جرى بها قلمه البليغ ، فقد ترك لنا ذلك الرجل الفحل طائفة من النماذج العالية فى صور الخواطر والأفكار والتأملات، ومشى بنا فى أودية من الخيال ضاحكة الأزهار خفاقة النسمات .

١١ — والصور التى يقدمها التوحيدى تمرّ غالبا على أنها أحاديث . فهو يصور خواطر الناس وآراءهم فى فهم الحياة تصويرا عجيبا يفصح عن قدرته أتم إفصاح ، وهو يظهر فى ثنايا كلامه غنىّ اللغة قوىّ الخيال يحيط بالمعنى من جميع أقطاره إحاطة بالغة لا يند منهـا شىء . ولننظر كيف يقول فى تشعب أنفاس الناس فى الحب والبغض :

" وما من أحد إلا وله فى هذا الفن حصة : لأنه لا يخلو أحد من جار أو معامل أو حميم أو صاحب أو رفيق أو سكن أو حبيب أو صديق أو أليف أو قريب أو ولىّ أو خليط . كما لا يخلو أيضا من عدو أو كاشح أو مداج أو مكاشف أو حاسد، أو شامت، أو منافق أو مؤذ أو منابذ أو معاند أو مزل أو مضل أو مغل[1] " .

ومثل هذه الفقرة يدل على بصر ذلك الرجل باللغة وقدرته على تصوير ما يشاء من المعانى النفسية والوجدانية التى تعجز أكثر الكتّاب . وقد أعطانا التوحيدى عدّة صور فى الصداقة والحب . من ذلك قوله فى التفرقة بين الصداقة والعلاقة : "الصداقة أذهب فى مسالك العقل، وأدخل فى باب المروءة ، وأبعد من نوازى الشهوة ، وأنزه عن آثار الطبيعة، وأشبه بذوى الشيب والكهولة، وأرمى الى حدود الرشاد ، وآخذ بأهداب السداد ، وأبعد من عوارض الغرارة والحداثة . فأما العلاقة فهى من قبيل العشق والمحبة والكلف والشغف والتيم والتهيم والهوى والصبابة والتدانف والتشاجى . وهذه كلها أمراض أو كالأمراض، بشركة النفس الضعيفة والطبيعة القوية ، وليس للعقل فيها ظل ولا شخص . ولهذا تسرع هذه الأعراض الى الشباب من الذكران والإناث وتنال منهم وتملكهم وتحول بينهم و بين أنوار العقول وآداب النفوس وفضائل الأخلاق، ولهذا وأشباهه يحتاجون الى الزواجر والمواعظ ليفيئوا الى مافقدوه من اعتدال المزاج والطريق الوسط[2] " .

ونقل فى موضع آخر أنه سمع ابن مانويه القمىّ يروى عن جعفر بن محمد أنه قال :

مناغاة الصديق أعبث بالروح وأندى على الفؤاد من مغازلة المعشوق، لأنك تفزع بحديث المعشوق الى الصديق ولا تفزع بحديث الصديق الى المعشوق[3] .

١٢ — وقد علل التوحيدى ميل الرجل الى أهله وأحبابه فذكر أنه يحن الى والده للتعزز به، لأن الوالد عضد وركن يعاذ به ، ويؤوى اليه ؛ وينزع الى الوالدة لشفقتها ودعائها الذى لا يعرج الى الله مثله ؛ و يشتاق الى أخته للصيانة لها والترقح اليها ؛ والى ابن عمه للانتصار به ،

(١) الصداقة والصديق ص ٧٣ (٢) ص ٤٠ (٣) ص ٧٩

ولابنة عمه لأنها لَحم على وضم؛ ويصبو الى عشيقه لأن ذاك شيء يجده بالفطرة والارتياح الذى قلما يخلو منه كريم له فى الهوى عرق نابض، وفى المجون جواد راكض . ثم قال : أما الصديق فوجدى به فوق شوقى الى كل من نعتُّه لك، لأنى أباثه بما أجل أبى عنه، وأجبأ من أمى فيه، وأطويه عن أختى تجملا منها، وأداجى ابن عمى عليه خوفا من حسد يفقأ ما بينى وبينه . فأما العشيقة فقصارأى معها أن أشوب لها صدقا بكذب وغلظة بلين لأفوز منها بحظ من نظر، ونصيب من زيارة، وتحفة من حديث . وكل هؤلاء مع شرف موقعهم منى وانتسابهم الىّ دون الصديق الذى حريمى له مباح، وسارحى عنده مُراح؛ أرى الدنيا بعينيه اذا رنوت، وأجد فائتى عنده اذا دنوت، اذا عززت له ذل لى، واذا ذللت له عز بى، واذا تلاحظنا تساقينا كأس المودة، واذا تصامتنا تناجينا بلسان الثقة؛ لايتوارى عنى إلا حافظا للغيب، ولايتراءى لى إلا ساترا للعيب(1) .

وقد عرض التوحيدى للصداقة والحب والعشق فى آخر كتاب المقابسات بتفصيل واف فليرجع اليه من شاء .

١٣ — ولم أجد فيما قرأت من كتب الأدب صورة فنية تمثل اتحاد القلوب والنفوس كالصورة التى قدمها الينا التوحيدى حين قال :

"قلت لأبى سليمان محمد بن طاهر السجستانى : إنى أرى بينك وبين ابن سيار القاضى ممازجة نفسية، وصداقة عقلية، ومساعدة طبيعية، ومواتاة خلقية، فمن أين هذا؟ وكيف هو؟ فقال : يا بنى! اختلطت ثقتى به بثقته بى فاستفدنا طمأنينة وسكونا لا يرثان على الدهر، ولا يحولان بالقهر . ومع ذلك فبيننا بالطالع ومواقع الكواكب مشاكلة عجيبة ومظاهرة غريبة، حتى أنا نلتقى كثيرا فى الإرادات، والاختيارات، والشهوات، والطلبات . وربما تزاورنا فيحدثنى بأشياء جرت له بعد افتراقنا من قبل فأجدها شبيهة بأمور حدثت لى فى ذلك الأوان حتى كأنها قسائم بينى وبينه، أوكأنى هو فيها أو هو أنا . وربما حدثته برؤيا فيحدثنى بأختها فنراها فى ذلك الوقت أو قبله بقليل، أو بعده بقليل" .

(1) ص ٦٢

وقال بعد كلام: فقلت هل تجد عليه فى شيء، أو يجد عليك فى شيء؟ فقال: وجدى به فى الأول قد حجبنى عن موجدتى عليه فى الثانى، على أنه يكتفى منى فيما خالف هواى باللمحة الضئيلة، واكتفى أنا أيضا منه فى مثل ذلك بالاشارة القليلة. وربما تعاتبنا على حال تعرض على طريق الكناية عن غيرنا كأننا نتحدث عن قوم آخرين، ويكون لنا فى ذلك مقنع، واليه مفزع، وقلما نجتمع إلا ويحدثنى عنى بأسرار ما سافرت عن ضميرى الى شفتى، ولا ندت عن صدرى الى لفظى، وذلك للصفاء الذى نتساهمه، والوفاء الذى نتقاسمه، والباطن الذى نتفق عليه، والظاهر الذى نرجع اليه، والأصل الذى رسوخنا فيه، والفرع الذى تشبثنا به. والله ما يسرنى بصداقة حُمْر النَّعم. واذا كنت أعشق الحياة لانى بها أحيا كذلك أعتق كل ما وصل الحياة بالحياة وجنى لى ثمرتها، وجلب الىّ روحها، وخلط بى طيبها وحلاوتها"[1].

والقارئ الذى ألف تذوق العبارات البليغة فى غنى عن تحليل مثل هذا الحديث الشائق الخلاب، وما عسانا نجد فى الافصاح عن جمال التعبير فى مثل قوله "وقلما نجتمع إلا ويحدّثنى عنى بأسرار ما سافرت عن ضميرى الى شفتى، ولا ندَّت عن صدرى الى لفظى".

هيهات هيهات، فتلك لمحات من سحر البيان لا يوفق اليها إلا الملهمون.

* * *

١٤ — وينبغى أن نشير الى أن التوحيدى كان من أنصار إخوان الصفا، ولكنه كان يتستر اتقاءً لسخط الجمهور، وكانت طريقته فى تأييدهم أن ينطق الأشخاص بعبارات مريبة، كقوله: "الشريعة طب المرضى، والفلسفة طب الأصحاء، والأنبياء يطبون للمرضى حتى لا يتزايد مرضهم، وحتى يزول المرض بالعافية فقط، وأما الفلاسفة فانهم يحفظون الصحة على أصحابها حتى لا يعتريهم مرض أصلا. وبين مدبّر المريض ومدبر الصحيح فرق ظاهر وأثر مكشوف لأن غاية تدبير المريض أن ينتقل به الى الصحة — هذا اذا كان الدواء ناجعا والطبع قابلا والطبيب ناصحا — وغاية تدبير الصحيح أن يحفظ الصحة واذا حفظ الصحة فقد أفاده كسب

(١) ص ٣ و ٤ من الصداقة والصديق.

الفضائل وفرغه لها وعرضه لاقتنائها، وصاحب هذه الحال فائز بالسعادة العظمى، وقد صار مستحقا للحياة الآلهية، والحياة الآلهية هى الخلود والديمومة" [(١)] .

١٥ — وبهذه المناسبة نذكر أن رسائل إخوان الصفا ظهرت فى القرن الرابع وهى من أهم المصادر للفلسفة الاسلامية، ولا تُعرف أسماء مؤلفيها بالضبط، ولكن يرجح أن التوحيدى كان بينهم . أما لغتها فليست من النثر الفنى الذى كلف به مشاهير الكتاب فى ذلك العصر، ولكنها لغة وسط بين لغة الكتابة ولغة التأليف، لأن كتابها أرادوا أن يفهموا الجماهير مايرمون اليه من الأغراض السياسية والدينية، وذلك لا يتم فى مثل لغة الصابى وابن العميد . فلم يكن لهم بد من أن يتخيروا تلك اللغة الخالصة من شوائب البديع كالسجع والتورية والجناس، ولكن غلبت عليهم النزعة العامية فى بعض الأحيان [(٢)] .

---

(١) ص ١٥ مقدمة المقابسات .

(٢) كانت رسائل إخوان الصفا خليقة بأن تدرس درسا مفصلا فى هذا الكتاب . ولكنا رأينا الباحثين أطالوا فيها القول قديما وحديثا ، ورأينا من ناحية ثانية أن النثر الفنى فيها قليل . على أننا لم نغفلها جملة، بل كتبنا فصلا عن بعض اتجاهاتها الفلسفية فى باب (الأخبار والأقاصيص) — راجع « الانسان والحيوان أمام محكمة الجن » فى الجزء الأول . وراجع كذلك الشواهد التى أثبتناها هناك فى فصل (السجع والازدواج) .

٢ — أبو على ابن مسكويه

١ — لما أصلْ الى التثبت من لقب الكاتب المفكر أحمد بن محمد بن يعقوب ، فهو تارة "مسكويه" وتارة "ابن مِسكويه" وقد حدث ياقوت أنه "كان مجوسيا وأسلم" فظن صديقنا الأستاذ الزركلى صاحب "الأعلام" أن هذا صحيح ، فأثبت كذلك أنه كان مجوسيا وأسلم ، وهذا غير معقول ، فان الرجل "اسمه أحمد بن محمد" والأرجح عندى أن عبارة ياقوت سقطت منها كلمة ، وأن الأصل "وكان جده مجوسيا وأسلم" وقد يكون هذا الترجيح هو الصواب .

٢ — اتصل ابن مِسكويه فى شبابه بابن العميد واختص به ، ثم ساعده زمانه فاختص بأعلام بنى بويه وتولى مكتبة عضد الدولة فلقب بالخازن ، وكانت دار الكتب فى ذلك العهد تسمى "الخزانة" وظل متصلا بأولئك الملوك الى أخريات عمره . يدلنا على ذلك قوله يهنئ عميد المُلْك باتفاق الأضحى والمِهرجان فى يوم واحد :

قل للعميد عميد الملك والأدب	اسعد بعيديك عيد الفرس والعرب
هذا يشير بشرب ابن الغمام ضحى	وذا يشير علينا بابنة العنب
خلائقٌ خُيِّرتْ فى كل صالحة	فلو دعاها لغير الخير لم تجب
أعدت شرخ شباب لست أذكره	بعدا ، ورُدّ علىّ العمر من كثب
فطاب لى هرمى والموت يلحظنى	لحظ المريب ولولا أنت لم يطب
فإن تمرّس بى خصم تعصب لى	وإن أساء إلىّ الدهر أحسن بى
وقد بلغت الى أقصى مدى عمرى	وكلّ غربىَ واستأنست بالنوب
اذا تملأت من غيظ على زمنى	وجدتنى نافخا فى جذوة اللهب

٣ — شغل ابن مسكويه مدة طويلة بالكيمياء، ولكنه لم يكن فيها من الموفقين وكان اخفاقه مثارا لسخرية أبى حيان التوحيدى، فقد غمزه فى كتاب الإمتاع ووصفه بأنه "فقير بين أغنياء، وغنى بين أنبياء"[1] واتهمه بالجهل وقلة المحصول، وأنطق بعض محادثية بهذه الجملة "يا عجبا لرجل صحب ابن العميد أبا الفضل، ورأى ما عنده وهذا حظه! ثم أجاب: قد كان هذا! ولكنه كان مشغولا بطلب الكيمياء مع أبى الطيب الكيميائى الرازى مملوك الهمة فى طلبه، والحرص على إصابته، مفتونا بكتب أبى زكريا وجابر بن حيان، ومع هذا كان اليه خدمة صاحبه فى خزانة كتبه. هذا مع تقطيع الوقت فى الحاجات الضرورية والشهوية، والعمر قصير، والساعات طائرة، والحركات دائمة، والفرص بروق تأتلق، والأوطار فى عرضها تجتمع وتفترق، والنفوس عن فوائتها تذوب وتحترق. ولقد قطن العامرى الرى خمس سنين ودرس وأملى وصنف وروى فما أخذ عنه مسكويه كلمة واحدة، ولا وعى مسأله، حتى كأنه كان بينه وبينه سد. ولقد تجرع على هذا الصابَ والعلقم، ومضغ لقمة حنظل الندامة فى نفسه، وسمع بأذنه قوارع الملامة من أصدقائه، حين لم ينفع ذلك كله. وبعد هذا فهو ذكى حسن الشعر نقى اللفظ.

وقد أولع التوحيدى بمهاجمة ابن مسكويه ورماه بمدح الجود باللسان وإيثار الشح بالفعل، وادعاء الحكمة والتكلف فى الأخلاق. ولننظر كيف يقول فى كتاب الوزيرين.

"جرى بينى وبين أبى على مسكويه شىء: قال لى مرة: أما ترى الى خطأ صاحبنا — وهو يعنى ابن العميد — فى إعطائه فلانا ألف دينار ضربة واحدة! لقد أضاع هذا المال الخطير فيمن لا يستحق. فقلت بعد ما أطال الحديث وتقطع بالأسف: أيها الشيخ! أسألك عن شىء واحد، فاصدق فإنه لا مدبّ للكذب بينى وبينك: لو غالط صاحبك فيك بهذا العطاء وبأضعافه وأضعاف أضعافه أكنت تخيله فى نفسك مخطئا ومبذرا ومفسدا أو جاهلا بحق المال؟ أو كنت تقول: ما أحسن ما فعل، وليته أربى عليه! فان كان

(١) معجم الأدباء ج ٢ ص ٨٩

الذى تسمع على حقيقته فاعلم أن الذى يرد ورد مقالك إنما هو الحسد أو شيء آخر من جنسه، وأنت تدعى الحكمة، وتتكلف فى الأخلاق، وتزيف الزائف وتختار منها المختار، فافطن لأمرك واطلع على سرك وشرك"(١).

٤ — ونحن نفهم سر هذا التحامل من جانب التوحيدى ، فقد كان شديد الحقد على المجدودين من أهل زمانه، وخاصة من اتصلوا بالملوك والرؤساء، ولنا أن نضيف إلى ذلك نجاح ابن مسكويه فى حياته العملية فقد كان الرجل فيما يظهر متين الأخلاق ، ومتانة الخلق قوة مرعبة يُرعد لها الأدباء المساكين الذين ابتُلوا بالطمع فى هدايا الملوك والوزراء ، وألفوا الترلف والتودّد الى أقطاب الجاه والمال . والأديب الذى يعتمد على نفسه وعلى خلقه وعلى كفايته الذاتية يعيش فى الأغلب غريبا بين معاصريه من الأدباء ، فليس عجيبا أن يتحامل أديب متشرد أفاق كالتوحيدى على أديب موفّق مطمئن العيش كابن مسكويه . ولو شئنا لأضفنا أيضا نزعة ابن مسكويه الفلسفية فهى كذلك من أسباب حقد التوحيدى عليه، فقد كان التوحيدى واسع الثقافة إلى حدّ مدهش وكان يطمح فى التفرّد بالسمعة العلمية والأدبية والفلسفية بين رجال ذلك الجيل، ولهذا نراه حين يستر تحامله على ابن مسكويه لا يجد غير هذا الثناء المزيل إذ يقول :

"وبعد هذا فهو ذكى حسن الشعر نقى اللفظ"(٢).

٥ — ومن دلائل النعمة التى ظفر بها ابن مسكويه فى حياته أن نراه ممدّحا يتملقه لئام الشعراء والكتّاب ، فقد كتب إليه بديع الزمان الهمذانى رسالة عتاب تكلف فيها الودّ والإخلاص، وكان بديع الزمان وقاح الوجه سليط اللسان ، لا يعترف لأحد بفضل ، ولا تصدر عنه كلمة الإنصاف إلا مدفوعة برغبة أو رهبة ، ويود لو أمكنته المقادير من طمس معالم النباهة والصيت فيما يمر به من مختلف البلاد : حتى لا يذكر بالعلم والنبل إنسان سواه . وتكاد رسائله وقصائده تُقصَر على بث ما كان يعتلج فى صدره من حزازات وعداوات

(١) مرت هذه الكلمة فى الفصل السابق ص ١٣٧ (٢) ياقوت ج ٢ ص ٩٠

وأضغان وأحتاد، وقد اتصل بابن مسكويه حينا، ثم سعى بينهما الواشون فكدروا ما كان ينتظره البديع من طيب الصلات، فكتب الى صاحبه الرسالة الآتية :

ويا عزّ ان واش وشى بىَ عندكم فلا تمهليـــه أن تقولى له مهـلا
كما لو وشى واش بعزة عنـــدنا لقلنا تزحزح لا قـريبا ولا أهلا

بلغنى — أطال الله بقاء الشيخ — أن قيضة كلب وافته بأحاديث لم يعرها الحق نوره، ولا الصدق ظهوره، وأن الشيخ أذن لهـا على حجاب أذنه، وفسح لها فناء ظنه، ومعاذ الله أن أقولهـا، وأستجيز معقولهـا . بلى قد كان بينى و بينه عتاب لا ينزع كنفه، ولا يجذب أنفه، وحديث لا يتعدّى النفس وضميرها، ولا تعرفه الشفة وسميرها، وعربدة كعربدة أهل الفضل لا تتجاوز الدلال والإدلال، ووحشة يكشفها عتاب لحظة، كغناء بحظة، فسبحان من ربى هذا الأمر حتى صار أمرا، وتأبط شرا، وأوحش حرا، وأوجب عذرا، بل سبحان من جعلنى فى حيز العــذر أشيم بارقته، وأستخيل صاعقته، أنا المساء إليه، والمجنىّ عليـه، والمستخَف به، لكن من بُلى من الأعداء كما بليت، ورمى من الحسدة بمـا رميت، ووقف من الوجد والوحدة حيث وقفت، واجتمع عليـه من المكاره ما وصفت، إعتذر مظلوما، وأحسن ملوما، وضحك مشتوما . ولو علم الشيخ عدد أبناء الحدد، وأولاد العدد، بهذا البلد، ممن ليس له همة إلا فى شكاية أو حكاية أو سعاية أو نكاية، لضن بعشرة غريب إذا بدر، وبعيــد إذا حضر، ولصان مجلســه عمن لا يصونه عمـا رقى إليه . فهبنى قلت ما حُكى له، أليس الشاتم من أسمع ؟ أليس الجانى من أبلغ ؟ فقد بلغ من كيد هؤلاء القوم أنهم صادفوا من الأستاذ نفسا لا تستفز، وجبلا لا يهز، وشوا إليه بما أرّثوا به نارهم . ورد علىّ ما قالوه فمـا لبثت أن قلت :

فان يك حربٌ بين قومى وقومها فانى لهـا فى كل نائبـة سـلمُ

فليعــلم الشــيخ الفاضل أن فى كبد الأعداء منى جمرة، وأن فى أولاد الزنا عنــدنا كثرة، وقصاراهم نار يشبونها، أو عقرب يدبونها، أو مكيدة يطلبونها، ولولا أن العذر إقرار بمـا

قيل، وأكره أن أستقيل، بسطت فى الاعتذار شاذروانا، ودخلت فى الاستقالة ميدانا، لكنه أمر لم أضع أوله فلا أتدارك آخره .

وقد ختم بديع الزمان رسالته بهذه الأبيات :

مولاى إن عدت ولم ترض لى ... أن أشرب البارد لم أشرب
إمتط خدى وآنتعل ناظرى ... وصِد بكفى حُمَة العقرب
بالله ما أنطق عن كاذب ... فيك ولا أبرق عن خُلَّب
فالصفو بعد الكدر المفترى ... كالصحو بعد المطر الصيِّب
أن أجتنى الغلظة من سيدى ... فالشوك عند الثمر الطيب (١)

ثم انتظر من ابن مسكويه ان يعتذر عن إعراضه عنه، فأجابه بما نصه بعد الديباجة :

" أما البلاغات التى أومأ إليها فوالله ما أذنت لها ولا أذنت فيها ، وما أذهبنى عن هذه الطريقة وما أبعدنى عنها ! وقد نزه الله لسانى عن الفحشاء، وسمعى عن الإصغاء ، وما يتخذ العدو بينهما مجالا (٢) " .

ومثل هذا الجواب يشعر بأن موقف بديع الزمان من صاحبه كان موقف التابع من المتبوع . والمصادر لا تعيننا على تحديد ما كان بينهما من ألوان الصلات، وان كانت عبارة ياقوت صريحة فى أنه كان بينهما قبل هذا العتب وداد .

٦ — شغف آبن مسكويه شغفا بالغا بالفلسفة اليونانية وآطلع على أكثر ما عرف العرب من مؤلفات اليونان، ويرى القارئ فى آثاره ظلالا كثيرة لآراء سقراط وجالينوس وأرسطاليس . ويظهر أن الفلسفة اليونانية وصلت الى أعماق نفسه فى وضوح وجلاء فاقتفى مناهج اليونان فى عرض الآراء ونقد مظاهر الحياة العقلية والسياسية والاجتماعية . وكذلك لم يقف فى دراسة الأخلاق عند الحدود الدينية التى كان يكتفى بها الصوفية

---

(١) ياقوت ج ٢ ص ٩٢ و ٩٣ (٢) ص ٩٣

والناسكون والزاهدون، بل ساير العقل وصاحَبه وأنس به واطمأن إليه، ثم اتخذه أساسا للأخلاق، فصار العقل عنده نظيرا للوحى فى عرف المتبتلين، وما زال يدور حول المعقولات فى نظام السلوك حتى صار الخلق المعقول أحب إليه وأقرب إلى نفسه من الخلق المنقول : فهو لا يفعل الخير لأنه أُمر به ولا يجتنب الشر لأنه نُهىَ عنه ، وإنما يفعل ما يفعل ويترك ما يترك وَفقا لما اطمأن إليه عقله وأمر به وجدانه فى حدود النفع والمنطق والذوق.

وإلى القارئ وصيته — أو دستوره إن شاء — فى نظام السلوك :

بسم الله الرحمن الرحيم

هذا ما عاهدَ عليه أحمد بن محمد ربَّه وهو يومئذ آمن فى سِربه، معافى فى جسمه، عنده قوت يومه، لا تدعوه الى هذه المعاهدة ضرورة نفس ولا بدن ؛ ولا يريد بها مراءاة مخلوق ولا استجلاب منفعة، ولا دفع مضرة : عاهده على أن يجاهد نفسه ويتفقد أمره، فيعف ويشجع ويحكم . وعلامة عفته أن يقتصد فى مآرب بدنه حتى لا يحمله الشره على ما يضر جسمه أو يهتك مروءته ؛ وعلامة شجاعته أن يحارب دواعى نفسه الذميمة حتى لا تقهره شهوة قبيحة ولا غضب فى غير موضعه، وعلامة حكمته أن يستبصر فى اعتقاداته حتى لا يفوته بقدر طاقته شىء من العلوم والمعارف الصالحة ، ليصلح أولا نفسه ويهذبها ويحصل له من هذه المجاهدة ثمرتها التى هى العدالة، وعلى أن يتمسك بهذه التذكرة ويجتهد فى القيام بها والعمل بموجبها وهى خمسة عشر بابا :

إيثار الحق على الباطل فى الاعتقادات ، والصدق على الكذب فى الأقوال، والخير على الشر فى الأفعال ، وكثرة الجهاد الدائم لأجل الحرب الدائم بين المرء وبين نفسه ، والتمسك بالشريعة ولزوم وظائفها، وحفظ المواعيد حتى يُنجزها، وأول ذلك ما بينه وبين الله عز وجل، وقلة الثقة بالناس بترك الاسترسال، ومحبة الجميل لأنه جميل لا لغير ذلك، والصمت فى أوقات حركات النفس للكلام حتى يستشار فيه العقل ، وحفظ الحال التى تحصل

فى شىء شىء حتى تصير ملكة ولا تفسد بالاسترسال ، والاقدام على كل ما كان صوابا ، والاشفاق على الزمان الذى هو العمر ليستعمل فى المهم دون غيره ، وترك الخوف من الموت والفقر لعمل ما ينبغى ، وترك التوانى ، وترك الاكتراث لأقوال أهل الشر والحسد لئلا يشتغل بمقابلتهم ، وترك الانفعال لهم ، وحسن احتمال الغنى والفقر والكرامة والهوان ، وذكر المرض وقت الصحة ، والهم وقت السرور ، والرضا عند الغضب ليقل الطغى والبغى ، وقوة الأمل وحسن الرجاء ، والثقة بالله عز وجل وصرف البال اليه[1] .

---

(١) معجم الأدباء ص ٩٥ و ٩٦ ج ٢

٣ – الأخلاق عند ابن مسكويه

١ – الخلق – كما عرّفه ابن مسكويه – حال للنفس داعية لها الى أفعالها من غير فكر ولا روية . فهو بهذا غير التخلق : لأن التخلق يقتضى شعورا بالكلفة عند إرادة العمل الحسن وعند تجنب العمل القبيح . وقد عرض ابن مسكويه لآراء القدماء فى أصل الخلق، فبين أن منهم من ظنوا "أن الناس كلهم يخلقون أخيارا بالطبع ثم بعد ذلك يصيرون أشرارا بمجالسة أهل الشر والميل الى الشهوات الرديئة التى لا تقمع إلا بالتأديب"(١) وأن منهم آخرين "ظنوا أن الناس خلقوا من الطينة السفلى وهى كدر العالم فهم لأجل ذلك أشرار بالطبع وإنما يصيرون أخيارا بالتأديب والتعليم"(٢) وهناك رأى ثالث اختاره ابن مسكويه وهو الرأى الذى يقول بأنه "ليس شىء من الأخلاق طبيعيا للانسان" وإنما طبع الانسان على قبول الخلق فهو يتحول وفقا لما يؤثر فيه من أعمال الأخيار والأشرار . وليس لابن مسكويه فى أصل الخلق رأى خاص ، وإنما يتخير من بين الآراء، وميزته أنه يعتمد على المشاهدة والاختبار، فيقول مثلا "وهذا الرأى هو الذى نختاره لأنا نشاهده عيانا" وحين يشرع فى بيان مراتب الناس فى قبول الآداب يذكر أنها كثيرة ثم يقول : وهى تشاهد وتعاين فيهم وخاصة فى الأطفال، فان أخلاقهم تظهر فيهم منذ بدء نشأتهم، ولا يسترونها بروية ولا فكر كما يفعله الرجل التام الذى انتهى فى نشوئه وكماله الى حيث يعرف من نفسه ما يستقبح منه فيخفيه بضروب من الحيل والأفعال المضادة لما فى طبعه ، وأنت تتأمل من أخلاق الصبيان واستعدادهم لقبول الأدب أو نفورهم عنه، أو ما يظهر فى بعضهم من القحة وفى بعضهم من الحياء ، وكذلك ما ترى فيهم من الجود والبخل والرحمة والقسوة والحسد وضده ، ومن الأحوال المتفاوتة ما تعرف به مراتب الانسان فى قبول الأخلاق الفاضلة وتعلم معه أنهم

(١) تهذيب الأخلاق ص ٣٧ (٢) ص ٣٨

ليسوا على رتبة واحدة وأن فيهم المتوانى والممتنع ، والسهل السلس ، والفظ العسر ، والخير والشرير"[1] .

٢ — والواقع أنه ليس لابن مسكويه غير هذه المزية وهى محاولة الانتفاع من المشاهدات والاختبارات . ولكن هذه المزية نفسها تكدرت عليه بسبب حيرته فى تعليل ما يعرض له من مختلف الآراء : فهو تارة مع جالينوس وتارة مع ارسططاليس ، وطورا مع العقل وطورا مع الشرع ، بحيث تصطدم فى كتبه معالم المعقول والمنقول ، ولذلك تراه يرتب أقوال الحكماء ترتيبا سيئا فى أكثر الأحوال ، لأنه لا يمضى الى غاية معينة يسوق فى سبيلها الحجج والبراهين . وقد يحتطب أحيانا فى ليل من الظنون والأوهام فيجمع بين الجيد والردىء والطيب والخبيث . ولهذا الخبط قيمته عند من يريدون تبيين ما فعلت الفلسفة اليونانية بالعقلية العربية ، فقد كانت فى أذهان كثير من الناس صورة للغبار الذى يثور عند هبوب الرياح ، وكانت الأذهان العربية هادئة مطمئنة فجاءتها فلسفة اليونان بزوابع وأعاصير أطارت ما كان استقر فيها من أمن وسكون . وقد آن أن يعرف الناس أن الآراء التى تأتى من أقطار أجنبية لا تنفع من يتلقونها إلا بعد أن يهضموها ويسلموا من الافتتان بما فيها من طرافة وبريق ، ومَثَلهم فى ذلك مَثَل من يشرب الدواء لا تصفو نفسه ولا تذكو قريحته ولا يعتدل مزاجه إلا بعد أن يزول ما أحدث الدواء بأعصابه وحواسه من قلق واضطراب ، وكذلك وقع لمفكرى العرب حين غزتهم الفلسفة اليونانية . فكان منهم المفتون بكل ما (نقل) عن سقراط وأفلاطون وأرسطاليس ، وكان منهم من هضم تلك الفلسفة واستبقى لعقله وروحه ما فيها من تثقيف للعقل وتهذيب للحس وتقويم للوجدان . ونحن نشهد فى عصرنا شواهد لذلك ، ففى رجال اليوم من له فى كل صباح رأى جديد ، لأنه لا يأخذ عن نفسه وإنما يتلمذ لعدد من الفلاسفة والمفكرين قد يتوافقون وقد يتناقضون ، وهو لهم فى توافقهم وتناقضهم تابع أمين ، وقد يكون فى المساء صدى لكتاب قرأه فى الصباح ، وكذلك يفعل فلان وفلان !

(١) تهذيب الأخلاق ص ٤١

ومن معاصرينا من خلص من قيود ما قرأ وعاد يفكر ويتذوق ويحس وهو حر العقل والذوق والاحساس .

٣ — رسم ابن مسكويه لنفسه خطة تجدر بمثله وهى القصد إلى تثقيف الخواص: فهو لايكتب فى الأخلاق للناس أجمعين، وإنما يتوجه بآرائه وأبحاثه إلى من درسوا المنطق وعرفوا كيف يكون القياس والبرهان. وكان يشعر — فيما يظهر — بأن خواص زمانه كانوا على حافة الشك والارتياب ، لهذا نراه يهتم أولا وقبل كل شىء باثبات وجود النفس وجودا مستقلا عن الجسم أتم استقلال، بحيث لا تضعف حين يضعف ولا تزول حين يزول . ولم يضطره إلى مواجهة هذا البحث الشائك إلا اهتمامه كما قلنا بتقويم الخواص ، ولو كان يكتب للعوام لأراح نفسه من آصار هذه المخاطرة العقلية ، لأن العوام مطمئنون أو كالمطمئنين إلى خلود الروح وعودتها يوم البعث إلى بقايا جسمها فى التراب . وإقناع الخواص بوجود النفس واستقلالها وخلودها هو حجر الزاوية فى جذبهم إلى جمال الأخلاق ، لأنه لا يخشى على الخواص إلا شر الريب وعدم الاكتراث ؛ وهم لا يضلون — وما أكثر ما يضلون ! — إلا ليأسهم من خلود النفس الانسانية . وقولهم مع سائر الدهريين "إن هى إلا حياتنا الدنيا نموت ونحيا وما نحن بمبعوثين" .

٤ — وابن مسكويه واثق بالمنطق ثقة مطلقة ، ومن أجل ذلك يعتمد عليه فى جميع الأحوال ، مطمئنا إلى أنه متى صحت المقدمات حقت النتائج . فلنختبر ماصنع فى بيان وجود النفس لنعرف مبلغ ما وصل إليه فى إثبات ما يريد ، وهو يذكر " أنا لما وجدنا فى الانسان شيئا ما يضاد أفعال الأجسام بحده وخواصه وله أيضا أفعال تضاد أفعال الجسم وخواصه حتى لا يشاركه فى حال من الأحوال ، وكذلك نجده يباين الأعراض ويضادها كلها غاية المباينة ثم وجدنا هذه المباينة والمضادة منه للأجسام والأعراض إنما هى من حيث كانت الأجسام اجساما والأعراض أعراضا حكمنا بأن هذا الشىء ليس بجسم ولا جزء من جسم ولا عرضا ، وذلك أنه لا يستحيل ولا يتغير ، وأيضا فانه يدرك جميع الأشياء بالسوية ولا يلحقه فتور ولا كلال ولا نقص"[1] .

(١) تهذيب الأخلاق ص ٤

ومعنى هذا أن الانسان مركب من شيئين : أحدهما الجسم، وثانيهما النفس . والجسم محسوس ملموس لا يختلف فى تقديره اثنان ، فلم يبق موضعا للنزاع إلا النفس وهى عنده تضاد الأجسام فى الحدود والخواص .

" وبيان ذلك — كما شرح فى كتاب تهذيب الأخلاق[1] — أن كل جسم له صورة ما فانه ليس يقبل صورة أخرى من جنس صورته الأولى إلا بعد مفارقة الصورة الأولى مفارقة تامة .

مثال ذلك أن الجسم اذا قبل صورة وشكلا من الأشكال كالتثليث مثلا فليس يقبل شكلا آخر من التربيع والتدوير وغيرهما إلا بعد أن يفارقه الشكل الأول، وكذلك إذا قبل صورة نقش أو كتابة أو أى شيء كان من الصور فليس يقبل صورة أخرى من ذلك الجنس إلا بعد زوال الأولى و بطلانها البتة . فان بقى فيه شيء من رسم الصورة الأولى لم يقبل الصورة الثانية على التمام بل تختلط الصورتان فلا يخلص له إحداهما على التمام . مثال ذلك إذا قبل الشمع صورة نقش فى الخاتم لم يقبل غيره من النقوش إلا بعد أن يزول عنه رسم النقش الأول" .

هذا هو الجسم، أما النفس فتقبل صور الأشياء كلها على اختلافها من المحسوسات والمعقولات "على التمام والكمال من غير مفارقة للأولى ولا معاقبة ولا زوال رسم، بل يبقى الرسم الأول تاما كاملا وتقبل الرسم الثانى أيضا تاما كاملا؛ ثم لا تزال تقبل صورة بعد صورة أبدا دائما من غير أن تضعف أو تقصر فى وقت من الأوقات عن قبول ما يرد ويطرأ عليها من الصور" .

٥ — تلك إحدى محاولات ابن مسكويه فى استقلال النفس، وكلامه فى هذا الباب كلام الواثق من صحة ما يقول ، وليته تذكر أننا حين نؤمن بوجود شيء لا ينهض إيماننا حجة على وجود ذلك الشيء على النحو الذى نتصوّره ونراه ، فليس اطمئنان ابن مسكويه إلى أن النفس موجودة مستقلة خالدة بكاف فى محو ما يحيك فى الصدور من الريب فى استقلالها

---

(١) ص ٤ و ٥

عن الجسم وتفردها دونه بالخلود .. وأخشى أن يقف قوم فى وجه ابن مسكويه فينكروا عليه ما آدعاه من أن النفس "تدرك جميع الأشياء بالسوية ولا يلحقها فتور ولا كلال ولا نقص" فقد شاهد ناس أن النفس تتبع الجسم فى الصحة والمرض والقوة والضعف والنشاط والخمول، وان الإنسان يرى المعنويات والمحسوسات بأشكال مختلفة فى وجوه متباينة تبعا لاختلاف الذوق والحس والمزاج . ولاحظ ناس كذلك أننا عبيد لحواسنا وأعصابنا وأن جمهورنا مدين فى تكوين ذوقه وحسه وعقله إلى ما يأكل وما يشرب وما يلبس وما يرى وما يذوق ، وأنه كذلك مدين إلى من يصادق ويخاصم فى تكييف ما يحتاج بصدره من ألوان المودات والعداوات . وقد راعى ذلك فقهاء الشريعة الاسلامية حين وضعوا آداب القضاء، واستحبوا للقاضى أن يمتنع عن الحكم إذا شعر ببعض عوارض المرض أو الظمأ أو الجوع ، فليس من السهل الاقتناع بأن النفس معصومة من التحول والتغير والفساد، كما ظن ابن مسكويه وكما توهم متابعوه .

إن خلود النفس مشكلة قديمة تعبت فى حلها العقول ، والقول الفصل هو كلمة القرآن "ويسألونك عن الروح قل الروح من أمر ربى وما أوتيتم من العلم إلا قليلا" ولو سكت عنها ابن مسكويه لأراح واستراح . ولكنه ظن المنطق والفلسفة يغنيان فى كشف ذلك السر الذى لم يحاول كشفه القرآن .

٦ — فاذا تركنا الجوانب النظرية فى أساس الأخلاق ومضينا نتعقب جهود ابن مسكويه فى شرح الجوانب العملية رأيناه فى أكثر الأحوال من الموفقين، من ذلك أنه عرض لشرح القاعدة التى تقول "الانسان مدنى بالطبع" فأخذ يفصلها بأن ذلك معناه "أنه لم يخلق الانسان خلق من يعيش وحده ويتم له البقاء بنفسه كما خلق كثير من الوحش والبهائم والطير وحيوان الماء، لأن كل واحد من تلك خلق مكتفيا بنفسه غير محتاج فى بقائه إلى غيره، بل قد أزيحت علته فى جميع ما تتم به حياته خلقة وإلهاما . أما الخلقة فلأنه مكتس بما يوافقه من وبر وصوف وشعر وريش وما أشبه ذلك، وذو آلة يتناول بها حاجته : إن كان لاقط حب

فمنقار، وإن كان آكل عشب فمشفر وأسنان موافقة للقطع والقلع، وإن كان سبعا أو آكل لحم فأنياب أو مخالب أو مناسر ... وأما الإلهام فلانه يتناول من الأغذية ما يوافقه ويتجنب ما يضره، وينتقل من مصيفه إلى مشتاه، ويعد مصالحه كلها من القوت ولكن بغير تعليم ولا تدبير، بل بالالهام المولود معه، فكل واحد منها مكتف بذاته فى حياته التى قدرت له. فأما الانسان فانه خلق عاريا غير مهتد لشيء من مصالحه إلا بالمعاناة والتعليم، ولا يكفيه القليل من المعاونين حتى يكونوا عدة كثيرة وجماعة وافرة، وإذ كان هذا على هذا وكان سبيل الانسان فى حياته وحسن عيشته على خلاف الحيوان كله قيل إنه مدنى بالطبع: أى محتاج إلى ضروب المعاونات التى تتم بالمدينة واجتماع الناس. وهذا الاجتماع للتعاون وهو التمدن سواء كان ذلك فى الناس وبرا ومدرا أو على رأس جبل"[1].

٧ — ويخلص ابن مسكويه من ذلك إلى نتيجتين عظيمتين :

الأولى : أنه من العدل أن نعين الناس بأنفسنا كما أعانونا بأنفسهم ونبذل لهم عوض ما بذلوه لنا.

الثانية : أن الذهاب إلى التزهد وتحريم المكاسب ظلم : لأن الزاهد مضطر لا محالة إلى استنجاد الناس فى ضرورات بدنه وحاجاته إلى ما يقيم أوده، فهو يطلب معاونتهم ثم لا يعاونهم، وذلك ظلم وعدوان. فان ظن أحد من المتزهدين أن مقدار حاجته إلى معونات الناس قليل فليعلم أن ذلك القليل يحتاج فيه إلى استخدام عالم كثير من الناس لا يحصون "وإن كان لا يشعر بذلك"[2].

وهذه دقة فى فهم الأخلاق، لأننا قد نحسب أننا نحسن إلى الناس على حين لا نعمل غير قضاء ما علينا لهم من ديون. وكل إنسان فى الواقع مدين إلى إخوانه فى الإنسانية من قرب أو من بعد، فالمصباح الذى نقرأ فى ضوئه، ونظام البيت الذى نأوى إليه، والكتاب الذى نهتدى بهديه، والشرائع التى نعيش فى حماها، كل أولئك جزء من جهود انسانية عديدة

(١) راجع ص ٦٣ من الفوز الأصغر. (٢) راجع ص ٦٤

منهـا القريب ومنها البعيـد، وتلك الجهود تظلنا ونحن أجنَّة فى بطون أمهاتنا ، وترعانا حين نولد، ثم تظل تلاحقنا ببرها طول الحياة ، إلى أن تشمل أجسامنا بالكرامة والرعاية يوم نموت . فلنعرف بعض ما أسدته إلينا الإنسانية، ولنذكر أن أفضلنا وأكرمنا هو من آمن حق الإيمان بأن الحياة تعاون وتساند وأن المرء بنفسه قليل .

٨ — ولعل أفضل ما كتب ابن مسكويه هو الفصل الذى عقده للكلام عن آداب الصداقة ورعاية الصديق ،وهو فى هذا مسبوق بعدد عظيم من الكتّاب والمفكرين،ولكنه بسط القول فى الصـداقة بسطا شافيا ينساب إلى النفس انسياب المـاء إلى الأشجـار الظِّماء ، وهو فى ذلك الفصل خاصة يتكلم كلام المفكر المجرّب الذى صادق وعادى وعرف كيف تكون مرارة العداوات وحلاوة الصداقات، وهو يشعرنا بأن الاحتفاظ بالصداقة ليس من الأمور الهينة كما يتوهم الأكثرون . وقـد نقتنع بعد قراءة ما كتب بأن تألُّف العـدو أيسر من الاحتفاظ بالصديق . وتلك مسألة فى غاية الدقة : فطالمـا ضيعنا أصدقاءنا حين ظننا بأن فى الصداقة ما يغنى عن التلطف والتودد ورعاية الحقوق .

٤ – ابن نباتة الخطيب

١ – اشتهر بابن نُباتة فى الأدب العربى ثلاثة رجال : أولهم عبد الرحيم بن محمد بن نباتة الخطيب الذى ولد فى ميافارقين بديار بكر سنة ٣٣٥ ودفن بها سنة ٣٧٤، والثانى محمد بن محمد بن نباتة المصرى الشاعر وصاحب "سرح العيون فى شرح رسالة ابن زيدون" وهو من ذرية ابن نباتة الخطيب كما أشار إليه فى آخر إجازته للصلاح الصفدى وهى مذكورة فى خزانة الأدب (٦٨٦ – ٧٦٨)[١] والثالث عبد العزيز بن نباتة السعدى أحد الشعراء المجيدين الذين مدحوا سيف الدولة ابن حمدان .

٢ – وابن نُباتة الخطيب الذى نحن بصدده رجل موفّق رزق ما لم يرزق أحد من الشهرة العريضة بين الخطباء الواعظين . وقد ذكر ابن خلكان أن الاجماع وقع على أن خطبه ما عمل مثلها وفيها دلالة على غزارة علمه وجودة قريحته[٢] . وقد اهتم النقاد بتعقب خطبه ومناقشتها ، فعرض له ابن أبى الحديد فى شرح نهج البلاغة[٣] وعرض له ابن الأثير صاحب المثل السائر فى عدّة مواطن فى كتابه[٤]، واهتم بشرح ديوانه جماعة من المشاهير منهم عبد الله العكبرى (٥٣٨ – ٦١٦) وعبد اللطيف بن يوسف البغدادى (٥٥٧ – ٦٢٩) وعثمان بن يوسف القليوبى المتوفى سنة ٦٤٤

ويظهر مما كُتب عنه أن الرجل كان قد فنى فى الوعظ فناء تاما ، وكان مشغوفا بما يطمئنه على مصيره ومصير عمله ، فكان لذلك يتمنى لو يرى الرسول فى المنام ، وقد صحت له هذه الأمنية . نقل ابن خلكان عن تاج الدين الكندى باسناده المتصل الى الخطيب بن نباتة أنه قال : لما عملت خطبة المنام وخطبت بها يوم الجمعة رأيت ليلة السبت فى منامى كأنى بظاهر ميافارقين

(١) ص ١٨ مقدمة ديوان ابن نباتة لطاهر الجزائرى ومقدمة ديوان ابن نباتة للبشتكى . (٢) ص ٥٠٧ ح ١
(٣) ص ١٤٢ ج ١ (٤) ص ١١٨ و ١٦٢ و ٤٦٠

عند الجبانة فقلت : ما هذا الجمع ؟ فقال لى قائل : هذا النبي صلى الله عليه وسلم ومعه أصحابه فقصدت إليه لأسلم عليه فلما دنوت منه التفت فرآنى فقال : مرحبا يا خطيب الخطباء ! كيف تقول — وأومأ إلى القبور — قلت : لا يخبرون بما إليه آلوا ، ولو قدروا على المقال لقالوا ، قد شربوا من الموت كأسا مرة ، ولم يفقدوا من أعمالهم ذرة ، وآلى عليهم الدهر ألية برة ، أن لا يجعل لهم الى دار الدنيا كرة ، كأنهم لم يكونوا للعيون قُرة ، ولم يعدّوا فى الأحياء مرة ! أسكتهم والله الذى أنطقهم ، وأبادهم الذى خلقهم ، وسيجدّدهم كما أخلقهم ، ويجمعهم كما فرقهم ، يومَ يعيد الله العالمين خلقا جديدا ، ويجعل الظالمين لنار جهنم وقودا ، يوم تكونون شهداء على الناس ويكون الرسول عليكم شهيدا — وأومأت عند قولى تكونون شهداء على الناس الى الصحابة ، وبقولى شهيدا إلى الرسول صلى الله عليه وسلم — يوم تجد كل نفس ما عملت من خير محضرا وما عملت من سوء تودّ لو أن بينها وبينه أمدا بعيدا .

فقال لى : أحسنت ، ادنُ ، فدنوت منه صلى الله عليه وسلم فأخذ وجهى وقبله وتفل فى فمى وقال : وفقك الله !

٣ — ومثل هذه الرؤيا يدل على منحى ابن نباتة وفهمه لواجبات الخطيب ، ورؤيا الرسول لا تدل على شيء أكثر من شغل الرائى واتجاهاته الفكرية ؛ فالرسول حين تراءى له فى نومه لم يحدّثه إلا بما يحب هو أن يتحدّث به ، وكان ابن نباتة مغرما بالكلام على الموت والمعاد ، وكذلك وجّه الرسول اهتمامه فى المنام إلى سؤاله عن مصير أهل القبور . وملحقات الرؤيا تعطينا صورة من عقلية الواعظين ، ولا تزال تلك الصورة موجودة الى اليوم ، فاجتذاب الرسول لوجه الخطيب وتقبيله إياه ثم تفله فى فمه ، وبقاء الخطيب بعد هذا المنام ثلاثة أيام لا يطعم طعاما ولا يشتهيه مع غلبة ريح المسك على فيه وموته بعد ذلك المنام بقليل : كل هذا من الصور العقلية التى تردّد كل يوم بين طبقات الواعظين من الخطباء .

ويظهر أن صيت ابن نباتة وسمعته دفعت مَن بعده الى تلمس أخباره عن طريق المنام ، فقد قال ابن خلكان : رأيت فى بعض المجاميع ، قال الوزير أبو القاسم بن المغربى : رأيت

٥ — ولكن ما هى قيمة ابن نباتة الذى حدّثنا صاحب المثل السائر[1] أن خطبه كانت منشورة بين أيدى النـاس يغرمون بها و يكبون عليها ، وأنهـا كانت فى أنفسهـم تسـاوى مقامات الحريرى ؟

من الوجهة الفنية يعدّ ابن نباتة من أعرف الناس بصياغة الكلام ، وهو يراعى فنون البديع مراعاة تامة، وسجعـه حسن مقبول . وربمـا كان السجع أقرب فنون البديع الى لغة الخطباء، فهو أسرع تأثيرا فى الجماهير التى لا تفطن إلا إلى الظواهر البراقة من حليـة البلاغة والبيان . وربمـا كان فى اختيار الواعظين للسـجع اتصال للتقاليد القديمة التى عرفت عن الكهان، والكهان هؤلاء كانوا رجالا يؤدون فى البيئات الجاهلية مهمات عند [illegible] الواعظون فى البيئات الاسلامية، والجمهور واحد أمام الفريقين : فهو دائم [illegible] يجد فيما تحتوى السـجعات من الألحان والأنغام والأوزان مثيرا لمـا [illegible] الانسانية الكامنة التى يهيجها النغم والإيقاع .

٦ — وابن نباتة يجمع بين السجع والموازنة، وذلك ممـا [illegible] فى الصناعة اللفظية، ولنضرب المثل بقوله :

„ حتى إذا استحكمت فيهم طاغية التخليد، واستولت [illegible]

وهو فى هذه الكلمة قابل بين „طاغية" و„رفاهية" و بين [illegible]

„ ولكن صال عليهم القضاء فأطرقوا، وطال بهم العفاء فأ[illegible] القبـور .

فقد قابل بين „ صال " و„ طال " و بين „ القضاء " و„ العفاء " و„ أخلقوا " .

وكذلك قوله : „ فيسلم عباد الله الى محاسبة النفو[س] [illegible] الرموس ، ومعاينة اليوم العبـوس، يوم غض الر[illegible]

والموازنة فى هذه الفقرات ظاهرة لا تحتا[ج] [illegible]

(١) ص ١١٨ (٢) ص ٦٠ من ديوان الخطب النب[illegible]

وجهى وقبله وتفل

لواجبات الخطيب : ورؤيا

فالرسول حين تراءى له فى نومه

بالكلام على الموت والمعاد،

ومحلقات الرؤيا

اليوم ، فاجتـذاب

بعد هذا المنام ثلاثة أيام

وموته بعد ذلك المنام بقليـل : كل

الواعظين من الخطباء .

بعدد الى تلمس أخباره عن طريق المنام،

الوزير أبو القاسم بن المغربى : رأيت

" خواضا بلجج الرمضاء " فيه أيضا خيال جميل ، وان كنت لا أستجيد إضافة اللجج الى الرمضاء، لأن أيام الحج لا تكون دائما فى القيظ الشديد .

وقد يسمو به التخيل الى بعض الصور الطريفة كقوله فى بعض خطب الجهاد .

" قد دخلت علينا الفتنة من كل باب ، وأطمعتنا الدنيا إطماع السراب ، تتهارش على حطامها تهارش الكلاب ، ونلبس فيها جلود الضأن على قلوب الذئاب، ننظر الى المعروف نظر الخزر الغضاب، ونسكن الى المنكر سكون البانى بالخود الكعاب، وقد أظلنا من العدو سحاب ممتدة الأطناب، ودبت فى ديارنا منه عقارب الخراب "(١)

وقوله فى خطبة أخرى : "ان للجنة بابا حدوده تطهير الا... وساحته زحف الرجال إلى الرجال، وطريقه عمغمة الأبط... القتال، ومدخله من مشرعة الصوارم والنبال "(٢) .

٨ — أما من الوجهة العقلية فابن نباتة يقف دائما فى ج... ويعيد فى ذكر الموت والمعاد ، ويتكلم على فضائل المواس... ويبين فصل يوم عاشوراء، ثم يخطب فى فضل رجب، ... شعبان ليستقبل رمضان ، وهكذا دواليك من الشئو... الوجهة المعنوية خطب الجهاد ، ولكنها أيضا خط... الملتهب والرأى السديد . وهى دائما دون خطب على بن أبى ... ابن نباتة ويتأثرها فى جميع مواقفه الخطابية . ومن الصعب ... تستحق الخلود ، أو تدل على عمق فى الفكر أو سمو ف... " فقدموا مجاهدة القلوب، قبل مشاهدة ال...

وقوله : " واستشعروا السكينة اذا كشفت ... اللطام ضرابها ، وأمرّ الحمام شرابها ، و...

(١) ص ١٨٠ من ديوان الخطب النباتية

...مات عند قبر ... ن
الله عليه وسلم الذى ... يوم تجد
... و بينه أمدا بعيدا .
وجهى وقبله وتفل
لواجبات الخطيب ، ورؤيا
...ية فالرسول حين تراءى له فى نومه
...ربما بالكلام على الموت والمعاد،
القبور . وملحقات الرؤيا
... اليوم ، فاجتذاب
... بعد هذا المنام ثلاثة أيام
وموته بعد ذلك المنام بقليل : كل
... الواعظين من الخطباء .
... بعده الى تلمس أخباره عن طريق المنام،
الوزير أبو القاسم بن المغربى : رأيت

(١)

٥ – أبو محمد بن حزم

١ — كان الناس يعرفون عن ابن حزم أشياء قليلة من حياته الخاصة، ولم يعرف الجمهور أكثر من أنه كان أكبر علماء الأندلس فى عصره ومن أشهر أئمة الإسلام وأعرفهم بالمذاهب الفلسفية والدينية التى تأصلت جذورها عند علماء المسلمين. وكتابه "الفصل فى الملل والأهواء والنحل" كان ولا يزال من أهم المراجع لعلوم الفلسفة ومذاهب التوحيد

ويعد ابن حزم أفصح كاتب عرفته اللغة العربية فى الفقه

ولكن تبين أخيرا أنه كان لذلك الامام قلب خفـاق

واستهـدف على عظمته للقيل والقال . وأول ما عرف ذلك

طبع كتابه "طوق الحمامة" فى ليدن سنة ١٩١٤ بعناية الم

أحدث ذلك الكتاب رجة عنيفة جدا فى أوروبا وتناول فى

وكان موجب تلك الضجة أنه لم يثبت أن كتاب فضائل المواس

لا فى اللغات القديمة ولا فى اللغات الحديثة، لأن رجب

قليلة جدا فى الشؤون الوجدانية . فكان من الشؤ

فى ذلك العصر كاتب عربى يتناول حديث خط

هـو آية الآيات فى فهم أسرار الأهواء والثانى خطب على

إماما من أئمـة الدين، ومثالا يحتذى فى أدب . ومن الصعب

---

(١) كان ابن حزم خليقا بأن يكتب فى ترجمة حب

أن تكون أدبية، ولولا كتابه فى الحب لما عرضنا لترجمه

فى قرطبة . وتوفى سنة ٤٥٦ ومن جيد شعره :

وإن مكانا ضاق عنى لضيق

وإن رجالا ضيعونى لضيع

مات عند قوم

الله عليه وسلم الذى لم تجد

وبينه أمدا بعيدا .

وجهى وقبله وتفل

لواجبات الخطيب، ورؤيا

فالرسول حين تراءى له فى نومه

بالكلام على الموت والمعاد،

القبور . وملحقات الرؤيا

اليوم ، فاجتذاب

بعد هذا المنام ثلاثة أيام

وموته بعد ذلك المنام بقليل : كل

الواعظين من الخطباء .

بعده الى تلمس أخباره عن طريق المنام،

الوزير أبو القاسم بن المغربى : رأيت

واستطاع بحزمه وقوة نفسه أن ينظم الأمور و يضبط الأعمال "و بسط عدله وأقام هيبته فى صدور الجند والرعية حتى كان يكفيه رفع الطرف الى أحدهم على طريق الإنكار فترتعد الفرائص وتضطرب الأعضاء، وتسترخى المفاصل" كما عبر ابن مسكويه، وهو عندنا صادق فيما وصف به ابن العميد .

٦ — وكان ابن العميد من الوزراء الممدَّحين، فقصده الشعراء من كل صوب، وساقوا اليه جياد المدائح، وللمتنبى فيه قصيدة رائية يحفظها أكثر الناس .

ولنشر هنا إلى أن ابن نباتة السعدى ورد عليه وهو بالرى وآمتدحه بقصيدته التى أ

برحُ آشتياق وادكار ولهيب أنفاس ...
ومدامع عبراتها ترفض عن ...
لله قلبى ما يجن من ...
لقد آنقضى سكر الشبا ب وما ...
وكبرت عن وصل الصغا ر وما ...
سقيا لتغليسى إلى باب ...
أيام أخطر فى الصبا ...
تيجى الى حجر الصرا ...
ومواطن اللذات أوطا ...
لم يبق لى عيش يلذ ...
أحيا بألحان قيـ ...
واذا استهل ابن العميد ...
خرقٌ صفت أخلاقه ...
فكأنما زفت مرا ...

الله عليه وسلم الذة يوم تجد
وبينه أمدا بعيدا .
وجهى وقبله وتفل
لواجبات الخطيب، ورؤيا
ية، فالرسول حين تراءى له فى نومه
ربما بالكلام على الموت والمعاد،
القبور . وملحقات الرؤيا
اليوم ، فاجتذاب
بعد هذا المنام ثلاثة أيام
وته بعد ذلك المنام بقليل : كل
ظين من الخطباء .
الى تلمس أخباره عن طريق المنام،
زير أبو القاسم بن المغربى : رأيت

(١) راجع ابن خلكان ج ٢ ص ٤٦٤ — ٤٦٦

الصبر، هذا وما استقدمتك بكتاب، ولا استدعيتك برسول، ولا سألتك مدحى ولا كلفتك تقريظى !

فقال ابن نباته : صدقت أيها الرئيس ! ما استقدمتنى بكتاب، ولا استدعيتنى برسول، ولا سألتنى مدحك، ولا كلفتنى تقريظك، ولكن جلست فى صدر ديوانك بأبهتك ، وقلت لا يخاطبنى أحد الا بالرياسة، ولا ينازعنى خلق فى أحكام السياسة، فأنى كاتب ركن الدولة، وزعيم الأولياء والحضرة، والقيّم بمصالح المملكة ، فكأنك دعوتنى بلسان الحال ، ولم تدعنى بلسان المقال !

فثار ابن العميد مغضبا وأسرع فى صحن داره الى أن دخل حجرته، وتقوض المجلس وماج الناس، وسمع ابن نباته وهو فى صحن الدار ماراً يقول : و... عليه وسلم الذى يوم تجد على الجمر أهون من هذا! فلعن الله الأدب اذا كان بائعه مهينا ... و بينه أمدا بعيدا .

فلما سكن غيظ ابن العميد وثاب إليه حلمه التمسه من ... وجهتى وقبله وتفل ما كان منه : فكأنما غاص فى سمع الأرض و بصرها، ... فى ... الى أن مات .

... لواجبات الخطيب، ورؤيا

وقد نقلنا هذا الخبر على طوله لأهمية خاصة ... فالرسول حين تراءى له فى نومه وهو ابن خلكان عاد فحدثنا انه وجد هذه ال... ربما بالكلام على الموت والمعاد، ابن نباته، وانه كشف ديوان ابن نباته فلم ير فيه ... القبور . وملحقات الرؤيا الوزيرين) للتوحيدى منسوبة لأبى محمد عبد الر... اليوم ، فاجتذاب لشاعر من أهل الكرخ . ... بعد هذا المنام ثلاثة أيام

ونحن نأسف من الأسف على أن لم نتمكن من الاطلاع بعد ذلك المنام بقليل : كل ونخشى أن يكون ضاع أبد الآبدين، مع أنه كان من ... من الخطباء .

ولو أتيح لنا الاطلاع على هذا الكتاب لاستطعنا تخطئة ... تلمس أخباره عن طريق المنام، بأن هذا المجلس الذى نقلناه آنفا من صنع التوحيدى ، ... أبو ... المغزبى : رأيت

الأستاذ الرئيس ولا يرضاه لسيرته ، وكان يعظه وينهاه عن هذه السيرة، ويعلمه أن ذلك لو كان مما يترخص فيه لكان هو بنفسه قد سبق اليه ".

قال ابن مسكويه : « ولقد سمعته فى كثير من خلواته يشرح له صورة الديلم فى الحسد والجشع، وأنه ما ملكهم أحد قط إلا بترك الزينة وبذل ما لا يبطرهم ولا يخرجهم الى التحاسد، ولا يتكبر عليهم، ولا يكون إلا فى مرتبة أوسطهم حالا، وان من دعاهم واحتشد لهم وحمل على حالة فوق طاقته لم يمنعهم ذلك من حسده على نعمته والسعى على إزالتها وترقب أوقات الغرة فى آمن ما يكون الانسان على نفسه منهم فيفتكون به فى ذلك الوقت[1]».

ولكن تلك العظات لم تغن شيئا فى تقويم ذلك الفتى، فكان ابوه يأخذه معه فى أ…
حتى لا تكون سيرته سببا فى تغير ركن الدولة على وزيره. واتفق أن… عليه… يوم تجد
سفراته واستصحب معه ابنه أبا الفتح، فلما كان فى بعض الطريق… و بينه أمدا بعيدا .
ولا يستقل على ظهور الدواب لإفراط علة النقرس وغيرها عليه… وجهى وقبله وتفل
أحدا، وسأل عن الخبر فلم يجد حاجبا يخبره ولا من جرت…
فسأله فأخبره أن الجند بأسرهم مالوا مع أبى الفتح الى الص… لواجبات الخطيب، ورؤيا
من ذلك وساءه أن يجرى مثل هـذا ولا يستأذن فيه… فالرسول حين تراءى له فى نومه
حرب، ولم يأمن أن يستمر هذا التشتت من المعسكر… بالكلام على الموت والمعاد،
بأن يحجب عنه ابنه أبا الفتح، وأن يوصى النقباء بمنع… القبور . وملحقات الرؤيا
هذا المبلغ من الانكار سيغض منه وينهى العسكر من اتب… على بن أبى… اليوم ، فاجتذاب
وعاد الفتى الى عادته واتبعه العسكر ومالوا معه الى اللعب… الصعب… بعد هذا المنام ثلاثة أيام
لا يخليهم من الخلع والالطاف، فشق ذلك على الأستاذ الرئيس… ذلك المنام بقليل : كل
نفسه بإظهار ما فى قلبه ، ولا أن يبالغ فى الانكار وهو فى… ابن الخطباء .
ويطمع فيه عدوه، فدارى أمره، وتجرع غيظه، وأداه…
… تلمس أخبارهم عن طريق المنام،
… بى : رأيته

(١) تجارب الأمم ج ٢ ص ٢٧٢

بهمذان وهو يقول فى مجلس خلواته : ما يهلك آل العميد ولا يمحو آثارهم من الأرض إلا هذا الصبي (يعنى ابنه) ويقول فى مرضه : ما قتلنى إلا جرع الغيظ التى تجرعتها منه[1] " .

وكانت وفاته رحمه الله بالرى سنة ٣٥٩ بعد أن عانى ما عانى من القولنج والنقرس يعاودانه صباح مساء . ويقال إنه رأى اكارا فى بستان يأكل خبزا ببصل ولبن وقد أمعن فيه فقال : وددت لو كنت كهذا الاكار آكل ما أشتهى ! وكذلك كانت العافية أنفع وأجمل من الملك والجاه والمال . وهل تبسم الدنيا لانسان عليل ؟

(١) تجارب الأمم ج ٢ ص٢٧٣

٢ – نثر ابن العميد

١ — كان رجال القرن الرابع يقولون : "بدئت الكتابة بعبد الحميد، وختمت بابن العميد"[1] وهى مبالغة تذكر بما قيل فى ذلك العهد : "بدئ الشعر بملك، وختم بملك" يريدون أنه بدئ بامرئ القيس وختم بأبى فراس . وهذه وتلك من المبالغات التى تجرى على ألسنة المترلفين من الحواشى والأتباع ، فقد كان لابن العميد أشياع يقولون بإمامته فى النثر كما كان لأبى فراس أشياع يقولون بإمامته فى الشعر . وكلتا الكلمتين على ما فيهما من مبالغة ظا[illegible] ترجعان الى أصل من الحق أصيل : فقد كان ابن العميد وأبو فراس [illegible] تجد منهما روح قوى قهار يعز على من رامه ويطول .

والقارئ يعرف أننا ننكر أن تكون الكتابة بدئت بعبد الحميد، [illegible] كان إماما لأهل عصره ، وأنه أدخل فى الكتابة أساليب [illegible] الأولون ، وكذلك كان ابن العميد إماما لكتاب القرن ال[illegible] الكتابة ما أدخله عبد الحميد، ولكنه يمتاز بميزة عجيبة : [illegible] الدرجات : فإننا حين نقرأ نثره نجد أنفسنا أمام عظ[illegible] حين يكتب لا يطالعك بفنه، كما كان يفعل معاصروه، و[illegible] بحيث تبدو كل كلمة من كلماته وكأنها قلب يخفق أو ر[illegible] العميد زخرفا براقا يلهو به ولا ثروة لغوية يكاثر بها الكتاب، ولكن [illegible] أو وجدانية يرمى بها كما يرمى البركان بأقباس الهلاك ، وقد يرق فتحسب[illegible] فى هدأة الليل، وهو فى رقته وجزالته ، وغضبه وحنانه، عبقرى لا [illegible] المعاد، وإنما يجد بابداع الرأى الصائب والقول الرصين .

---

(١) يتيمة الدهر ج ٣ ص ٣

٢ — لم تصل الينا مجموعة الرسائل التى حفظت عن ابن العميد ، ولكن بقيت منها شواهد تعطى عن نثره فكرة قريبـة من الصواب . ونثره باعتبار موضوعاته يرجع الى فنين : الأول رسائله الرسمية التى كتبها بصفته وزيرا لركن الدولة ، والثانى رسائله الشخصية التى عبر فيها عن ذات نفسـه وهو يراسل أصدقاءه وأحبابه . ولكل من الفنين فى نثره لون خاص .
ولنسارع فنقرر أن الرسائل التى كتبها على لسان ركن الدولة ليست كالرسائل التى كتبها الصابى مثلا على لسان بعض الخلفاء والوزراء . لا ، فان ابن العميد حين يتكلم عن مليكه يتكلم بقوة وحرّية ، ويعبر عن إرادته الذاتية أكثر ممـا يعبر عمن يكتب باسمه . ويرجع ذلك الى أن ابن العميد كان كل شىء فى الملك الذى يسيطر عليـه باسم ركن الدولة ، وكان الى جانب [illegible] مخلصا إخلاصا قويا يحوّل مشاكل الحكم عنـد أمثاله من الوزراء الى معضلات شخصية
وهو [illegible] الوزير قبل أن يحس بها صاحب التاج . ولننظر كيف يخاطب بعض الخوارج
ولا يقف [illegible] أيرمى عن غضب أم يصدر عن عقل :
اليه فيقرظها فى [illegible]
[illegible] طمع فيك ، ويأس منك ، وإقبال عليك ، وإعراض عنك ، فإنك
الأصـدقاء [illegible]
[illegible] خدمة ، أيسرهما يوجب رعاية ، ويقتضى محافظة وعناية ،
” وصل كتابك الذى [illegible]
[illegible] بانة ، وتتبعهما بأنف خلاف ومعصية . وأدنى ذلك يحبـط
فارتحت لكل ما أوليت ، و[illegible] ، ولا جرم أنى وقفت بين ميل إليك ، وميل عليـك ، أقدم
نظائره التى وكلت بهـا ذ[illegible] طويلة [illegible] لصدك ، وأبسط يدا لاصطلامك واجتياحك ، وأثنى ثانية
وبهرنى [illegible] وقد [illegible] ب العقل ثم يؤوب ، ويعزب اللب ثم يثوب ، ويذهب
وحلل وحلى أن كلمة [illegible] كان [illegible] يصلح ، ويضاع الرأى ثم يستدرك ، ويسكر المرء ثم يصحو ،
والع[illegible] الأ[illegible] فو “ .

[illegible] مة يرى القارئ كيف يتلطف ابن العميد فيستدرج ذلك العاصى ويقفه
” ولو [illegible] يت [illegible]
[illegible] يومه وأمسه ، وحاضره وماضيه ، ثم يعرض عليـه وجوه حاليه فى الطاعة
[illegible] كت ، فقديما [illegible]
والعص[illegible] :

" وزعمت أنك فى طرف من الطاعة بعد أن كنت متوسطها ، وإذا كنت كذلك فقد عرفت حاليها ، وحلبت شطريها ، فنشدتك الله إلا ما صدقتنى عما سألتك : كيف وجدت ما زُلت عنه ، وكيف تجد ما صرت إليه؟ ألم تكن من الأول فى ظل ظليل، ونسيم عليل، وريح بليل ، وغذاء غذىّ ، وماء روىّ ، ومهاد وطىّ ، وكنّ كنين ، ومكان مكين ، وحصن حصين ، عززت به بعد الذلة ، وكثرت به بعد القلة ، وارتفعت بعد الضعة ، وأيسرت بعد المعسرة ، وأثريت بعد المتربة ؟ ففيم أنت الآن من الأمر؟ وما العوض عما عددت ، والخلف مما وصفت ، وما استفدت حين أخرجت من الطاعة نفسك ، ونفضت منها كفك ، وغمست فى خلافها يدك؟ وما الذى أظلك بعد انحسار ظلها عنك؟ أظلٌّ ذو ثلاث شعب ، لا ظليل ولا يغنى من اللهب ؟ قل نعم كذلك ! ".

وابن العميد يعرف قوة نفسه ، وبأس قلمه ، ولذلك يقول وقد بلغ هذه [illegible] الخطاب : "تأمل حالك وقد بلغت هذا الفصل من كتابى فستنكرها [illegible] هل يحس ؟ وأجسس عرقك هل ينبض؟ وفتش ما حنا عليك [illegible] وهل حلى بصدرك أن تظفر بفوت سريح ، أو موت مريح ؟ "(1)

٣ — وهذا النمط من الكتابة القوية يمثل قدر البلاغة [illegible] فهم يرون رسائل التهديد والوعيد طلائع من الأقلام تتقدم [illegible] متابعة موفقة لذلك العرف الذى سنّه كتّاب الدولة الأموية [illegible] أسلوب فى الدعاية كان يجرى عن طريق الرسائل كما تجرى على [illegible] السياسية . والدنيا هى الدنيا والناس هم الناس ، وإن [illegible] وفقا لتغير وسائل النشر والتبليغ .

٤ — أما رسائله الشخصية فهى فن من الشعر الوجدانى البليغ ، [illegible] فى موضوعات شعرية ما كان يصلح لها غير القصيد ، وأظهر ما كتب فيه [illegible]

(1) راجع بقية الرسالة فى اليتيمة ج ٣ ص ١٢

الوجدانيات : هو العتاب . ولكن أى عتاب ! ان الرجل يتحدث اليوم عن مشاعرنا وعواطفنا
وبيننا وبينه عشرة قرون . لقد كان هـذا الرجل يفهم الصداقة فهما دقيقا جدا ، والظاهر
أنها كانت تتحول فى قلبه الى عشق ، لأنه فى عتابه يتنفس عن قلب العاشق أضعاف ما يتنفس
عن روح الصـديق . وهو فى عتابه مختلف الأشجان والنوازع : فله أوقات يثور فيها ثورة
جارفة فيرمى بإخاء من يعاتب فى جحيم النسيان ، كقوله وقد مزج بين العتب والهجاء :

"وقد ندمت ... ولكن أى ساعة مندم ! بعد إفناء الزمان فى ابتدائك ، وتصفحى حالات
الدهر فى اختيارك ، وبعـد تضييع ما غرسـته ، ونقض ما أسسته ، فان الوداد غرس اذا
امتنبت[?] ادف ثرى ثريا ، وجوا غديا ، وماء رويا ، لم يرج زكاؤه ، ولم يجر ماؤه ، ولم تتفتح أزهاره
وهو[illegible] ، وليت شعرى كيف ملك الضلال قيادى حتى أشكل علىّ ما يحتاج اليه المزوجان
ولا يقف [illegible] ، وهى ممازجة طبع ، وموافقة شكل وخلق ، ومطابقة خيم وخلق ،
اليه فيقرظها فى ختان[?] ائتـلاف ، وحمتنا من اختلاف ، ونحن فى طرفى ضـدين ، وبين
الأصـدقاء [illegible] تأملت الأمر وجدت ما بيننا من البعاد ، أكثر مما بين الوهاد
"وصل كتابك الذى [illegible] والسواد ، وأيسر ما بيننا من النفار ، وأقل ما بيننا من التضاد ،[1]
فارتحت لكل ما أوليت ، [illegible] الإعلان والإسرار " .

نظائره التى وكلت بها ذ[illegible] طويلة يعاتب بها أبا عبد الله الطبرى ، ولا يتوهمن القارئ أن
وبهرنى التـ[illegible] وقلب [illegible] ابن العميد خلص قلبه من علاقات ذلك الصـديق :
وحلل وحلى أن كلمتى [illegible] كان أمثال هـذه الثورات : فان المرء لا يغضب مثل هـذا
والعتب الأحين يهاجم من لا يستطيع الخلاص من أسر وداده ، ودليل ذلك أننا نراه
يعسها معاتبة المغلوب فيقول :

"ولو بقيت من الصـبر بقية لسلوت ، ولو وجدت فى أثناء وجدى مخرجا يتخلله تجـلد
لأمسكت ، فقديما لبست الصديق على علاته ، وصفحت له عن هناته ، ولكنى مغلوب على العزاء

(١) زهر الآداب ج ٣ ص ٢٣٨

مأخوذ على عاداتى فى الاغضاء، فقد سلّ من جفائك ما ترك احتمالى جفاء، وذهب فى نفسى من ظلمك ما أنزف حلمى بجعله هباء، وتولى علىّ قبح فعلك فى هجر يستمر على نسق، وصد مطرد متسق، ما لو فض على الورى وأفيض على البشر لامتلأت صدورهم ... الخ[1] ".

وكان ابن العميد فيما يظهر موصول القلب بأبى عبد الله الطبرى هذا، وقد غالب نفسه فى وداده أعنف مغالبة، واستطاع أخيرا أن يتوهم أنه تعزى عنه فكتب اليه فى جواب خطاب:

" وصل كتابك فصادفنى قريب العهد بانطلاق، من عنت الفراق، ووافقنى مستريح الأعضاء والجوانح من جوى الاشتياق : فإن الدهر جرى على حكمه المألوف فى تحويل الأحوال، ومضى على رسمه المعروف فى تبديل الأشكال، وأعتقنى من مخالّتك عتقا لا تـ[...] توم تجد به ولاء ، وأبرأنى من عهدتك براءة لا تستوجب دركا ولا استثناء؛ ونزع من[...] مبدأ بعيدا . الذل فى إخائك، بيدى جفائك، ورش على ما كان يضطرم فى ضميرى [...] وشن على ما كان يلتهب فى صدرى من الوجد ماء اليأس ، ومسح [...] وجهى وقبله وتفل بجميل الصبر، وشعب أفلاذ كبدى فلاحم صدوعها بحسن العزاء [...] نعوض عن النزاع اليك نزوعا عنك ، ومن الذهاب فيك رجو[...] اجيات الخطيب، ورؤيا ضبابات ما ألقاه الهوى على بصرى ، ورفع عنى غيابات ما س[...] الرسول حين تراءى له فى نومه حدر النقاب عن صفحات شيمك، وسفر عن وجوه خليقتك [...] الكلام على الموت والمعاد، إلا مستنكرا ، فوليت منها فرارا وملئت رعبا . فأذهب[...] القبور . وملحقات الرؤيا ورددت إليك ذمم عهدك[2] !» . [...] اليوم ، فاجتذاب [...] المنام ثلاثة أيام.

أليست هذه قصيدة رثاء يسكب دمعها على جدث الود المفقود ؟ [...] بقليل : كل العميد اقتبس أكثر معانيه فى هذه الرسالة من روائع الشعر القديم ، ولكن ليـ[...] اتصلت هذه المعانى بنفسه أشد اتصال، وكيف جرت على أسلة قلمه وكأنها [...] ـيض الفطرة وجود الطبع، حتى ليخفى ما طرزت به حواشيها من آثار الاقتباس .

---

(١) زهر الآداب ج ٣ ص ٢٣٥ (٢) زهر الآداب ج ٣ ص ٢٣٤

٥ — ولكن ابن العميد لايستطيع فى كل مرة أن يلق حبل من يود على غاربه ويرد إليه ذمم عهده، فليس القلب فى كل لحظة بمطواع حتى يزهد فى كل نافر صدوف ، وكذلك نجد ابن العميد على قوة نفسه وسعة ماله ورفعة جاهه يقف وقفة الخاشع الذليل فيعاتب بعض إخوانه بمثل هذا الكلام :

"ما هذا التغالى بنفسك ، والتعالى على صديقك؟ ولم نبذتنى نبذ النواة ، وطرحتنى طرح القَذاة ، ولم تلفظنى من فيك ، وتمجنى من حلقك ، وأنا الحلال الحلو والبارد العذب ، وكيف لا تخطرنى ببالك خطرة ، وتصيرنى من أشغالك مرة : فترسل سلاما إن لم تُجشم مكاتبة ، متباركرنى فيمن تذكر إن لم تكن مخاطبة . وأحسب كتابى سيرد عليك فتنكره حتى تتثبت ، وهو [illegible] بين اسم كاتبه وتصور شخصه حتى تتذكر ، فقد صرت عندك ممن محا النسيان صورته [illegible] اسمه من صحيفة حفظك . ولعلك أيضا تتعجب من طمعى فيك وقد توليت ، ولا يقف [illegible] ت ، ولا عجب فقد يتفجر الصخر بالماء الزلال ، ويلين من هو أقسى إليه فيقرظها فى حنان [illegible] ال . وآخر ما أقوله أن ودى وقف عليك ، وحبس فى سبيلك ، ومتى الأصدقاء [illegible] زيا ، فجربه فى المعاودة فإنه فى العود أحمد"[1] .

"وصل كتابك الذى [illegible]

فارتحت لكل ما أوليت ، وأتصدر أمثال هذه المكاتبات الرقيقة عن وزير؟ ونجيبه بأننا نرجح نظائره التى وكلت بها ذ [illegible] كل الغضة فى صباه . على أننا لا نستكثر أن تصدر عنه وهو وزير ، ويهزنى الت [illegible] وقلب وجدانية تلق على حياتهم ظلالا من الرفق والحنان ، خصوصا وحلل وحلى [illegible] أن كلمة "وزير" كان يلحظ فيها دائما معنى "كاتب" وكان الإبداع فى الكتابة وال[illegible] الأساسية فى الوصول إلى مناصب الوزراء .

[illegible] — ومما يؤيد ما ذهبنا إليه أن ابن العميد كتب إلى عبد الله الطبرى كتاب نصح يدل على معرفة وبصر بالشؤون السياسية ، كتبه حتما بعد أن اتصل بالملوك والرؤساء . والطبرى

(١) زهر الآداب ج ٢ ص ٢٤٥

هـذا هو صديقه الذى حدثناك آنفا عن معاتبته إياه فى نفحات وجدانية تنم عن ود رقيق ، وفى هذا ما يشعر بأنه ما كان يتورع وهو فى أوج مجده عن بث نوازع القلب والوجدان .

وإنه ليشرح لصديقه ما يجب أن يتحلى به فى الحياة الرسمية فيقول بعد تمهيد :

"واركب فى الخدمة طريقة تبعدك من الملال ، وتوسطك فى الحضور بين الإكثار والإقلال، ولا تسترسل إلى حسن القبول كل الاسترسال، فلأن تدعى من بعيد خير من أن تُقصى من قريب . وليكن كلامك جوابا تحترز فيه من الخطل والإسهاب، ... ولا يستفزك طرب الكلام على ما يفسد تمييزك . والشفاعة لا تعرض لها فإنها مخلقة للجاه، فإن اضطررت إليها فلا تهجم عليها حتى تعرف موقعها ، وتحصل وزنها، وتطالع موضعها ، فإن وجدت النفس بالإجابة سمحة ، و إلى الإسعاف هشة، فأظهر ما فى نفسك غير محقق، ولا تُلزم تجد عليك فى الرد ما يوحشك ، ولا فى المنع ما يغيظك ، وليكن انطلاق وجهك إذا بعيداً . حاجتك أكثر منه عند نجاحها على يدك ، ليخف كلامك ولا يثقل على وجهى وقبله وتفل

وهـذا الصديق الذى يوصيه ابن العميد بالرفق فى مصاحبة الأم
الذى وصفه بالبعد عن الأواصر الغريزية التى توجب المودة : من جيات الخطيب ، ورؤيا
الشكل ، ومطابقة الخلق . وتلك كما قلنا علالة يوهم بها ابن العميد رسول حين تراءى له فى نومه
الصديق، وإلا فقد رأيناه فى كلمة ثانية يذكر أنه صنو نفسه فيقو لكلام على الموت والمعاد،

" لكن ما بقى أن يصفو لى عيش مع بعدى عنك، ويخلو ذرعى قبور . وملحقات الرؤيا
لى مطعم أو مشرب مع انفرادى دونك، وكيف أطمع فى ذلك وأنت جزء من نفسى اجتذاب
لشمل أنسى، وقد عدمت رؤيتك ، وحرمت مشاهدتك . وهل تسكن نفس أم ثلاثة أيام
انقسام، وينفع أنس ميت بلا نظام؟ "(٢) . بقليل : كل

٧ — ومما امتاز به ابن العميد إجادة الرسائل الاخوانية، وهو فن برع فيه كتاب القرن الرابع وصيروه سنة يجرى عليها الأصفياء والألاف . وقد تأملت فرأيت معانى ابن العميد صارت

(١) زهر الآداب ج ٤ ص ١٢٠ (٢) ص ١٨٠ ج ٤

وردا سائغا لمعاصريه كالميكالى والببغا وبديع الزمان . وليس غريبا أن يصير قدوة فى هذا الباب: فقد كان له بين ضلوعه قلب وفى أمين، وكان يتحدث فى الصداقات والمودات عن ود صادق ووفاء صريح . وقد كنا نعجب لخيال ابن زيدون إذ يقول :

يُدنى مزارك حين شط به النوى وهمٌ أكاد به أقبل فاكِ

حتى رأيناه ممثلا أوضح تمثيل فى قول ابن العميد :

" قد قرب — أيدك الله — محلك على تراخيه، وتصاقب مستقرك على تنائيه، لأن الشوق يمثلك، والذكر يخيلك، فنحن فى الظاهر على افتراق، وفى الباطن على تلاق، وفى التسمية متباينون، وفى المعنى متواصلون . ولئن تفارقت الأشباح، لقد تعانقت الأرواح[1] " .

وهو معنى جيد انتهبه الببغا فى إحدى رسائله الاخوانية[2] .

ولا يقف ابن العميد فى ملاطفة إخوانه عند هذا الحد، بل يتأنق فى وصف كتبهم اليه فيقرظها فى حنان هو أشبه بالنسيب، كقوله فى وصف خطاب وصل اليه من أحد الأصدقاء :

" وصل كتابك الذى وصلت جناحه بفنون صلاتك وتفقدك، وضروب برك وتعهدك، فارتحت لكل ما أوليت، وابتهجت بجميع ما أهديت، وأضمت إحسانك فى كل فصل الى نظائره التى وكلت بها ذكرى، ووقفت عليها شكرى . وتأملت النظم فملكنى العجب به، وبهرنى التعجب منه . وقد رمت أن أجرى على العادة: فى تشبيهه بمستحسن من زهر جنى، وحلل وحلى، وشذور الفرائد، فى نحور الخرائد :

والعذارى غدون فى الحلل البيض وقد رحن فى الخطوط السودِ

فلم أره لشىء عدلا، ولا أرضى ماعددته له مثلا، والله يزيدك من فضله، ولا يخليك من إحسانه، ويلهمك من بر إخوانك ما تم به صنيعك لديهم، ويرب معه إحسانك إليهم[3] "

(١) زهر الآداب ج ٣ ص ١٨٧ (٢) أنظر صبح الأعشى ح ٩ ص ١٤٤ (٣) ص ١١٢ ج ١

وقد يُغلَب على أمره فيختم خطابه بكلمة نعرف منها صراحه أن إعجابه بالمكتوب صورة لإعزازه للكاتب، كقوله فى خاتمة خطاب :

" وقد قرأت كتابك — جعلنى الله فداءك — فامتلأت سرورا بملاحظة خطك، وتأمل تصرفك فى لفظك، وما أقرظهما فكل خصالك مقرظ عندى، وما أمدحهما فكل أمرك ممدوح فى ضميرى وعقدى ؛ وأرجو أن تكون حقيقة أمرك موافقة لتقديرى فيك، فإن كان كذلك وإلا فقد غطى هواك وما ألقى على بصرى [1] " .

هذا ولابن العميد رسائل فى الحب تضارع فى روعتها قصائد التشبيب وتتصل برسائله الإخوانية أوثق اتصال، وله فى التهانى رسائل تغلب عليها الصنعة؛ ولكنها كأكثر نثره قوية محكمة تدل على صاحبها وتذكر بأدبه البارع واطلاعه على ما أنشأ الأقدمون من أفانين البيان، وما نحسب معاصريه أسرفوا فى مجاملته حين لقبوه بالأستاذ الرئيس .

(١) زهر الآداب ص ١٨٠ ج ٤

٣ – أبو حفص ابن برد

١ – أبو حفص أحمد بن برد الأكبر كاتب أندلسى من أقطاب النثر الفنى فى القرن الرابع، توفى بسرقسطة سنة ٤١٨ كما فى الذخيرة[١] وإرشاد الأريب[٢]، لا سنة ٤٢٨ كما وقع خطأ فى كتاب الدكتور أحمد ضيف عن بلاغة العرب فى الأندلس . وقد عاش ابن برد نحو ثمانين سنة، ولكن أخباره ضاعت فلم يعرف منها إلا القليل ، مع أنه كان من أشهر الوزراء فى الأيام العامرية .

٢ – ولم نجد على كثرة البحث مايعيِّن مذاهب ابن برد الأدبية . وقد اكتفى أكثر من عرضوا لترجمته بالعبارات الفضفاضة التى لا تحدّد شيئا : فذكر ياقوت أنه كان "كاتبا بليغا"[٣] وذكر ابن بسام أنه كان فى زمانه "واسطة السلك، وقطب رحى الملك" وأنه "برز على نظرائه وأشكاله" وأنه "كتب عن عدّة من الأمراء فأسمع الصم بيانا، واستنزل العُصْم إبداعا وإحسانا"[٤] وذكر صاحب المطمح أنه" غذى بالأدب، وعلا الى أسمى الرتب" وأنه" بديع الإحسان، بليغ القلم واللسان" وأنه" مايح الكتابة، فصيح الخطابة"[٥] وفخر حفيده ابن برد الأصغر بالانتساب اليه فقال :

من شاء خُبْرى فأنا ابن برد	حدّ حسامى قطعة من حدى
وأرفع الناس بناءً جدى	مَن نظم الألفاظ نظم العقد
ونقد الكلام حق النقد	وكف بالأقلام أيدى الأسد[٦]

وهذه كلها صفات تدل على عظمة ابن برد فى أنفس من قرأوا له، وكتبوا عنه، ولكنها لا تعيِّن منحاه فى مذاهب البيان .

(١) ج ١ ص ٤٩ (٢) ج ٢ ص ١٠٦ (٣) ج ٢ ص ١٠٦ (٤) ج ١ ص ٤٩
(٥) أنظر نفح الطيب ج ٢ ص ٣٦٧ (٦) الذخيرة ج ١ ص ٢٥٧

٣ — وعذر من ترجموا لأبن برد أن معظم رسائله كان ضاع ، حتى أن مواطنه بن بسام على قرب عهده به صرح بأنه لم يجد من رسائله إلا مالا يكاد يعرب عن فضائله ،[1] وربما كان ذلك هو السبب فيما وقع لبعض كتاب التراجم من الخلط بين آثار آبن برد الأكبر وآبن برد الأصغر . فإنا نجد صاحب المطمح ينسب رسالة السيف والقلم الى آبن برد الأكبر،[2] وينسبها ياقوت[3] الى آبن برد الأصغر — والأبيات الآتية :

لما بدا فى لازور دىّ الحـــريرِ وقد بهر
كبّرت من فـرط الجمـا ل وقلت ما هـــذا بشر
فأجابنى لا تنـكرنْ ثوب السماء على القمـــر

نسبها صاحب المطمح الى آبن برد الأكبر[4] ، ونسبها ياقوت[5] الى ابن برد الأصغر .

٤ — تولى آبن برد رياسة ديوان الإنشاء لمحمد بن عبـد الرحمن المستكفى ، وكتب كذلك لعدد من الأمراء ، فكان لتوليه رياسة ديوان الإنشاء أثر قوىّ فى حرصه على أدوات الكتابة ، وكانت تلك الأدوات ممـا شغل كتاب القرن الثـالث والرابع : فكتب فريق منهم كتبا خاصة فيما يجب أن يراعيه الكاتب ، كما فعل آبن المدبر حين ألف "الرسالة العذراء" وإنا لنجد آبن برد يكتب عن المظفر بن أبى عامر رقعة وجهها الى القواد والكتاب فيقول :

"ومن أعجب العجب ما يجترئ عليه بعض خدمتنا من نبذ عهودنا . ولا أحسب الذى غرهم بنا إلا ما وهب الله تعالى لنـا مع القدرة من الحلم والكظم ، وقد كانت سجية غالبـة ، وحليقة لازمة ، فرب شبع تحت مخيل السماء . وكم غصص فى شهىّ الغذاء ، ومن شرق فى نمير المـاء ... ونصب أعينكم عهد المنصور صـدره التوبيخ باستكتاب الجهلة ممن قلّت معرفته ، وآتضعت همتـه ، ولم يبلغ أن يحكم الخط فيتقوم حروفه ، ويراعى المداد فيجيد صنعته ، ويميز الرق فيحسن آختياره ، وعزه العـزم النـافذ ، والحكم الصادع ، بأن تكون صـدور كتب

---

(١) الذخيرة ح ١ ص ٤٩ (٢) راجع نفح الطيب ص ٣٦٧ ج ٢ (٣) ص ١٠٦ ج ٢
(٤) نفح الطيب ص ٣٦٨ ج ٢ (٥) ص ١٠٦ ج ٢

الاعتراضات وعنوانها وتواريخها والأعداد فى رؤوس غصونها بخطوط أيدى القوّاد والعمال ، من كان منهم كاتبا فليكتب بيده ، ومن لم يكتب فبخط كاتب معروف بالخط عنه ، وأن تكون تسمية طبقات الأجناد فيها قائمة الخطوط ، بينة الحروف ... على أنه إن ورد لأحد منهم بعد وصول العهد اليه كتاب اعتراض عمل فى رق ردىء ، أو خط فيه لحن ، أو كتاب على بشر فى عدد ، أو رسم مالم يخف أو يقع فى بشر الكتاب ... فيعاجل بعقوبة العزل" [1] .

ولم يكتف بذلك ، بل مضى يقول :

"وإن قوما منهم عادوا لما نُهوا عنه : فكتبوا الخط الرقيق فى دنىّ الرقوق ، رقة من هممهم ودناءة فى اختيارهم ، وجهلا بأن الخط جاه الكتاب ، وسلك الكلام : به ينتظم منثوره وتفصل شذوره ، ونبله من نبل صاحبه ، وهجنته لاحقة بكاتبه ، إلى ما آقترفوه من العصيان ، وأقدموا عليه من خلاف السلطان ، وأنا أعطى الله عهدا لئن ارتفع إلىّ بعد بلوغ عهدى هذا أقصى حدود المملكة وانتهائه أبعد أقطار الطاعة كتاب على الصفات المذمومة : من رق أومداد أو خط لأفينّ لصاحبه بما قدّم اليه من الوعيد" [2] .

وهذه الفقرات تمثل رأى الكاتب قبل أن تمثل رأى من كتبت باسمه ، وهى مظهر من عناية آبن برد بأدوات الكتابة وأدب الكتاب .

٥ — وقد حفظت عن ابن برد رسائل تصوّر ما كان من النزاع بين العرب والبربر فى الأندلس . ودراسة ما كان بين هذين العنصرين من الفتن والمنازعات باب من أهم أبواب التاريخ الأندلسى ، ولها كذلك نفع فى تحديد الاتجاهات الأدبية فى تلك البلاد . والبربر يسمون «العبيد» أحيانا فى لغة ابن برد ، ولا نستطيع أن نفترض غير ذلك : لأنا لا نعرف عصبة ناوأت العرب فى الأندلس غير عصبة البربر ، وقد كتب ابن برد على لسان سليمان بن الحكم عدّة رسائل الى من سماهم ابن بسام "جماعة العبيد" جاء فى إحداها :

---

(١) الذخيرة ج ١ ص ٤٩ (٢) ص ٥٠

" ولم تزل الأئمة مقبلة على مواليها مختصة لعبيدها تقدمهم فى الثقة، وتقربهم بالمودة، وتعدهم لحوادث الأمور، وتقذف بهم فى معضلات الخطوب، فيتولون من اجتهادهم لهم ما أوجب لهم منهم المحبة ، حتى شرف القوم ونبلوا ، وسما ذكرهم ، ونسبوا الى مشهور أنسابهم، ومذكور بيوتاتهم .. وقد أفضى الأمر اليكم معشر الموالى، وهذا اسمكم وقد رفع الله عنكم العبودية به، وأخرجكم عن رق الملك، وصيركم منا، وخلطكم بنا، وأفضى بأنسابكم الينا، والولاء لحمة، ومولى القوم منهم، ملعون من آنتمى لغير أبيه، أو ادعى غير مواليه، هذا حكم الاسلام، على لسانه عليه السلام . وأما حكم الدنيا وسيرة أهل السداد والصلاح فيها فلايجزئ أيضا، إلا أن يكون ضلعكم معنا، وميلكم إلينا وتعصبكم لنا، فنحن أحق الناس بكم، وأجدر أن نعمل عمل آبائنا فى أمثالكم من مواليهم ، فان نقستم حالا فرقت الشمل ، أو لقيتم أمرا صدع الجمع ، فتلك الفتنة التى يعق فيها الابن أباه، و يقتل لها المسلم أخاه... ولعلنا فيما ساءكم من تلك المنات ، ونالكم من الفجعات، أوجع قلوبا، وأشد غموما، فسبحان من لو شاء لأطلعكم على غيبنا وعرفكم إشفاقنا عليكم . وكيف لا يكون ذلك كذلك ، وما زلتم الشعار والدثار : لا نؤثر عليكم، ولا نثق إلا بكم، فان يكن الشيطان قد نزغ بما نزغ به بين آبنى آدم فمن بعدهما من ذريته فقد آن أن تثوب الحلوم : فتعود السيوف فى أغمادها ، والنبال فى كنائنها . ونحن نعاهد الله أن لا نؤاخذ أحدا بذنب، ولا نناله بعقوبة، ولا نطوى على إحنة، بل نعفو ونصفح "[1] .

ونجد فى رسالة أخرى حديثا عن كتاب وجهه زعماء البربر الى سليمان يصرحون فيه بأن خلافة الأمويين مادامت إلا بطبقتهم، ولا عزت إلا بدعوتهم، ونجد ابن برد يمن عليهم باسم سليمان فيذكر أن طبقتهم لم تظفر إلا حديثا، وأن عددهم لم يكثر إلا قريبا، وأنه أدخلهم فى الدين وآستنقذهم من الضلالة، وأخرجهم من الكفر، ثم اصطنعهم ونوه بهم بالتصرف فى الخدمة[2]، الى أن يقول :

(١) الذخيرة ج ١ ص ٥٠ — ٥٣ (٢) راجع ص ٥٢

" وأقسمتم على أن من حبسناه من رؤسائكم كان أولى بالسياسة، فأنّى لكم ذلك؟ وإنما أنتم مدبَّرون مسوسون، وأتباع مربوبون، وبناء التدبير نازح عنكم، والسياسة القويمة محجوبة دونكم، ومتى بلغكم عن عبد ثرب على مولاه فأفلح، أو سمعتم بجند شغب على مدبريه فأنجح، والله تعالى ودينه وخلائفه فى غنى عمن عند عليه وحادّه، وأنجر فى الاسلام وشاقه، وخرج عن الجماعة، وشق عصا الإمامة، واستخف بحقوق الأئمة، ونازع الأمر أهله. ولولا أن أمير المؤمنين يعلم أن ملأكم لم يجتمع على هذا الكتاب، وأن أهل السداد منكم لم يرضوا هذا الخطاب، لكان له فى ذلك نظر يقيم الأود، ويعدل الميل... واعلموا أن السداد والحلم والكظم من أخلاقه، والرفق والأناة من شيمه، فاقبلوا أدبه، وانتفعوا بموعظته، فلو كشف لكم الغطاء، واجتلى عليكم الغيب، لعلمتم أن أمير المؤمنين لا ينام عن مصالحكم ولا ينى فى منافعكم، ولا يسعى إلا فيما يردّ ألفتكم، ويجمع كلمتكم[1] ".

وهذا كله كلام طيب، ولكن أين دلالته على قوة ابن برد النفسية؟ إنه كلام كسائر ما يسطّر كتاب الدواوين، فليس فيه اتجاهات فلسفية ولا اجتماعية أكثر مما كان يكتب عادة على ألسنة الأمراء والسلاطين، وقد اتفق لابن برد أن يجهد نفسه فى الكلام عن معنى الرعية فلم يزد على أن قال:

" إن الرعية من السلطان بمكان الأشباح من الأرواح، وصلاحها وفسادها متصلان، ونماؤها ونقصانها منتظمان: إذ كانت الرعية عنصر المال، ومادّة الجباية، وفيهما قوام الملك وعز السلطان، ورزق الأجناد التى بها يقاتل العدو، وينصر الدين، وتحمى الحرم[2] ".

وهذا أيضا كلام طيب ولكنه أقل مما سُبق اليه فى مثل هذه الشؤون.

٦ — وقد اقترن اسم ابن برد فى تاريخ الأندلس بكتابة العهد. عهد الخليفة المؤيد بالله هشام بن الحكم الأموى، وكان لهذا العهد صدى فى كتب المتقدمين. تحدث عنه ابن بسام والمقّرى والقلقشندى وابن خلدون[3]. وليس لهذا العهد قيمة إلا من الوجهة التاريخية لما

---

(١) ج ١ ص ٥٣ (٢) ص ٥٤ (٣) يكفى أن تراجع نفح الطيب ص ٢٧٧ و ٢٧٨ ج ١

فيه من الدلالة على صولة العامريين وضعف الخلفاء ، ولكنه من الوجهة الأدبية والنفسية دليل على أن ابن برد كان من أتباع الغالب على أى حال . ألم يذكر على لسان هشام انه" بعد أطراح الهوى ، والتحرّى للحق ... وبعد أن قطع الأواصر ، وأسخط الأقارب ، لم يجد أحدا أجدر أن يوليه عهده، ويفوّض اليه الخلافة بعده ، لفضل نفسه ، وكرم خيمه، وشرف مرتبته ، وعلو منصبه، مع تقاه وعفافه ومعرفته وحزمه ونقاوته : من المأمون الغيب، الناصح الجيب، أبى المطرِّف عبد الرحمن بن المنصور " .

ولم يقف ابن برد عند هذا ، بل استرسل فزعم ان ذلك القحطانى المتسلط هو الذى أشار اليه الحديث النبوى الذى يقول " لا تقوم الساعة حتى يخرج رجل من قحطان يسوق الناس بعصاه " فكان ابن برد على هذا من أنصار " التهريج " فى الوضع والتأويل !

٧ — ومن أسوأ ما وقع لابن برد كتابه عن المظفر حين قتل وزيره عيسى بن سعيد(1) وهو كتاب فاجر جاءت فيه هذه الكلمات :

" أيها الناس ! ان من علم منكم حالة الخائن عيسى بن سعيد بالمشاهدة، ورأى النعمة عليه بالمحاضرة ، فقد اكتفى بما شاهد ، واجترأ بما حاضر ، ومن غاب عنه ذلك من عوامكم : لانتزاح منزل ، أو لاتصال شغل ، فليعلم أننا أخذناه من الحضيض الأوهد ، وانتشلناه من شظف العيش الأنكد ، فرفعنا خسيسته ، وتممنا نقيصته، وخوّلناه صنوف الأموال، وصيرنا حاله فوق الأحوال، فلم يقم لله بحق ،ولا قابل إحسانه بصدق ،ولا عامل رعيتنا برفق، ولا تناول خدمتنا بحق ، بل أعلن بالمعاصى ، واستذل الأعزة وذوى المروءة ، ونافرهم ، وأنس بأضدادهم، ونبذ عهودنا، وخالف سبلنا، وكدر على الناس صفونا ، حتى اذا ملكه الأشر ، وتمادى به البطر، وعلت به الأمور ، وغره بالله الغرور ، حاول شق عصا الأمة ، وهد ركن الخلافة والأمانة، بما احتجن من حرام المال، واستمال من طغام الرجال، فحجته نعمنا عنده، وخصمته عوارفنا لديه ، وكشف لنا سر نيته حتى صرعه بغيه ، وأسلمه غدره ، وأخذه الله بما اجترم، وأوبقه بما اكتسب، فأعجلناه عن تدبيره ، وصار الى نار الله وسعيره " .

(1) راجع الذخيرة ج ١ ص ٥٥ — ٥٩

وإنما وصفنا هذا الكتّاب بالفجور لأن ذلك الوزير أُخِذ للقتل من مجلس شرابه وكان فيه أبو حفص بن برد، ولو صدقنا ابن بسام لكان ذلك الوزير من صرعى النمائم والوشايات.

٨ — وخلاصة ما سلف أن ابن برد كان قوة أدبية ، وكان من كبار الكتّاب فى دولة العامريين ولكن أدبه ضاع فى الدفاع عن الحق حينا ، والتزلف الى الباطل أحيانا . وكان لا يعرف ما يأتى وما يدع : لأنّ ظروف السياسة لعهده لم تكن تمكن كاتبا ولا شاعرا من أن يكون أدبه صدى لخالص النية وطاهر الوجدان . وكان ابن برد كاتبا ووزيرا ، والكتابة والوزارة وسيلتان من وسائل الظلم والبغى عند من تغويهم منافع العيش ، وتضلهم أباطيل هذهِ الدنيا الغَرور .

٩ — وهذا الجانب النفعى هو الذى عرفناه أو عرفنا رسومه من ابن برد، لأن من ترجموا له لم يجدوا فيما يظهر غير بقايا من رسائله الرسمية، أما اللون الجميل من أدب الكتّاب الذى يتحدث عن الاخوانيات وعن أنفس الكاتبين فى صدق و إخلاص فلم تبق منه بقية شافية، لأن الأدب السياسى كان طغى على ما سواه من ألوان الأدب فى تلك الأيام ، ولأن الشعر كان استبد أو كاد بالحديث عن سرائر النفوس ، ودقائق الأحاسيس، وما كان الناس ينتظرون أن يحدثهم النثر إلا عما يصدر عن الخلفاء والأمراء والوزراء من رقاع الإغراء والوعيد . وكذلك آستذل الكتّاب حينا لأهواء المسيطرين : فلم يكن أدبهم صورة لنفوسهم وقلوبهم وأذواقهم ، وإنما كان فى الأغلب صدى لجلجلة الاستبداد والطغيان . وآفة الأدب أن يكون صدى لغير ما يجيش فى صدور الكرام من نوازع الصدق واليقين .

٤ — أبو المغيرة بن حزم

١ — فى الأصل الفرنسى فصل عن أبى عامر بن شهيد، وكان لذلك الفصل أثر طيب فى تقويم الكتاب، لأن ابن شهيد من الأعلام التى لم يتنبه اليها المستشرقون الفرنسيون. أما الرجل الذى أتحدث عنه فى هذا الفصل فهو شخصية قوية جذابة لم يتنبه اليها أحد من الباحثين، ولم يُعرف عنها كثير ولا قليل، وهو ابن حزم! وهنا يلتفت القارئ باسما بسمة السخرية: لأن ابن حزم معروف، طبّق صيته الشرق والغرب، فلنسارع إذن بتقرير ما هدانا اليه البحث من أن "ابن حزم" يطلق على شخصين أحدهما معروف وهو أبو محمد على بن أبى عمر أحمد بن سعيد الفقيه الأديب، وثانيهما مجهول وهو أبو المغيرة عبد الوهاب بن حزم الشاعر الكاتب، وهما من بيت واحد وابنا عم[1]، ويمكن الحكم بأن أولهما أفقه وأعلم، وثانيهما أكتب وأشعر.

٢ — لم أجد من المصادر ما يغنى فى تحديد الزمن الذى عاشه أبو المغيرة بن حزم، ولكن من المؤكد أنه شهد سرار القرن الرابع وبخر القرن الخامس، ومن أخباره أنه تولى الوزارة للمستظهر بالله عبد الرحمن بن هشام[2]، وربما كان السبب فى خموله أنه اعتبط[3] شابا "ولو طال به مداه، لم يذكر معه سواه" كما قال ابن بسام، يضاف الى ذلك أن شخصية ابن عمه أبى محمد بن حزم طغت عليه فأغرقته فى لجج من النسيان. ومن عجيب المصادفات أن أبا محمد كان يتوقع له هذا الخمول، ذلك بأنه جرت بينهما مقارعات فكتب اليه أبو محمد يقول:

كفانى بذكرى الناس لى ومآثرى   ومالك فيهم يا ابن عمىَ ذاكر

(١) أبو المغيرة بن حزم هو عبد الوهاب بن أحمد بن عبد الرحمن (نفح الطيب ج ٢ ص ١٠٨ طبع ليدن) وجاء فى النفح (ص ١٨٥ ج ١) أن أبا محمد بن حزم فارسى الأصل وليس من «بنى حزم» وهى أسرة عربية أندلسية.

(٢) قال المقرى فى الحديث عن المستظهر: "وكان قد رفع جماعة من الأتباع ذهب بهم العجب كل مذهب كأبى عامر ابن شهيد المنهمك فى بطالته، وأبى محمد بن حزم المشهور بالرد على العلماء فى مقالته، وابن عمه عبد الوهاب بن حزم المعتزل المترف فى حالته" نفح الطيب ج ١ ص ٣١٩ (٣) اعتبط بالبناء للمجهول: مات.

عدوى وأشياعى كثير كذاك من — غدا وهو نفاع المساعى وضائر

ومالك فيهم من عدو فيتقى — ولا لك فيهم من صديق يكاثر

وقولى مسموع له ومصدق — وقولك منبث مع الريح طائر

وانى وان آذيتنى وعققتنى — لمحتمل ما جاءنى منك صابر

وقد أجابه أبو المغيرة بقصيدة لاذعة نكتفى منها بهذه الأبيات :

وغاصب حق أو بقته المقادر — يذكرنى حاميم والرمح شاجر

غدا يستعير الفخر من خيم خصمه — ويجهل أن الحق أبلج ظاهر

ألم تتعلم يا أخا الظلم أننى — برغمك ناه منذ عشر وآمر

تذلل لى الأملاك حر نفوسها — وأركب ظهر النسر والنسر طائر

وأبعث فى أهل الزمان شواردا — تؤلفهم وهى الصعاب النوافر

فان أثو فى أرض فإنى سائر — وإن أنا عن قوم فانى حاضر

والذى يوازن بين هاتين القطعتين يتبين أن شعر أبى محمد يشبه شعر الفقهاء، وهو من رجال الفقه والأصول، وأن شعر أبى المغيرة يسمو به الى طبقات الفحول من الشعراء .

٣ — والواقع أن أبا المغيرة كان مفتونا بالدراسات الأدبية، ومصروفا عن الدراسات الفقهية، حتى لنجده يسخر من علوم ابن عمه فيقول :

” نسيت أبا محمد حاشيتك وشيعتك التى صرت رئيس مدارسهم ، وكبير أحراسهم ، تحدثهم عما كان فيهم من العبر ، وتخبرهم بما تعاقب عليهم من الصفاء والكدر ، فتارة عن السامرى والعجل، وتارة عن القمل والنمل ، وطورا تبكيهم بحديث التيه ، وطورا تضحكهم بقوم جالوت وذويه، حتى كأن التوراة مصحفك، وبيت الحزان معتكفك “ .

وهذا التعريض يذكرنا بما أخذ ابن شهيد على الجاحظ من الاهتمام بغرائب الزواحف والدواب[1] .

---

(١) راجع ص ٥٧ من هذا الجزء .

٤ — وليس هذا كل ما يميز ابنى حزم أحدهما عن الآخر فى اتجاه الأذواق، بل يحدثنا ابن بسام بأن أبا المغيرة "كان أنبه من أبى محمد فى حضور شاهده، وذكاء خاطره، وحسن هيئته، وبراعة ظرفه، وجودة أدبه".

وتلك صفات كان يتميز بها الأديب على الفقيه فى أكثر الأحيان.

٥ — تدل أخبار أبى المغيرة ورسائله وقصائده على انه كان دقيق الحس فى اختيار أطايب الحياة، وفى كلامه فقرات فى الدعوة الى مجالس الأنس تذكر بأدباء الشرق كالميكالى وابن العميد، ولننظر كيف يقول:

"والأرض قد نشرت ملاءها، وسحبت رداءها، ولبست جلبابها، وتقلدت سحابها، وبرز الورد من كمامه، واهتز الروض لتغريد حمامه، والأشجار قد نشرت شعورها، وهزت رؤوسها، والدنيا قد أبدت شموسها، وأماطت عبوسها، وكأنى بها قد أطلعت من كل ثمر ضروبا، وأبدت من جناها منظرا عجيبا، وان كنا لا نشارك فى تلك إلا باللسان لا بالعيان، وبالطرف لا بالكف، وللدهر قسم من أقسام اللذة، وصنف من أصناف الشهوة:

شهدنا إذ رأيناهم بأنا ... على اللذات فى الدنيا شهود"[1]

٦ — على أنه كان — كسائر من تغويهم شهوات الحواس — سيئ الظن بالناس، لأن الخلق لاتتكشف طبائعهم إلا لمن يأنس اليهم فى مجالس السلاف وملاعب الجمال، ومن أجل ذلك نراه ينظر الى العالم نظرة مُشرَبة بالتحفظ والكتمان، ويقرر أن فى الاحتماء حسم الداء، وأنْ لا عدو للانسان إلا نفسه، ولا حية ولا عقرب إلا جنسه، ثم يقول:

"وليس فى الحيوان أخبث من الانسان، فالاحتراس كل الاحتراس، والمعاشرة الجميلة للناس، لا تُلدَغنّ من جحر مرتين، واذكر المثل السائر فى الملاعب بين وتدين، والعاقل من حمله كل بلد، ونثق عند كل أحد، وأعقل منه من عرف الناس، ولم يعرفوه، فاستراح من أجنبى متكلف، الى قريب غير منصف، ولم يفتقر الا الى ربه، ولم يأنس إلا بنور لبه"[1].

(١) الذخيرة ج ١ ص ٧٤

وهــذه الفقرة تمثله كأحكم الحكماء لو كان الى السلامة من شر الناس سبيل . ولكنى ما أحسبه دعا تلك الدعوة الا بعد أن رأى وذاق كيف يكون الغدر والخيانة والعقوق ، لأن الحكماء لا يعظون إلا بعد أن تكوى أيديهم وتشتعل رؤوسهم وهم يقاسون ماتنطوى عليه صدور الأصحاب والآلاف والأصدقاء من مظلمات النيات ومنكرات الأغراض، والطبيعة الانسانية لئيمة تبيح كل شر، وتسـمح بكل بغيض من جنى اللؤم ممقوت، ويكاد الرجل لا يلقى الشر إلا من أصفيائه ولا يجنى الشوك إلا حيث يغرس الأزهار والرياحين .

٧ — على أن له — مع سوء ظنه بالناس — كلمات تكشف عن تعلقه بأصدقائه، وحنينه اليهم، وعطفه عليهم، فنراه يقول فى بعض رسائله :

«وما أعلم نائبة كفراقك أهدّ لمتن، ولا نازلة كنأيك أجلب لحزن، وما كنت أريم ربعك لو كان لى الخيار، أو أبرح منزلك لو سامحتنى الأقدار»[1] .

ويقول من رسالة ثانية :

«وان رأيت تأنيسى بكتاب أجتلى منه وجوه البدور، وجواهر النحور ، ودرر الثغور، وأجتنى ثمر السرور، وأرتع منه فى رياض العلوم، مابين منثور ومنظوم، نفّست خناق مشتاق، وأنست من وحشة الفراق ، منفردا غريبا بحيث لا أخ كريم ، ولا صديق حميم ، فقد صرت ولا أحيل على الأثر بعد العين ، كما قال أحمد بن الحسين :

ما مقامى بدار نخـلة إلا كمقام المسيح بين اليهود»

وللقــارئ أن يلاحظ أن ما اخترناه من الرسالة الثانيــة يصرح بضجر أبى المغيرة وتبرمه بالوجود، اذ يعيش منفردا غريبا بحيث لا أخ كريم، ولا صديق حميم . وتلك غاية فى البؤس والشقاء لأديب لا غنى لروحه عن حلاوة المودة وعذوبة الوفاء .

٨ — وقد حمله ضجره على الاكثار من شكوى الزمان ، فتارة يشــكو غربة قومه فى الأندلس وانصراف أهل الشرق عن علومهم وفنونهم وآدابهم فيقول :

(١) الذخيرة ج ١ ص ٧٥

"لقد نادينا لو أسمعنا، وطرنا لو وقعنا، وما أشبهنا بالغريبة التى خيرها يدفن، وشرها يعلن؛ يتعب أحدنا نفسه ؛ ويذهب حسه ؛ ويعارض السيف بفهمه ، والبحر بعلمه ، والنار بذكائه ، والزمان بمضائه ؛ ونتائج فكره محجوبة . وبنات صدره غير مخطوبة ؛ إن يسمعوا ريبة طاروا بها فرحا، وإن رأوا فضيلة وجموا لها ترحا"(1) .

وتارة يتحدث عن بلائه بالناس فيقول :

«بانعكاس الزمان ، انعكست أمثال البيان، كما روى عن الفتى المدعى للكتابة عند عمرو ابن مسعدة أنه عاياه بكتاب من صاحب البريد بخبر بقرة ولدت غلاما فأنشأ خطبة مفتتحها "الحمد لله خالق الأنام ، فى بطون الأنعام" فجذب الرقعة من يده وبالغ فى إجزال صفده . واذا تأملت انقلاب الزمان؛ وما وقع لى مع فلان انقلبت الخطبة فصارت "الحمد لله خالق الأنعام، فى بطون الأنام" وكم قد كشفت عن عوراته، وما زالت مكشوفة، وعرفت بسوآته، وما زالت معروفة، إخبارا عنه، وتحذيرا منه، واعلاما بما يستره ذيله، ويشتمل عليه ليله ، من قبائح يجلبها العار، ويكتبها الليل والنهار» .

وأصرح من هذا قوله فى وصف غدرات الأيام :

"فحين شمخ بالظفر أنفى، واهتز لنيل الأمل عطفى، والدهر يضحك سرا، ويتأبط شرا، وقد أذهلنى الجذل عن سوء ظنى به ، وأوهمنى نزوعه عن ذميم مذهبه ، أتت ألوانه ، وفسا ظربانه، ونادى ليقم من قعد، ويتنبه من رقد، انما فترتُ تلك الفترة، ليكون ما رأيت عليك حسرة، وسمحت لك مرة، لتذوق عليها كأسا مرة ، فرأيت وقد غطى على بصرى، وعقلت وكنت فى عمياء من ظفرى، وقلت هو الذى أعهده من لؤمه، وأعرفه من شؤمه : ما وهب الا سلب، ولا أعطى الا ساعة كابهام القطا، فياله من قادر ما ألأم قدرته، وذابح ما أحدّ شفرته" .

---

(1) الذخيرة ج ١ ص ٦٥

٩ — وقد قاده هذا المزاج الى الإقذاع فى الهجاء. وله فى الذم فقرات مكشوفة يتقزز منها القارئ، وقد ختم إحدى أهاجيه بهذه العبارة " قبح الله زمانا يقرب الى اللئيم حصانا، والى الكريم أتانا" وربما كان أقبح أهاجيه ماقارع به ابن عمه أبا محمد بن حزم، كقوله يصف كتابا وصل اليه منه "معنى كصدأ الأسنان، ولفظ كنفحات الأكفان، وأعراض لا مدبّ فيها لسهم مقرطس، وأعلام لا وضح فيها لصبح متنفس، ورطانة تمجها الأسماع، وتخبو بها الطباع، فوقفت متبلدا، وعدت على نفسى وقريحتى مترددا، فقالتا أيها الانسان، لست بالنبى سليمان، متى وعدناك أن نفهمك كلام النحل، وسرار النمل؟ ألم نسلك بك شعاب الكلام فتغلغلت؟ ألم تسر فى صحرائه فأوغلت؟ ألم تجل فى ميدانه فسبقت؟ ألم تسر فى ظلمائه فأشرقت؟ هل أحسست بنكول جنان، أو قصور لسان، فيما نظمت كالعقود، على ترائب الفتاة الرود، ونثرت كالنجوم، فى صفحة الليل البهيم، فقلت: بلى! قالتا: فأعرض عن رطانة الزط، وصفير البط، ولا تعج على طلل بائد، ودار قد أتى الله بنيانها من القواعد! فقلت: لقد أسرفتما طاعنين، إن كاتب الصحيفة لبدرة الزمان، ولعالم نوع الإحسان. إلا أنه ربما كذب العنوان. فأعدت النظر فاذا بك — أبا محمد — صاحبه! كتاب بنى على الظلم العبقرى، والبهتان الجلى، ومكابرة العيان، ومدافعة البرهان، قد طمس الله أنواره، وأظهر عواره، فجاء كالفلاة القوراء: لا ماء ولا شجر، والليلة الظلماء: لا نجم ولا قمر» [1].

وهذا التهاجى بين أبناء العم لا غرابة فيه، فان الأدب العربى يزخر بهذا النوع من تظالم الأقرباء: لأن ثائرة الحقد أشدّ ما تكون تأججا واضطراما بين الأقربين وهى عند العرب من أقوى بواعث الطموح الى المجد، ومن أشدّ الحوافز لإيقاد ما خمد من جذوات النفوس والعقول. ومن هنا نرى أهاجى أبى المغيرة لابن عمه أمر وأقسى من أهاجيه لغيره، فانه يهجو ابن عمه بحفيظة وحقد على حين لا يخرج هجاؤه لغيره عن المزاح الثقيل، كقوله فى التهكم

(١) الذخيرة ج ١ ص ٧٨ وفى نفح الطيب ج ١ ص ٥١٣ فقرات من تهاجى هذين الكاتبين، فليرجع اليهما القارئ إن شاء.

ببعض المتطببين : „ وأشرح لى خبر فلان، وأين بلغ من تكسبه، وحيث أنتهى من تطببه، وكيف ظروفه وخزائنه، ولعوقاته ومعاجنه؟ وهل ينفذ طبه، وينفق حبه؟ وصف لى مايقوله على الماء، ويبديه من الأدواء، وأهد الىّ ما ينقه من المقال، على الكبد والطحال، ويرقشه من الكلام، فى الفالج والزكام، فالحمد لمن قرن له ذلك الى القيام، بشريعة الاسلام، والتمهر فى الأحكام، ومعرفة الحلال والحرام، والفلج عند الخصام[1] “ .

١٠ — ومع أن أبا المغيرة من الشعراء الفحول فانا نراه يتخذ النثر أداة للتعبير عن الأبواب الخاصة بالشعر كالغزل والمديح وهو فى ذلك يحاكى بديع الزمان الذى يحرص أشد الحرص على أن يؤدى بالنثر كل ما يؤدى بالقصيد . وإنما خصصنا بديع الزمان بالذات لأنا نرى فى نثر أبى المغيرة نفحة همذانية . ويكاد الرجلان يتشابهان، لولا جزالة ابن حزم ورقة بديع الزمان . والظاهر أن رسائل الهمذانى كانت وصلت مسرعة الى الأندلس، وأطلع عليها المتأدبون هنالك، والى القارئ رسالة لأبى المغيرة تمثل روح الهمذانى أصدق تمثيل :

„ فكم ليث كان فى غابة سمعت صريف أنيابه، وقفر أنست فى ييابه، الى عواء ذئابه، لاأمر إلا بالنص المستلب، ولا ألق غير الخارب المنتهب، والشعار عندالنائبه ألقاها فأتخطاها، والنازلة أراها فأتعداها، قول أبى الطيب :

فان أسلم فما أبقى ، ولكن سلمت من الحمام الى الحمام

وأنا أرقب من الزمان صنيعه، وأتوقع من الحمام وقوعه، وهو يذهب بى الى قبلة الآمال وأنا لا أصدق، ويسوقنى الى محط الرحال وأنا لا أحقق ، ويؤم بى البحر الذى لا تحصى فرائده، والغيث الذى لا يجدب رائده، حتى أدانى الى الحضرة العلياء، والمحلة الشماء، فكبرت إكبارا لما صرت اليه، وهللت إعظاما لما سقطت عليه، وعلمت أنى فى الحرم الذى لا يضار جنابه، ولا يطار غرابه، ولا يخضد شجره، ولا يمنع ثمره، ولم ألبث ان نزلت باليفاع الخصيب ، وتمكنت من الرشاء والقليب[1] “ .

(١) الذخيرة ج ١ ص ٧٤ و ٧٥ والرشاء الحبل، والقليب البئر .

ولم يقف تأثره ببديع الزمان عند محاكاته فى المذهب والأسلوب ، بل تعدّاه الى معارضة ما اشتهر من رسائله ، فقد وضع الهمذانى رسالة شائقة فى إنسان جمع بين اللؤم والجمال ، ثم دالت دولة شبابه فعاد من الصاغرين ، وهى رسالة مشهورة اهتم بمعارضتها كثير من الكتّاب آخرهم المرحوم الشيخ عبد العزيز شاويش ، والظاهر أنها بهرت أهل الأندلس فعارضها أبو المغيرة بن حزم برسالة طويلة نقتطف منها الفقرات الآتية :

" ورد كتابك ينشد ضالة ودّنا ، ويرقع خلَق عهدنا ، ويطلب ما أفاتته جريرتك الينا ، وذهبت به جنايتك علينا ، أيام غصنك ناضر ، وبدرك زاهر ، لا نجد رسولا اليك إلا نظرة تخرق حجاب الدموع ، ونفرة تقيم منآد الضلوع ، فان رمنا شكوى ينفث بها مصدورنا ، ويستريح اليها مهجورنا ، لقينا دونك أمنع سدّ ، وأقبح صدّ ، وأقدح زند ، وأبرح ردّ ، حتى إذا طفئت تلك النيران ، وانتصف لنا منك الزمان ، بشعرات أعشت هلالك كسوفا ، وقلبت ديباجتك صوفا ، وأعادت نهارك ليلا ، وناحت عليك تلهفا وويلا ، وأطار حمامك غرابك ، وحجب ضياك ضبابك ، فصار عرسك مأتما ، وعاد وصلك محرّما :

وبت مداماً تسر النزيفا ... فأصبحت تجرع خلا ثقيفا

وصرت مجازاً جديب المحل ... وقد كنت للطالب الخصب ريفا

أقبلت تتسلل الينا لواذا ، وتطلب منا عواذا . قد أنساك ذل العزل عز الولاية ، وأولاك طمعا نسيانك تلك الحماية ، أيام ترشقنا بسهام لحاظك رشقا ، وتقتلنا بسيوف ألفاظك عشقا ، وتميس غصنا ، فتثير حزنا ، وتطلع شمسا ، وتغيب نفسا ، فالآن نلقاك بدمع قد جفّ ، ووجد قد كفّ . وعزاء قد أبّد ، وصبر قد غار وأنجد ، ونظر منك الى روض قد صوّح ، وسار قد أصبح ، وأعجم قد أفصح ، ومبهم قد صرّح ... الخ "[1] .

١١ — نثر أبى المغيرة فى جملته متين رصين ، لولا ما يتطرق اليه أحيانا من قبح التعمل ، ودمامة التكلف ، وهو فى الأغلب مسجوع . وفى الذخيرة شواهد على تكلفه ، وهو تكلف ممض ، نكتفى بالاشارة إليه ، ولا نعرض له بتحليل ولا تلخيص . ومن المرجح أن تلك الرسائل المتكلفة كانت مما كتبه قبل أن ينضج ويسلس له البيان .

(١) الذخيرة ج ١ ص ٦٧

٥ — أبو الفرج الببغا

١ — الببغا هو عبد الواحد بن نصر المخزومى . وإنما لقب بالببغاء للثغة ظريفة كانت تزين لسانه ، نشأ فى نصيبين واتصل بسيف الدولة فى شبابه : فلما مات صاحبه تنقلت به الأحوال بين الموصل وبغداد ، فنادم الملوك والرؤساء ، وقضى حياته مقسم الحظ بين النجاح والإخفاق : ينعم تارة ويشقى أخرى ، حتى وافاه حمامه لثلاث بقين من شعبان سنة ٣٩٨

قال الثعالبى : "وآخر ما بلغنى من خبره ما سمعت الأمير أبا الفضل عبد الله بن أحمد الميكالى يورده من ذكر التقائه معه عند صدره من الحج وحصوله ببغداد فى سنة تسعين وثلثمائة ورؤيته بها شيخا عالى السن ، متطاول الأمد ، نظيف اللبسة ، بهى الركبة ، مليح اللثغة ، ظريف الجملة . قد أخذت الأيام من جسمه وقوته . ولم تأخذ من ظرفه وأدبه ... ثم عرض على القاضى أبو بشر الفضل بن محمد بجرجان سنة إحدى وتسعين كتاب أبى الفرج الوارد عليه من بغداد مشتملا من النظم والنثر على ما أثر فيه حال من بلغ ساحل الحياة ، ووقف على ثنية الوداع[١] " .

٢ — كان الببغا من أركان الحياة الأدبية فى زمانه ، ولكن المؤلفين لم يتحدثوا عنه إلا قليلا ، فكان من نتائج ذلك أن قلت المصادر التى تكفى لتعيين اتجاهاته الأدبية ، وإقلال المؤلفين من الحديث عنه يعين بعض صفاته . لأن المؤلفين يهتمون فى الأغلب بتقييد مايصل اليهم من أخبار المتاعبين من الكتاب والشعراء ، فأكثر من عرفت حالهم من رجال الأدب كانوا فى حياتهم رجال دسائس ومكائد وسفاهات : وأكثر ما يكونون من طبقات الوزراء أو أمناء الملوك والوزراء .

فإن ظفرت بكاتب خامل الذكر أو شاعر مجهول القدر فلا تنس أن تلاحظ أن هذا لم يكن إلا لأن ذلك المغبون كان فى حياته هادئ النفس قليل المطامع محدود الآمال . ومجموعة

(١) ص ١٤٧ ح ١ يتيمة الدهر .

ما وصل الينا من شعر الببغا و رسائله وقصصه تدلنا على أنه لم يتصل بملوك زمانه على نحو ما كان يتصل الصاحب بن عباد أو أبو الفضل بن العميد .

وانما كانت صلاته بالملوك والرؤساء عند الحدود الضيقة حدود السمر والأنس حول بساط السلاف .

٣ — و إنا لنراه يدور حول تهواته وأغراضه النفسية فى أكثر ما أُثر عنه من المقطوعات والرسائل والأقاصيص، بحيث نستطيع أن نقدر أنه كان لا يرجو من صلات الملوك والوزراء والرؤساء أكثر من أن ينضو عن نفسه ثوب الفاقه والإملاق ، وأن يكون فى يده من الذهب ما يقتنص به شوارد اللذات، وأوابد الأهواء :

وفى هذا الذى نقضى به تعليل لصفاء شعره الوجدانى، فقد كان شعر الببغا يُغنّى به وكان من مُتَع السامرين فى الشام والعراق، ولننظر كيف يقول فى محبوب رمدت عيناه :

بنفسىَ ما يشكوه من راح طرفه	ونرجسه مما دهَى حسنه ورد
أراقت دمى ظلما محاسن وجهه	فأضحى وفى عينيه آثاره تبدو
غدت عينه كالخد حتى كأنما	سقى عينه من ماء توريده الخد
لئن أصبحت رمداء مقلة مالكى	لقد طال ما استشفت بها مقل رمد (١)

ولننظر كذلك كيف يقول فى محبوب فصده مبضع الطبيب :

بأبى الغائب الذى لم يغب عنى	فأشكو اليه هتم المعيب
باشرته كف الطبيب فنالو نا	ت الأمانى قبلت كف الطبيب
فعلتْ فى ذراعه ظبة المبـ	ـضع أفعال لحظه بالقلوب
فأسالت دما كأن جفونى	عصفرته بدمعها المسكوب
طاب جدا فاو به سمح الدهـ	ـر لأمسى عطرى وأصبح طيبى (١)

وهذه معان دقيقة لا يحسنها إلا من يفرغ لأمثالها من شعراء الوجدان .

---

(١) ص ١٩٥ ج ١ يتيمه .

وإنا لنتأمل فى شعره فنجده يرتقب فرص زمانه فيقول مثلا فى الورد والربيع والشراب :

زمن الورد أظرف الأزمان … وأوان الربيع خير أوان
أدرك النرجس الجنىّ وفزنا … منهما بالخدود والأجفان
أشرفُ الزهر زار فى أشرف الدهر … فصِلْ فيه أشرف الاخوان
واْجلُ شمس العقار فى يد بدر الـ … ـحسن يخدمك منهما النيِّران
وأدرها عذراء وانتهز الامـ … ـكان من قبل عائق الإمكان
فى كئوس كأنها زهر الخشـ … ـخاش ضمت شقائق النعمان
واختدعها عند البزال بألفا … ظ المثانى ومطربات الأغانى
فهى أولى من العرائس إن زفّـ … ـت بعزف النايات والعيدان (١)

وللقارئ أن يتأمل احتفاء الشاعر بالصهباء ودعوته الى اختداعها كما تختدع العروس بالناى والعود .

٤ — ومما يؤكد أن أطماع الببغا من الاتصال بالملوك كانت طفيفة لا تعدو مطالب الرزق أن نراه يقول :

ما الذل إلا تحمل المنن … فكن عزيزا إن شئت أو فهن
اذا اقتصرنا على اليسير فما العلـ … ـة فى عتبنا على الزمن (٢)

وفى هذا المعنى يقول من كلمة ثانية :

صحبت الدهر فى سهل وحَزن … وجربت الأمور وجربتنى
فلم أر مذ عرفت محل نفسى … بلوغ منًى يساوى حمل مَنّ
ولم تتضمن الدنيا لحظى … منال مسرة إلا بحزن
وليس علىّ غير الجد فيما … سعيت له لأستغنى وأغنى
فان أحرم فلم أحرم لعجز … وإن أبلغ فنفسى بلغتنى (٢)

(١) ص ١٩٩ ج ١ يتيمه . (٢) ص ٢٠٠ ج ١ يتيمة .

وأدل من هذا على اهتمامه بالوجدانيات أن التنوخى يحدثنا أنه روى عنه قول سيف الدولة :

وقالوا يعود الماء فى النهر بعدما عفت منه أيات وسُدت مشارعُ
فقلت الى أن يرجع الماء جاريا وتعشب جنباه تموت الضفادع (١)

وحرص الببغا على رواية مثل هذين البيتين يمثل حسرته على أيامه السوالف ولياليه الخوالى .

٥ — وخلوص الببغا من مشاكل دنياه مكنه من أن ينظر الى أهل الأدب نظر العطف والإخاء . ومن شواهد ذلك شوقه الى رؤية أبى اسحاق الصابى، وقد اتفق له أن زار بغداد والصابى معتقل منذ مدة طويلة فلم يصبر عنه فزاره فى محبسه ، ولكنه شغل عن معاودته فكتب اليه الصابى :

أبا الفرج اسلم وابق وانعم ولا تزل يزيدك صرف الدهر حظ اذا نقص
مضى زمن تستام وصلى غاليا فأرخصته والبيع غالٍ ومرتخص
وآنستنى فى محبسى بزيارة شفت كمدا من صاحب لك قد خلص
ولكنها كانت كحسوة طائر فواقا كما يستفرص السارق الفرص
وأحسبك استوحشت من ضيق محبسى وأوجست خوفا من تذكرك القفص
كذا الكرز (٢) اللماح ينجو بنفسه اذا عاين الأشراك تنصب للقنص
فحوشيت ياقس الطيور فصاحة اذا أنشد المنظوم أو درس القصص (٣)

وقد أجابه الببغا بأبيات جاء فيها قوله :

فان كنت بالببغاء قدما ملقبا فكم لقب بالجور لا العدل مخترص
وبعد فما أخشى تقنص جارح وقلبك لى وكر ورأيك لى قفص (٤)

٦ — وما أحب أن تشغلنى الرغبة فى الايجاز عن إثارة بعض ما دار بين الصابى والببغا من المراسلات، ولأكتف بما كان بينهما من وصف "الببغاء" فإن صاحبنا أبا الفرج لما لقب

---

(١) ص ١٣٤ نشوار المحاضرة .
(٢) الكرز، بضم الكاف، الصقر .
(٣) ص ١٨٧ ج ١ يتيمة .
(٤) ص ١٨٨ ج ١ يتيمة .

بالببغا للثغته استطاع الصابى أن يحاوره محاورة طريفة فى وصف الببغاء فهو مثلا يعتذر عن إهماله الرجوع اليه لزيارته فى السجن بقوله :

وأحسبك آستوحشت من ضيق محبسى — وأوجست خوفا من تذكرك القفص

وللننظر كيف يقول فى وصف الببغاء :

أنعتها صبيحةً مليحة — ناطقةً باللغة الفصيحة
عُدَّتْ من الأطيار واللسانُ — يوهمنى بأنها انسانُ
تُنهى الى صاحبها الأخبارا — وتكشف الأسرار والأستارا
سكّاء إلا أنها سميعة — تعيد ما تسمعه طبيعة
وربما لُقّنت العضيهة — فتغتدى بديهةً سفيهة
زارتك من بلادها البعيدة — وآستوطنت عندك كالقعيدة
ضيفٌ قِراه الجوز والأرزُّ — والضيف فى أبياتنا يعز
تراه فى منقارها الخلوقى — كلؤلؤ يلقط بالعقيق
تنظر من عينين كالفصّين — فى النور والظلمة بصّاصين
تميس فى حلتها الخضراء — مثل الفتاة الغادة العذراء
خريدةٌ خدورها الاقفاص — ليس لها من حبسها خلاصُ
تحبسها ومالها من ذنب — وإنما تحبسها للحب
تلك التى قلبى بها مشغوفُ — كنيت عنها وآسمها معروف
نشرك فيها شاعر الزمان — والكاتب المعروف بالبيان
وذاك عبد الواحد بن نصر — تقيه نفسى عاديات الدهر[١]

وقد أجاب الببغاء على هذه الأرجوزة البديعة بأرجوزة أطول ولكنها تافهة لم يعجبنا منها إلا قوله فى الببغاء :

(١) ص ١٨٨ و ١٧٩ ج ١ يتيمة .

تزهى بدواج(١) من الزمرد ومقـالة كسبج فى عسجد
وحسن منقار أشم قان كأنما صيغ من المرجان
صـيرها انفرادها فى الحبس بنطقها من فصحاء الانس
تميزت فى الطـير بالبيـان عن كل مخلوق سوى الانسان
تحكى الذى تسمعه بلا كذب من غير تغيير لجـد أو لعب
غذاؤها أزكى طعـام رغدا لاتشرب الماء ولا تخشى الصدى
ذات شُعى(٢) تحسبه ياقـوتا لا ترتضى غير الأرز قـوتا
كأنما الحبـة فى منقارها حبابة تطفو على عقـارها
إقـدامها بباسها الشديد أسكنها فى قفص الحـديد(٣)

٧ — وهذا الوصف وصف الببغاء الذى أجاد فيه الشاعران أتاحته لنا اثغة أبى الفرج التى أبدع فى وصفها الصابى حين قال :

وما هجنتْ منـك المحاسن لثغـةٌ وليس سوى الانسان تلقاه ألثغا
أتعـرفها فيما تقـدّم خاليـا لعـير اذا ما صاح أو جمـل رغا
فيالك حرفا زدت فضلا بنقصه فأصبحت منـه بالكمال مسوّغا(٤)

واللثغة تكون أحيانا أملح من النطق الصحيح : فيكون النقص بها فضلا كما أشار الصابى وان كنا لا نرتضى بقية التمثيل .

٨ — ولا يفوتنا أن نقيـد هنا أن شعر أبى الفرج تغلب عليـه النزعة الوصفية وذلك يتصل بمذهبه فى النثر أشـد اتصال ، وهو وإن لم يستطع مصاولة فحول القرن الرابع كالرضى والمتنبى وأبى فراس يبدع أحيانا ويروع حتى لنعده فى طليعة الشعراء . ولننظر كيف تتـدفق الحياة فى قوله يصف قتلى الحرب :

فتركتهم صرعى كأنك بالظُّبا عاطيتهم فى الروع كأس مُدام

(١) الدواج على وزن رمان وغراب اللحاف الذى يلبس (قاموس) . (٢) الشعى كهدى خصل الشعر المشعان ، والشعوانة الجمة منه (قاموس) . (٣) ص ١٩٠ ج ١ يتيمة . (٤) ١٩١ ج ١ يتيمة .

متهاجرين على الدنو كأنما   أنفتْ رؤوسهمو عن الأجسام (١)

وقوله يخاطب سيف الدولة ويذكر وقعة كانت له مع بنى كلاب وعفوه عنهم :

اذا آستلّك الجانون أغمدك الحلم   وان كفك الإبقاء أنهضك العـزم

ومن مختار هـذه القصيدة :

ومن لم يؤدبهُ لفـرط عتـوهِ   — إذا ما جنى — الإنصافُ أدبه الظلم

إذا العرب لم تجـز آصطناع ملوكها   بشكـر تعاوت فى سياستها العجم

اعدها الى عادات عفـوك محسنا   كما عودتْهـا قبـل أباؤك الشُّم

فان ضاق عنها العذر عندك فى الذى   جنته فما ضاق التفضل والحـلم (٢)

وله أوصاف حية جدا تكاد تنطق بمعانى الموصوف، من ذلك قوله فى وصف معصرة :

ومعصـرةٍ أنختُ بهـا   وقـرن الشمس لم يغبِ

نخلت قـزازها بالرا   ح بعض معادن الذهب

وقد ذرفتْ لفقـد الكر   م فيهـا أعين العنب

وجاش عبـاب واديهـا   بمنهـلّ ومنسكـب

ويا قوت العصـير بها   يلاعب لؤلؤ الحبب

فيـا عجبا لعاصـرها   وما يفـنى به عجـبى

وكيف يعيش وهو يخو   ض فى بحـرٍ من اللهب (٣)

وقوله فى وصف الخيل على صهواتها الفرسان :

وكل بعيد قرب الحين نحوه   سلاهبك الجردَ الخفافَ قريبُ

تبـاشر أقطار البـلاد كأنهـا   رياح لهـا فى الخافقين هبوب

تمـاشي بفتيان كأن جسومهم   لخفتها فوق السـروج قلوب (٤)

(١) ص ١٦١ نشوار المحاضرة   (٢) ص ٥٦ نشوار .   (٣) ص ١٩٥ ج ١ يتيمة .

(٤) ص ٢٠٣ ج ١ يتيمة .

٦ – نثر أبى الفرج الببغا

١ – يمتاز نثر الببغا بعدة ميزات : أظهرها أنه يمثل عصره من الوجهة الفنية، ويمثل الكاتب فى ميوله الذوقية والوجدانية . فهو من جهة الصورة نثر مسجوع تغلب عليه الفطرة حينا ويسوده التكلف أحيانا . وهو من جهة الموضوع يتصل فى أكثر نواحيه بما يمس الكاتب من حيث هو رجل مودات ومجاملات، وقلّ أن يمثل صاحبه رجل فكرة آجتماعية أو فلسفية، على نحو ما نجد عند بعض كتاب القرن الرابع . ولذلك نقرأ نثر الببغا فى طمأنينة وسكون تتراءى أمام خيالنا أشباح المشاكل الطريفة التى تشغل بال الرجل المهذب الذى يحرص على مجاملة الأوداء والأصدقاء والرؤساء، بدون أن يعنى كثيرا بما تصطرع حوله الأفئدة وتتصاول فى حماه العقول .

٢ – وأول ما يطالعنا من نثر الببغا هو رسائله الإخرانية، كما كان يعبر القدماء، وهى الرسائل التى بث فيها شوقه الى أصحابه والآفه وإخدانه ، بطريقة وجدانية تقرب فى روحها من قصائد النسيب، كأن يقول :

"شوق المملوك إليه شوق الظمآن الى القطر، والسارى الى غرة الفجر"[1] .

أو يقول :

"شوقى إليه شوق من فقد بالكره سكنه ، وفارق بالضرورة وطنه"[1] .

وقد يحاول تعليل صبره على بعد مودوده فيقول :

"ولولا أن المملوك يخمد نار الاشتياق، ويبرد أوار الفراق، بالتخييل الممثل لمن نأت محلته، والتفكر المصور لمن بعدت شقته، لألهبت أنفاسه، وأسعرت حواسه، وهمت دموعه ، وأنقضت ضلوعه . والله المحمود على ماوفق له من تمازج الأرواح، عند تباين الأشباح"[1] .

---

(١) صبح الأعشى ج ٩ ص ١٤٣

وله فى هذا المعنى الطريف كلمة مستجادة تهش لها النفس ، وتسكن إليها الروح ، وانظر كيف يقول فى رفق أشبه بتناجى المحبين :

"إن تزايلت الأشباح ، فقد تواصلت الأرواح ، وإن نزحت الأشخاص و بعدت ، فقد دنت الأنفس وتقاربت ، فلا تُمِضّ الفرقة وتؤلم ، وتنغص النوى وتكلم . وقد ينال بتناجى الضمائر ، وتحاور السرائر ، مالا تصل إليه الإشارة ، ولا تدل عليه العبارة ، إذ الأنفس البسيطة أرق مسرى ، وأبعد من الألسنة مرمى"[(1)] .

ونحن نفهم هذا : فقد نعيش على صلة الأرواح مع أصدقاء أقصتهم الليالى عيشا لانجده فى وجوه من نساكنهم ونلاقيهم صباح مساء . والودّ ود القلوب .

٣ — وفى رسائل الببغا تفسير لبعض الجوانب الاجتماعية ، وتأكيد لما عرف عن العرب من بعض الخلال ، من ذلك رسالته فى التهنئة بمولودة : فهى تأكيد لما درج عليه العرب والهنود من بغض البنات . ولهذا نراه فى هذه الرسالة يقف موقف الواعظ لا موقف المهنىء ، فيقول :

"لو كان الانسان متصرفا فى أمره بإرادته ، قادرا على إدراك مشيئته ، لبطلت دلائل القدرة ، واستحالت حقائق الصنعة ، ودرست معالم الآمال ، وتساوى الناس ببلوغ الأحوال ، غير أن الأمر لما كان بغير مشيئته مصنوعا ، وعلى ما عنه ظهر فى الابتداء مطبوعا ، كان المخرج له الى الوجود من العدم ، فيما ارتضاه له غير متهم . ومولانا — أيده الله ! — مع كمال فضله ، وتناهى عقله ، وحدّة فطنته ، وثاقب معرفته ، أجل من أن يجهل مواقع النعم الواردة من الله تعالى عليه ، أو يتسخط مواهبه الصادرة اليه ، فيرمقها بنواظر الكفر ، ويسلك بها غير مذاهب الشكر . وقد اتصل بى خبر المولودة ، كرم الله غرتها وأطال مدتها ، وعرّف مولانا البركة بها ، وبلغه أمله فيها ، وما كان من تغيره عند اتضاح الخبر ، وإنكار ما اختاره له سابق القدر ، فعجب المملوك من ذلك واستنكره ، من مولانا وأنكره : لضيق العذر فى مثله عليه . وقد علم

(١) صبح الأعشى ج ٩ ص ١٤٤

مولانا أنهن أقرب الى القلوب ، وأن الله تعالى بدأ بهن بالترتيب فقال جلّ من قائل ﴿ يهب لمن يشاء إناثا ويهب لمن يشاء الذكور ﴾ وما سماه الله هبة فهو بالشكر أولى ، وبحسن التقبل أحرى ، ولكم نسب أفدن ، وشرف آستحدثن ؛ من طرق الأصهار ، والآتصال بالأخيار ، والملتمس من الذكر نجابته ، لا صورته وولادته ، ولكم ذكرٍ الأنثى أكرمُ منه طبعا ، وأظهرُ منه نفعا ، فمولانا يصوّر الحال بصورتها ، ويجدّد الشكر على ما وهب منها ، ويستأنف الأعتراف له تعالى بما هو الأشبه ببصيرته ، والأولى بمثله ، ان شاء الله تعالى[1] " .

ويظهر أن هذا النوع من التهانى كان من الموضوعات الملحوظة فى القرن الرابع ، فقد عقد له الحصرى فصلا فى زهر الآداب . ومن طريف ما جاء فيه تفضيلا للأنثى على الذكر قول بعض الكتّاب :

" الدنيا مؤنثة والرجال يخدمونها ؛ والنار مؤنثة والذكور يعبدونها ؛ والأرض مؤنثة ومنها خلقت البرية ، وفيها كثرت الذرية ؛ والسماء مؤنثة وقد حليت بالكواكب ، وزينت بالنجوم الثواقب ؛ والنفس مؤنثة وهى قوام الأبدان ، وملاك الحيوان ؛ والحياة مؤنثة ولولاها لم تتصرف الأجسام ، ولا عرف الأنام ؛ والجنة مؤنثة وبها وُعِدَ المتقون ، وفيها ينعم المرسلون[2] " .

ويتصل بهذا المعنى ما آقترحه سيف الدولة على الببغا من الكتّابة الى من تزوجت أمه وكان العرب يكرهون أن تتزوج أمهاتهم كرها شديدا . وقد آتفق لعمرو بن مسعدة أن سأله سائل : كيف تكتب لمن تزوجت أمه[3] ! وهذا دليل على أن كتّاب القرن الثانى كانوا يعدّون ذلك من فنون الانشاء . أما فى القرن الرابع فكان ذلك الفن ظاهرا أشد الظهور ، وفصّل الكلام عنه مؤلف زهر الآداب : فذكر أن من الحق مايستحسن تركه ، ويستهجن عمله ، وأشار الى أنه رأى من لا يحضر تزويج كريمته ويولى أمرها غير نفسه ، وأنه عرف من تزوجت أمه

(١) صبح الأعشى ص ٦١ و ٦٢ ج ٩ (٢) زهر الآداب ج ٢ ص ٦٥ الطبعة الثانية .
(٣) صبح الأعشى ص ١٤٥ ج ١

فعظم لذلك همه ، وانفرد عن أوداته ؛ وتوارى عن أصفيائه . حياءً من لقائهم ؛ وكرها لتهنئتهم أو عزائهم . ثم بيّن نماذج ما يكتب فى مثل هذه الحال. وإلى القارىء نص رسالة الببغا التى اقترحها سيف الدولة بن حمدان[1] :

"من سلك اليك — أعزك الله ! — سبيل الانبساط ، لم يستوعر مسلكا من المخاطبة فيما يحسن الانقباض عن ذكر مثله . واتصل بى ما كان من خبر الواجبة الحق عليك ، المنسوبة بعد نسبك اليها اليك — وفر الله صيانتها — فى اختيارها ما لولا أن الأنفس تتناكره ، وشرع المروءة يحظره ، لكنت فى مثله بالرضا أولى ، وبالاعتداد بما جدده الله فى صيانتها أحرى ؛ فلا يسخطنك من ذلك ما رضيه وجوب الشرع ، وحسنه أدب الديانة ، ومباح الله أحق أن يتبع وإياك أن تكون ممن لما عدم اختياره تسخط اختيار القدر له ، والسلام"[2] .

ولا يفوتنا أن نذكر أن الببغا تأثر فى رسالته هذه خطوات ابن العميد فى نفس الغرض ، ولكن رسالة ابن العميد أكثر وحشيةً وأدل على كره العرب لتزوج الأمهات . وأى وحشية أخشن وأغلظ من أن يخاطب من تزوجت أمه بمثل هذه اللهجة فيقول :

"وهنأك الله الذى شرح للتقوى صدرك ، ووسّع فى البلوى صبرك ، ما ألهمك من التسليم بمشيئته ، والرضا بقضيته .. وجعل الله تعالى حده ما تجرعته من أنف ، وكظمته من أسف معدوداً يعظم الله عليه أجرك ، ويجزل به ذخرك ، وقرن بالحاضر من امتعاضك لفعلها ، المنتظر من ارتماضك[3] لدفنها ، وعوضك من أسرة فرشها ، أعواد نعشها ، وجعل ما ينعم عليك بعدها من نعمة ، معرى من نقمة ؛ وما يوليك بعد قبضها من منحة ، مبرأ من محنة"[4] .

ونحن حين نصف ذلك بالوحشية متأثرون بروح العصر الذى نعيش فيه ، ولو خلونا الى نظرتنا لرأينا ابن العميد يعبر عن نوازع إنسانية ، ولا نقول شرقية ؛ لأن الغيرة على الأمهات غيرة فطرية لا يسلم منها انسان ولا حيوان ، فلنقف عند تدوين ما يدل عليه الأدب من مظاهر

(١) زهر الآداب ص ٦٢ و ٦٣ ج ٢ الطبعة الثانية . (٢) صبح الأعشى ج ٩ ص ٧٩

(٣) الارتماض : الحزن . (٤) زهر الآداب ج ٢ ص ٦٣

الاجتماع والأخلاق وقفة النزاهة والحياد . وما خصصنا العرب والهنود بكره البنات إلا لظهور ذلك فى أدبهم ظهورا قويا[١] ، وإلا فقد استجوبنا الناس من جميع الأجناس فرأيناهم يؤثرون البنين على البنات . وما نحن على الفطرة الانسانية بمسيطرين .

٤ — ومن النواحى الطريفة فى نثر الببغا رسائله فى ٱستهداء الشراب . وكان هذا الفن من الكتّابة مما يؤثره كتّاب القرن الرابع ، ولهم فيه فقرات حسان تدل على فتوة القلوب ، وشباب الأرواح . وفى طىّ ذلك الآستهداء معنى لطيف : فقد كان المستهدى يشير غالبا إلى أن لديه "زائرين أعزاء" يسره أن يجمع شملهم حول بساط السلاف ، وقد يومىء إلى أن لديه (محبوبا) أسعده بزيارته وأنه يحب أن لايكون المجلس محروما من نفحة الصهباء . وٱنظر ماذا يقول أبو الفرج سامحه الله :

"من كان للفضل نسبا ، ولفلك الفتوة قطبا ، لم تفزع القلوب من الهم إلا إليه ، ولم تعول الأنفس فى ٱستماحة المسار إلا عليه . وقد طرقنى من إخوانى من كان الدهر يماطلنى بزيارته ، وينفس[٢] علىّ بقربه ومشاهدته ، فصادفنى من المشروب معسرا ، ووجدت الانبساط فى التماسه من غيرك علىّ متعذرا ، والى تفضلك تفزع مروءتى فى الاسعاف منه بما يلم شعث الألفة ، ويجمع شمل المسرة . ويجعلنا لك فى رق الآعتداد بالمنة ، ويقضى عنى بتفضلك حقوق المودة[٣]".

وفى المعنى نفسه يقول من كلمة ثانية :

"ألطف المنن موضعا ، وأجلها من الأنفس موقعا ، ماعمر أوطان المسرة ، وطرد عوارض الهم والفكرة ، وجمع شمل المودّة والألفة ، وأدّى الى آجتناء ثمرة اللذة . وبذخائرك من المشروب مع هذه الأوصاف مايسترقّ حُر الشكر ، ويحرز قصب السبق الى الثناء وجميل الذكر ، فإن رأيت أن تجد بالممكن منه مروءتى ، على قضاء حق مَن أوجب علىّ المنة بزيارتى ، فعلت[٤]".

---

(١) بغض العرب للبنات معروف وقد سجله القرآن ، أما بغض الهنود للبنات فيكفى فى بيانه قول مؤلف كليلة ودمنة "وكان يقال : إن العاقل يعد أبويه أصدقاء ، والأخوة رفقاء ، والأزواج ألفاء ، والبنين ذكرا ، والبنات خصماء ، والأقارب غرماء ، ويعد نفسه فريدا» . (٢) ينفس : يحسد . (٣) صبح الأعشى ج ٩ ص ١٢٣

(٤) صبح الأعشى ج ٩ ص ١٢٣

وعلام يدل هذا النوع من الاستهداء ؟ يدل أولا على أن الشراب كان إذ ذاك مما تفرضه المروءة — كما يعبر أبو الفرج — فى السهرات الاخوانية ، ويدل ثانيا على أن الشراب لم يكن من الكثرة بحيث يجده الراغب حيث شاء، كما يقع ذلك اليوم فى أكثر الحواضر الشرقيـة ، وانما كان مما يدّخره المترفون، حتى استطعنا أن نرى أكثر الأدباء يستهدونه وينمقون فى طلبه الرسائل الملاح . والاستهداء والاستجداء كلمتان متقاربتان فى الرسم والنطق المدلول[1] .

٥ — وهنالك استهداء أظرف وأشرف : وهو استهداء الدواة والمداد، ونحن نعلم قيمة ذلك فى أنفس الكتّاب . وقد استهدى الببغا دواة فقال :

" أنفس الذخائر وأشرف الآمال ما كان للفضـل نسبا ، وللصـناعة والحظوة سببا ، وبالدُّوِىّ تجتنى ثمرة الصـناعة، ويُحتلب درّ الكتابة، وقد أوحش المملوكَ الدهر مما كنت أقتنيه من نفائسها، وضايقه فى وجود الرضىّ على الحقيقة منها، فان رأى مولانا أن يميط ببعض ما يستخدمه من حاليها أو عاطلها سمـة عطلة المملوك، ويسمح بإهدائها الى أهـل تصريفه، ويقابل بالنجح والتقبل رغبته، فعل، إن شاء الله تعالى[2] " .

واستهدى مداداً فقال :

"التنافس — أيدك الله ! — فى أدوات الكتابة وآلات الصناعة بحسب التفاخر فى ظهور النعمة، والتخير لبيان الإمكان والقدرة . وإلا فسائر الدوىّ سواء فيما تصدره الأقلام عنهـا، وتستمدّه بطون الكتب منها . وأولى آلاتها بأن تتوفر العناية عليه، وينصرف التخير بالضرورة اليه . المدادُ الذى هو ينبوع الآداب، وعتاد الكتّاب، ومادة الافهام، وشرب الأقلام ... ولا معدل بى عن استماحة خزائنك — عمرها الله ! — الممكن من جيده، فان رأيت أن تستنقذ دواتى من خمول العطلة، وتنزه قلمى عن ظمأ الغلة، وتكشف عنها سمـة النقصان والخلّة ، فعلت إن شاء الله تعالى[2] " .

---

(١) فى هذه اللفتة شىء من الحق ، وكل ما بين الكلمتين من الفرق أن الاستجداء يكون فيما يحتاج اليه المعوزون كالطعام وأن الاستهداء يكون فيما يحتاج اليه المترفون فى أذواقهم وان كانوا فقراء .

(٢) صبح الأعشى ج ٩ ص ١٢١

ولنلاحظ أن الببغا لا يستهدى دواة؟ ...مة ثانية فيقول ...كيف وقعت، ولا مدادا كيف كان، وانما يستهدى دواة (نفيسة) ولو كانت عاطلة، المصيبة: فأو يستهدى مدادا (جيدا) ينزه قلمه عن ظمأ الغلة، وهذا تعبير يتنفس عن شعر ... بديع. وآختيار الدواة والمداد كان ولا يزال من أوضح الدلائل على أذواق الكتّاب. وللدواة النفيسة والمداد الجيد تأثير قوى جدا فى بعث نشاط الكاتب. وكذلك تفعل الأقلام الجيدة. وهذا كلام فصلناه فى المقدمة الفرنسية التى صدرنا بها (الرسالة العذراء) فليرجع اليه القارئ هناك[1].

٦ — وقد لاحظنا أن الببغا يكتب فى الموضوع الواحد غير مرة، وفقا للظروف. من ذلك رسائله فى التهنئة بالزواج[2] والتهنئة بولاية عمل[3] والتهنئة بالقدوم من سفر[4] والتهنئة بالمواسم والاعياد.

وهذا كله طبيعى ومقبول، ولكن الطريف أن يتكرر كلامه فى التهنئة بالصرف عن الولاية، فقد نفهم أن يهنأ المرء بولاية عمل، ولكنا لا نفهم كيف يهنأ بالعزل، وما ننكر أن يقع ذلك، ولكنه فى رأينا من التكلف الممجوج، وإن كان يدل على لباقة وذكاء. ولننظر كيف يحتال الببغا فى مثل هذه الحال:

" من حل محله — أيده الله تعالى! — من رتب الرياسة والنبل، كان معظما فى حالتى الولاية والعزل. لا يقدح فى قدره تغير الأحوال، ولا ينقله عن موضعه من الفضل تنقل الأعمال، إذ كان استيحاشها للفائت من بركات نظره، بحسب أنسها — كان — بما أفادته من محمود أثره "[5].

" لو كان لمستحدث الأعمال ومستجد الولايات زيادة على ما آختصك به من كمال الفضل، ومأثور النبل، لحاذرنا انتقال ذلك بانتقال ما كنت تتولاه بمحمود كفايتك، وتحوطه

(١) وللقارئ أن يراجع كذلك ما أثبته صاحب زهر الآداب من (أوصاف آلات الكتابة والدوىّ والأقلام) ص ٢٢٩ و ٢٣٠ الطبعة الثانية. (٢) أثبت له صاحب الصبح أربع رسائل ص ٥٤ و ٥٥ ج ٩

(٣) أثبت له مؤلف الصبح ثلاث رسائل ص ٢٢ و ٢٣ ج ٩ (٤) أثبت له أربع رسائل ٣٤ و ٣٥ ج ٩

(٥) الصبح ج ٩ ص ٧٧

بنواظر نزاهتك وصيانتك، ... فالأسف فيما تنظر أولا على أن الشر فيه عليك لا منك، والفائدة فيما تتقلده بك لا لك : ولذلك كنت بالصرف مهنأ مسرورا، كما كنت فى الولاية محمودا مشكورا "[1].

٧ — وهذا الاستطراف لا يفارق الببغا : فقد كتب عدة رسائل فى التهنئة بالشفاء من المرض، يدور أكثرها حول معنى واحد : هو أنه يشارك صديقه فى العلة والشكوى . ويعجبنا من ذلك قوله :

" ما كنت أعلم أن عافيتى مقرونة بعافيتك، ولا سلامتى مضافة لسلامتك ، الى أن تحققت ذلك من مشاركتى إياك فى حالتى الألم والصحة ، والمرض والمحنة، فالحمد لله الذى شرف طبعى بمناسبتك، وجمل خلقى بملاءمتك، فيما ساء وسر، وإياه تعالى أشكر على ماخصنى به من كمال عافيتك، وسبوغ سلامتك، وسرعة إقالتك[2] " .

ولكنا نبتسم حين نراه يهنئ صديقا بالمرض فيقول :

" فى ذكر الله سيدى بهذا العارض — أماطه الله وصرفه ، وجعل صحة الأبد خلفه — ما دل على ملاحظته إياه بالعناية، إيقاظًا له من سنة الغفلة، إذ كان تعالى لا يذكر بطروق الآلام، وتنبيه العظات، غير الصفوة من عباده، الخيرة من أوليائه، فهنأه الله الفوز بأجر ما يعانيه، وحمل عنه بألطافه ثقل ما هو فيه[3] " .

ولكن لا عجب فالمرض والعزل من الطوارئ التى تحتاج الى التلطف فى المواساة، وإخراجها مخرج التهنئة فيه طرافة تغرى بالعزاء .

٨ — وقد يتفق للببغا أن يكرر العبارات والألفاظ حين يعاود الكتابة فى موضوع واحد كقوله فى التعزية :

" اتصل بى خبر المصيبة : فجدد الحسرة ، وسكب العبرة، وأضرم الحرقة، وضاعف اللوعة[4] "

---

(١) الصبح، ج ٩ ص ٧٧ (٢) ص ٦٥ (٣) ص ٧٦ (٤) ٩٦

فنراه يعيد هذه التعابير فى كلمة ثانية فيقول :

" اتصل بى خبر المصيبة : فأضرم الحسرة ، وسكب العبرة ، وقدح اللوعة ، وامترى الدمعة[١] " .

وله فى هذا عذره : فان اللغة محدودة ، وبعض المعانى يعسر الافتنان فى تلوينها أحيانا . على أنه استطاع أن يخفى فقره قليلا حين قال (أضرم الحسرة) مقابل (جدد الحسرة) وقال (قدح اللوعة) مقابل (أضرم الحرقة) وان كان كرر (سكب العبرة) بلفظها فى الرسالتين .

وكذلك كرر المعنى والعبارة فى قوله تعزيةً لصديق :

" أحسن الله فى العزاء هدايته ، وحرس من فتن المصائب بصيرته[٢] " .

وقوله :

" وحرس يقينك من اعتراض الشبهة ، وأحسن الى جميل الصبر هدايتك ، وتولى من فتن المحن رعايتك[٣] " .

ويلاحظ مثل ذلك فيما كتب من رسائل الاعتذار[٤] والتهنئة بالمنزل الجديد[٥] ، وان كان فى هذا يكرر المعانى أكثر مما يكرر الألفاظ .

٩ — لقد ضاعت رسائل الببغا ولم يبق منها إلا القليل ، وما حفظه منها القلقشندى غير موشح بالشعر ، ولكن ما حفظه الثعالبى رصّع بالمستجاد من أبياته الحسان ، حتى نجده يترجم لرسائله فيقول :

" فصل فى بيان غرر من رسائله الموصولة بمحاسن شعره "

لهذا نرجح أن يكون القلقشندى اختصر ما اختار من رسائله فأسقط ما وصلت به من الشعر البليغ ، ونرجح أن يكون الغالب على نثره أن يرصع بالشعر على عادة بعض الكتاب من الشعراء . والى القارئ نموذجا من رسالة له فى مدح سيف الدولة[٦] .

---

(١) ٩٧ (٢) ٩٦ (٣) ص ٩٧ (٤) ١٧٠ ، ١٧١ (٥) ٧٢ ، ٧٣
صبح الأعشى ج ٩ (٦) راجع ما اختار صاحب اليتيمة من رسائله ص ١٨٢ — ١٩٢ ج ١

(١٦-٢)

"الشجاعة أقل أدواته ، والبلاغة أصغر صفاته، يُطرق الدهرُ اذا نطق ، وينطق المجد اذا افتخر، فالآمال موقوفة عليه، والثناء أجمع مصروف اليه، نهض بما قعدت الملوك عن ثقله، وضعف الدهر عن معاناة مثله ، بهمم سيفية، وعزائم علوية، فرد شمل الدين جديدا، وذميم الأيام حميدا، بحق أوضحه، وخال أصلحه، وهدى أعاده، وضلال أباده .

فلا آنتزع الله الهدى عز بأسه ولا آنتزع الله الوغى عز نصره
وأحسن عن حفظ النبي وآله ورعْيِ سوام الدين توفير شكره
فما تدرك المدّاح أدنى حقوقه باغراق منظوم الكلام ونثره

لأن أدنى نعمة تستغرق جميع الشكر، وأيسر منة تفوت المبالغة فى جميل الذكر ... الخ .

١٠ — هذا ولا ننس أن نذكّر القارئ بأن فضل الببغا فى رسائله لا يقاس الى فضله و براعته فى نثره المرسل الذى دبج به قصصه الغرامية ، وقد حُفِظ له منها شاهد يعزّ على من رامه من أندى الكتّاب قلما وأسماهم بيانا[1] .

(١) تجد هذا الشاهد فى باب «الأخبار والأقاصيص» بالجزء الأول من هذا الكتاب .

٧ – الصاحب بن عباد

١ – فى ذى القعدة سنة ٣٢٦ (١) للهجرة ولد إسماعيل بن عباد فى الطالقان – وهى ولاية بين قزوين وأبهر – فى بيت معروف بالعلم والفضل، فهو ابن عباد بن العباس أحد المتفوقين فى عصره فى علوم اللغة والدين . وكانت الطالقان فيما يظهر من كلام ياقوت فى معجم البلدان من البقاع التى غلب على أهلها العلم وعرفت بالسبق فى فنون الآداب . ولسنا نعرف من بداية ابن عباد شيئا كثيرا (٢) ، ولكن يظهر من المصير الذى انتهى إليه أنه كان شابا ذكيا أعدّ نفسه لمنازل العظمة والجبروت . حدّث عن نفسه قال: حضرت مجلس ابن العميد عشية من عشايا شهر رمضان وقد حضره الفقهاء والمتكلمون للمناظرة، وأنا إذ ذاك فى ريعان شبابى ، فلما تقوّض المجلس وانصرف القوم وقد حلّ الإفطار نكرت ذلك فيما بينى وبين نفسى واستقبحت إغفاله الأمر بتفطير الحاضرين مع وفور رياسته واتساع حاله ، واعتقدت أن لا أخلّ به إذا قمت يوما مقامه . وقد تم له ذلك فكان لا يدخل عليه فى شهر رمضان بعد العصر أحد كائنا من كان فيخرج من داره إلا بعد الإفطار عنده، وكانت داره لا تخلو فى كل ليلة من ليالى شهر رمضان من ألف نفس مفطرة نبها، وكانت صلاته وصدقاته وقرباته فى هذا الشهر تبلغ مبلغ ما يطلق منها فى جميع شهور السنة (٣) .

٢ – وأول مانعرف من نباهة شأنه هو اتصاله بأبى الفضل بن العميد، فقد كان يخدمه خاصة، ثم ترقت به الحال إلى أن كتب لمؤيد الدولة بن ركن الدولة بن بويه ، ومؤيد الدولة

---

(١) هكذا ذكر ياقوت فى معجم الأدباء، وفى بغية الوعاة سنة ٣٢٤ (ص ١٩٦). (٢) فى بغية الوعاة انه كان فى الصغر اذا أراد المضىّ الى المسجد ليقرأ تعطيه والدته دينارا فى كل يوم ودرهما وتقول له تصدق بهذا على أول فقير تلقاه فكان هذا دأبه فى شبابه الى أن كبر وصار يقول للفراش كل ليلة : اطرح تحت المطرح دينارا ودرهما لئلا أنساه .

(٣) ص ٣٦ ج ٣ يتيمة الدهر .

يومئذ أمير ، فلما مات ركن الدولة وولى مؤيد الدولة بلاده بالرى وأصبهان آستوزر ابن عباد وحكّمه فى أمواله ، وكان لقّبه الصاحب فى حياة أبيه أنساً به . فلما مات مؤيد الدولة أحضر الصاحب فخر الدولة أخا مؤيد الدولة — وقد كان هرب من أخيه عضد الدولة والتجأ الى الساسانية بخراسان — وملكه البلاد ، فأقر الصاحب بن عباد على أمره ، فبقى الصاحب نافذ الحكم تتقدم كلمته على كلمة فخر الدولة الى أن مات فى ٢٤ صفر سنة ٣٨٥

قال السيوطى فى بغية الوعاة (١) : ولى الصاحب الوزارة ثمانى عشرة سنة وشهرا لمؤيد الدولة بن ركن الدولة ابن بويه وأخيه فخر الدولة ، وهو أول من سمى الصاحب من الوزراء لأنه صحب مؤيد الدولة من الصبا وسماه الصاحب فغلب عليه هذا اللقب ، ولم يعظم وزيراً مخدومَه ما عظمه فخر الدولة .

ويظهر من كلام السيوطى أن فخر الدولة كان يعظم ابن عباد لفضله ، ونحن نرجح أنه كان يوقره آتقاء لشره !

٣ — كان تكوين الصاحب من الوجهة العلمية تكوينا جيدا ، فقد أخذ الأدب عن ابن فارس وابن العميد وسمع من أبيه ؛ وحدّث وقعد للإملاء ، وآزدحم الناس على درسه ، بحيث كان له ستة من المستملين (٢) . أرسل إليه فى السر نوح بن منصور ملك خراسان يدعوه ليلقى إليه مقاليد مملكته ويعتمده لوزارته ويحكمه فى ثمرات بلاده ، فكان فيما آعتذر به الصاحب أن نقل كتبه خاصة يحتاج الى أربعمائة جمل (٣) . وأشعاره ورسائله تدل على أنه كان أعجوبة من أعاجيب زمانه وأنه كان من أوفى الناس حظا فى دقة الفهم وبراعة القول وسعة الأطلاع .

٤ — أما أخلاق الصاحب فكانت مذبذبة بين الحسن والقبح : كان كريما ولكن كرمه كان فخا ينصب لشياطين الشعراء والكتّاب . قال التوحيدى : قلت لأبى السلم نجبة بن على

---

(١) ص ١٩٦ (٢) بغية الوعاة ١٩٦ (٣) ص ٣٥ ج ٣ من يتيمة الدهر .

القوطاني الشاعر : أين ابن العميد من ابن عباد ؟ فقال : زرتهما جميعا وكان ابن العميد أعقل وكان يدعى الكرم، وابن عباد أكرم ويدعى العقل، وهما في دعواهما كاذبان[١] .

وكان الصاحب مفتونا بنفسه لا يرضيه أن يعترف لغيره بفضل أو يوفّق سواه الى حق. قال يوما لجلسائه : ما صدر قول الشاعر :

* والمورد العذب كثير الزحام *

فسكتت الجماعة، فقال ابن الدارى :

* يزدحــم الناس على بابه *

فأقبل عليه بغيظ وقال : ما عرفتك إلا متعجرفا جاهلا، أما كان لك بالجماعة أسوة[٢] ! .

وورد إلى الصاحب رجل من أهل الشام فكان فيما آستخبره عنه : رسائل مَن تُقرأ عندكم ؟ فقال : رسائل آبن عبد كان . قال : ومن ؟ قال : رسائل الصابى . وغمزه أحد جلسائه ليقول رسائل الصاحب فلم يفطن، و رآه الصاحب فقال : تغمز حمارا لا يحس[٣] ! .

وكان الصاحب يحب الفخر وآنتحال الفضائل التى ربما قصرعنها، كذلك يقول ياقوت، ويذكر فى تأييد ذلك أن الصاحب حدث أنه عند دخوله الى بغداد قصد القاضى أبا السائب عتبة بن عبيد لقضاء حقــه فتثاقل فى القيام له ، وتحفز تحفزا أراه به ضـعف حركته وقصور نهضـته، فأخذ الصاحب بضُبعه وأقامه وقال : نعيـن القاضى على قضـاء حقوق إخوانه ! فخجل أبو السائب وآعتذر إليه . والقصة وقعت لغير الصاحب ولكنه انتحلها لنفسه وحكاها فى مجلس أنسه فشاعت عنه[٤] .

وسُمع الصاحب يقول : ما بقى من أوطارى وأغراضى إلا أن أملك العراق وأتصـدر ببغداد وأستكتب أبا إسحاق الصابى ويكتب عنى وأغيّر عليه[٥] . وهى شهوة قاهرة أن يسيطر على الصابى أحد أعلام ذلك الزمان. والشواهد على ضعف عقل الصاحب وخلقه كثيرة جدا

(١) ص ٣٠١ ج ٢ ياقوت . (٢) ص ٣٠٠ ج ٢ ياقوت . (٣) ص ٣١٥ ج ٢ ياقوت .
(٤) ص ٣٣٨ و ٣٣٩ ج ٢ ياقوت . (٥) ص ٣٣٧ ج ٢ ياقوت .

يراها القارئ مبثوثة فى معجم الأدباء ، ولكن أكثر ما أخذ عليه مكتوب بقلم أبى حيان التوحيدى ، والتوحيدى غير عدل فى هذا الباب لأن كلامه على الصاحب كلام موتور يحمله حقده على الكذب والافتراء، ومع هذا فقد قال التوحيدى عند ما قارب الفراغ من كتابه أخلاق الوزيرين الذى وضعه للحط من قدر ابن العميد وابن عباد : « ولولا أن هذين الرجلين كانا كبيرىْ زمانهما ، وإليهما انتهت الأمور، وعليهما طلعت شمس الفضل، وبهما ازدانت الدنيا ، وكانا بحيث ينشر الحسن منهما نشرا ، والقبيح يؤثر عنهما أثرا ، لكنت لا أتسكع فى حديثهما هذا التسكع، ولا أنحى عليهما بهذا الحدّ، ولكن النقص ممن يدعى التمام أشنع. والحرمان من السيد المأمول فاقرة، والجهل من العالم منكر، والكبيرة ممن يدعى العصمة جائحة، والبخل ممن يتبرأ منه بدعواه عجيب . ولو أردت مع هذا كله أن تجد لهما ثالثا فى جميع من كتب للجبل والديلم الى وقتك هذا المؤرخ فى الكتاب لم تجد» [1] .

٥ — وما اختلقه التوحيدى على ابن عباد يدل على أمرين : الأول أن ابن عباد كان شخصية بارزة جدا ، شطرت الناس شطرين فشطر عدوّ وشطر صديق ، فاستطاع ابن عباد لذلك أن يذكر وهو مفتون انه مدح بمائة ألف قصيدة عربية وفارسية [2] .

واستطاع التوحيدى وأضرابه من الطامعين الحاسدين أن يفتنّوا فى ذمه وثلبه وأن يجدوا آذانا تستطيب ما يقال فيه من الاثم والبهتان. الأمر الثانى تفوق أهل ذلك الزمان فى الهجاء. ففى ما كتبه التوحيدى شواهد كثيرة تدل على أنهم كانوا يعرفون كيف تكون السخرية وكيف يكون التعريض اللذاع . فمن ذلك ماعرضه التوحيدى فى التدليل على غرام الصاحب بالمدح وتهافت أصحابه فى إرضاء شهوته الى الثناء . قال : ولقد بلغ من ركاكته أنه كان عنده أبو طالب العلوى فكان اذا سمع منه كلاما يسجع فيه وخبرا ينمقه يبلق عينيه وينشر منخريه ويرى أنه قد لحقه غشى حتى يرش على وجهه ماء الورد، فاذا أفاق قيل: ما أصابك؟ ما عراك ؟ ما الذى نالك وتغشاك ؟ فيقول : ما زال كلام مولاى يروقنى ويؤنقنى حتى

---

(١) ص ٣٠٢ و ٣٠٣ ج ٢ ياقوت . (٢) بغية الوعاة ١٩٦

فارقنى لبى، وزايلنى عقلى، وانشرحت مفاصلى، وتخاذلت عرى قلبى، وذهل ذهنى، وحيل بينى وبين رشدى . فيتهلل وجه ابن عباد عند ذلك ويتنفس ويضحك عُجبا وجهلا . ثم يأمر له بالحباء والتكرمة ويقدّمه على جميع بنى أبيه وعمه[1] .

والتوحيدى بعد أن يقص هذا يقول : « ومن ينخدع هكذا فهو بالنساء الرعن أشبه . وبالصبيان الضعاف أمثل » ونحن لانستبعد أن يقع ابن عباد فى مثل هذا الضعف الخلق، فان الرؤساء كثيرا مايؤخذ عليهم انحلال الخلق من هذه الناحية، وهم يغارون غيرة شديدة على نفوذهم ومكانتهم الاجتماعية، ويعملون خبثا أو جهلا على التحدّث بمواهبهم والإشادة بما يزعمون أنهم آنفردوا به من قوة البأس وفصاحة المنطق وذكاء الجنان . ولكن العجيب حقا هو هذه الصورة التى وضعها التوحيدى للتملق السخيف المرذول الذى يقع فيه المفلسون من الأتباع السخفاء .

٦ — ومن الصور التى وضعها التوحيدى لغرور آبن عباد القصة الآتية :

« ناظر آبن عباد بالرى اليهودىَّ رأس الجالوت فى إعجاز القرآن، فراجعه اليهودى فيه طويلا حتى آحتدّ وكاد يتقد، فآحتال اليهودى فى مخاتلته وقال :

أيها الصاحب ! لم تتقد وتستشيط وتلتهب وتحتلط ؟ كيف يكون القرآن عندى آية ودلالة ومعجزة من جهة نظمه وتأليفه . فان كان النظم والتأليف بديعين وكان البلغاء فيما تدعى عنه عاجزين وله مذعنين فهأنا أصدق عن نفسى وأقول ما عندى : إن رسائلك وكلامك وفقرك وما تؤلفه وتباده به نظما ونثرا هو فوق ذاك، أو مثل ذلك وقريب منه، وعلى كل حال فليس يظهر لى أنه دونه، وأن ذلك يستعلى عليه بوجه من وجوه الكلام أو بمرتبة من مراتب البلاغة .

فلما سمع ابن عباد هذا فتر وخمد وسكن عن حركته وقال : ولا هكذا يا شيخ ! كلامنا حسن وبليغ وقد أخذ من الجزالة حظا وافرا، ومن البيان نصيبا ظاهرا، ولكن القرآن له

(١) ٣٠٤ ج ٢ ياقوت .

المزية التى لا تجهل، والشرف الذى لا يجهل ، وأين ماخلقه الله على أتم حسن وبهاء مما يخلقه العبد بطلب وتكلف .

وهــذا كله يقوله وقد خبا حميه وتراجع مزاجه وصارت ناره رمادا مع إعجاب شديد قد شاع فى أعطافه ، وفرح غالب قد دب فى أسارير وجهه لأنه رأى كلامه يبدو لليهود وأهـل الملل شبيها بالقرآن[1] .

فهذه أيضا صورة جميــلة من صور التوحيدى، وليس يضـيرها أن تكون مختلقة . فقد تكون صور الواقع أفظع من صور الاختلاق ، والمهم أن التوحيدى أعطانا على حساب ابن عباد صورة متقنة من صور الضعف واللؤم التى نراها غالبا فى الرؤساء المفتونين ، وربما كان الصاحب أقرب من غيره الى طهارة القلب لأنه ينخدع ، وقد ينخدع الكريم ، على حين نرى من الرؤساء من يطرب و يرقص لثناء أتباعه عليه، وفنائهم فيــه، ولكنه لا يزال يتشبث بأذيال التعقل فيدرك أنهـم يثنون عليــه راغبين أو راهبين، ويبيّت لهم من الحقد والضغينة والكيد ماقد ينكشف عن قاصمة الظهر أو مُنـدية الجبين . وأمثال هؤلاء صغار فى أنفسهم، إذ يحدث أحيانا أن يمدحهم الناس صادقين، فيظنون لهوانهـم على سرائرهم أن مايوجه اليهم من المديح ليس إلا ضربا من ضروب الختل والخداع .

٧ – وللتوحيدى مفتريات كثيرة على ابن عباد تدل على حذق بالغ وخيال عجيب، وقد أراد التوحيــدى أن يدارى تحامله فأضاف الى ابن عباد بعض الأجوبة المفحمة، فى شـؤون كثيرة، بعضها مما لاتصلح روايته، ومنها الفكاهة الآتية :

” قال قوم من أصبهان لابن عبــاد : لو كان القرآن مخلوقا لجــاز أن يموت ، ولو مات القرآن فى آخر شعبان بماذا كنا نصلى التراويح فى رمضان ؟ فقال ، لو مات القرآن كان رمضان يموت أيضا، ويقول : لا حياة لى بعدك، ولا نصلى التراويح ونستريح[2] ! “ .

---

(١) ص ٢٩٧ بتصرف قليل . (٢) ص ٣٩٦ ج ٢ ياقوت .

وهـذه الفكاهة تمثـل روح الارتياب الذى كان يدب فى صـدور أهل ذلك العصر . والتوحيدى هنا متسامح مع الصاحب لأنه يريد أن يصـل عن طريقه الى نشر هـذه النكتة برفق ولطف ، ولا ينس القارئ دقة الخيـال فى كلمة : لو مات القرآن فى آخر شعبان بمـاذا كنا نصـلى التراويح فى رمضان ! مع أن التراويح ليست كل شيء فى الاسـلام ، وانمـا أراد الكاتب أن يصل الى أن رمضان كان يموت ! ورمضان عند كتّاب القرن الرابع شيء ثقيل ، هجاه من بينهم بديع الزمان وأبو الفضل بن العميد .

٨ — ومن دلائل عظمة الصاحب أن المؤرخين أطالوا الخلاف فى تقرير فضله ، فبينما التوحيدى يلح فى ثلبـه وتنقصه والزراية به ، والإنحاء عليـه ، يقوم الثعالبى من جانب آخر فيقول فيه :

" ليست تحضرنى عبارة أرضاها للافصاح عن علو محله فى العـلم والأدب ، وجلال شأنه فى الجود والكرم ، وتفرده بغايات المحاسن ، وجمعه أشـتات المفاخر ، لأن همة قولى تنخفض عن بلوغ أدنى فضائله ومعاليـه ، وجهد وصفى يقصر عن أيسر فواضله ومساعيه ، ولكنى أقول هو صدر المشرق ، وتاريخ المجد وغرة الزمان ، وينبوع العدل والاحسان ، ومن لا حرج فى مدحه بكل مايمدح به مخـلوق ، ولولاه ماقامت للفضـل فى دهرنا سوق ، وكانت أيامه للعلوية والعلماء ، والأدباء والشعراء ، وحضرته محط رحالهم ، وموسم فضلائهم ، ومترع آمالهم ، وأمواله مصروفة اليهم ، وصنائعه مقصورة عليهم ، وهمته فى مجد يشيّده ، وإنعام يجدّده ، وفاضل يصطنعه ، وكلام حسن يصنعه أو يسمعه . ولمـا كان نادرة عطارد فى البلاغة ، وواسـطة عقد الدهر فى السماحة ، جلب إليـه من الآفاق وأقاصى البـلاد كل خطاب جزل ، وقول فصـل ، وصارت حضرته مشرعا لروائع الكلام ، وبدائع الأفهام ، وثمـار الخواطر ، ومجلسه مجمعا لصوب العقول ، وذوب العلوم ، ودرر القرائح ، فبلغ من البلاغة ما يعـد فى السحر ، ويكاد يدخل فى حد الإعجـاز ، وسار كلامه مسير الشمس ، ونظم ناحيتى الشرق والغرب ، واحتف به من نجوم الأرض ، وأفراد العصر ، وأبناء الفضل ، وفرسان الشعر ، من يربى عددهم

على شعراء الرشيد، ولا يقصرون عنهم فى الأخذ برقاب القوافى، وملك رق المعانى، فانه لم يجتمع بباب أحد من الخلفاء والملوك مثل ما اجتمع بباب الرشيد من فحول الشعراء المذكورين. الخ"[1].

وهنا مضى الثعالبى يسرد أسماء الشعراء والكتاب والخطباء الذين قدموا على الصاحب أو كاتبوه: كأبى الحسن السلامى، وأبى بكر الخوارزمى، وأبى طالب المأمونى، وأبى الحسن البديهى، وأبى سعيد الرستمى، وأبى القاسم الزعفرانى، وأبى العباس الضبى. الخ. الخ[2].

٩ — ونحن لو تعقبنا من آتصلوا بالصاحب ممن ورد ذكرهم فى كتب الأدب لرأيناهم نحو المائة أو يزيدون من مشاهير الرجال الذين أثروا فى عصرهم وفيما تلاه من العصور أبلغ تأثير، ولهؤلاء الذين عرفوا الصاحب فرضوا عنه، أو غضبوا عليه، أثر كبير فيما نسب إليه من المناقب، أو حمل عليه من المثالب. ولهم كذلك أثر فيما عرف من طيشه، وغروره، وصلفه، وتحامله، أو بره، وجوده، وفضله، وتطوله، فان إقبال الرجال المشاهير على الرجل العبقرى يرهف حواسه ومشاعره، ويوقظ ما غفا فيه من كريم الشمائل، وسيئ الطباع. والانسان فى جملته مجموعة مختلفة من الحسن والقبح، والتسامى والإسفاف، وإقبال الدهر وإدباره يكشفان عن أسرار الغرائز والميول، وقلما تظهر محاسن الناس ومساويهم إلا حين يرتفعون، أو حين ينخفضون، أما الرجل الذى يعيش عيشة وسطا لا مجال فيها للزهو أو الحقد فانه يظل مستور النحائز والخلال، وكذلك تأثر الصاحب بحاشيته فاولع بالاغراب، وكلف بالظهور على معاصريه من الكتاب والشعراء، وجرت له مع قاصديه من أرباب الحاجات نكت سارت مسير الأمثال. فقد ذكروا أن بعض أصحابه كتب إليه رقعة فى حاجة، فوقع فيها، ولما وردت إليه لم ير فيها توقيعا، وقد تواترت الأخبار بوقوع التوقيع فيها. فعرضها على أبى العباس الضبى فما زال يتصفحها حتى عثر بالتوقيع وهو ألف واحدة، وكان فى الرقعة: "فان رأى مولانا أن ينعم بكذا فعل" فأثبت الصاحب أمام «فعل» ألفا، يعنى «أفعل»[3].

(١) ص ٣١ و ٣٢ ج ٣ يتيمة. (٢) انظر ص ٣٢ ج ٣ (٣) ص ٣٨ ج ٣ يتيمة.

وكتب بعض العمال رقعة اليه فى ٱلتماس شغل ، وفى الرقعة : "إن رأى مولانا أن يأمر بإشغالى ببعض أشغاله" فوقع تحتها : "من كتب إشغالى لا يصلح لأشغالى"[1] .

ورفع الضرّابون من دار الضرب قصة الى الصاحب فى ظلامة لهم مترجمة بالضرابين فوقع تحتها : "فى حديد بارد"[1] .

١٠ — وقد وصل به الإغراب الى أن يكتب فى معان بعيدة عما ألف الكتّابة فيه من شئون العقل والوجدان . قال الثعالبي : "سمعت أبا جعفر الطبيب المعروف بالبلاذرى يقول إن للصاحب رسالة فى الطب لو علمها ابن قرة وابن زكريا لما زاد عليها ، فسألته أن يعيرنيها إن كانت عنده ، فذكر أنها فى جملة ما غاب عنه من كتبه ، فٱستغربت وٱستبعدت ما حكاه من تطبب الصاحب ، ونسبته فى نفسى الى التزيد والتكثر الى أن ظفرت فى نسخة الرسائل المؤلفة المبوبة للصاحب برسالة قدّرتها تلك التى ذكرها أبو جعفر ووجدتها تجمع الى ملاحة البلاغة ، ورشاقة العبارة ، حسنَ التصرف فى لطائف الطب وخصائصه ، وتدل على التبحر فى علمه وقوة المعرفة بدقائقه"[2] .

والمهم فى هذا هو ٱرتياب الثعالبي فيما نسب الى الصاحب من التطبب وظنه أن ذلك قد يكون من التزيد والتكثر . ففى هذا اشارة الى أن الصاحب كان مبتلى بحاشيته يتقولون عليه الأقاويل . أما أنا فأرجح أن رسالة الصاحب فى التطبب لم تكتب الا معارضة للخوارزمى فى رسالة كتبها الى أحد تلامذته فى نفس المعنى ، وفى هذا دليل على أن الصاحب تأثر بمن اتصل به من الكتاب كما أثر فيهم .

١١ — وهنا ملاحظة لا بدّ منها : ذلك أن الخوارزمى والصاحب حين كتبا فى الطب استطاعا أن يقيما البرهان على أن الكاتب القدير يستطيع أن يضع المسائل الجافة فى لغة جميلة تفيض بالعذوبة واللين ، مع أن فى بعض الموضوعات خشونة طبيعية لا تألف لغة السجع والتورية والجناس ، واليك نموذجا من رسالة الصاحب الى صديق شكا اليه علة ألمت به :

---

(١) ص ٣٨ ج ٣ يتيمة . (٢) ص ٤٢ ج ٣ يتيمة .

"وقد عرفت ما شرحه مولاى من أمره، وأنبأ عنه من أحوال جسمه. فأما جمعته على بعد أن البيت يحتاج معها الى البصيرة المستقيمة، والرفق بالتصفية. فأما الذي يشكوه من ضعف معدته، وقلة شهوته، فلأمرين: أحدهما أن الجسم كلما قلت تغذيته لم يتوق فتصدق الشهوة الصادقة، وترجع العادة السابقة، والآخر أن المعدة اذا دامت عليها الملطفات، ولزت بها المبردات، قلت الشهوة، وضعف الهضم، ومع ذلك فلا بد مما يطفئ ويغذى، ثم يمكن من بعد أن يتدارك ضعف المعدة بما يتقوى منها، ويزيل العرض المكتسب عنها ... والأقراص في آخر الحميات خير ما نقيت به المعدة، وأصلحت به العروق، وقوى به الطحال، ليتمكن من جذب الكدر، لا سيما والذي وجده مولاى ليس الذنب فيه للحميات التي وجدها، والبلادة التي وردها، فلو صادف الهواء المتغير جسما نقيا من الفضول لما أثر هذا التأثير، ولا طول هذا التطويل ... الخ. وهي رسالة طويلة"[1].

واليك قطعة من رسالة الخوارزمي الى تلميذ له وقد ظهر عليه الجدري :

"هذه العلة وإن كانت موجعة، وفي رأي العين فظيعة شنعة، فإنها الى السلامة أقرب، وطريقها الى الحياة أقصد، لأن عين الطبيب تقع عليها، ويد المرض والمعالج تصل اليها، وإنما هي قرح نبهته الطبيعة، ودم أثارته الحرارة، وظاهر الداء أسلم من باطنه، وبروز الجرح أهون من كامنه، وهذه بعد علة تعم الأبدان، وتشمل الصبيان، وإذا كانت العلة عامة كانت أكثر طبا ودواء، وأخف على القلوب أعباء، لأن النفس تستريح الى المشاركة وتأنس بالجماعة كما تستوحش من الوحدة. ولعمري إنها تورث سواد اللون، وتذهب من الوجه بديباجة الحسن، ولكن ذلك يسير في جنب السلامة للروح اللطيفة، والنفس الشريفة، وفي الشر خيار، ومن المحنة الى المحنة صروف وأقدار ... الخ"[2].

وللخوارزمي رسالة أخرى طويلة كتبها الى بعض الأمراء وقد ورد عليه كتابه يشكو فيه الجرب، نقتبس منها الفقرات الآتية :

(١) أنظر الصفحات ٤٢ — ٤٤ ج ٣ يتيمة. (٢) ص ١٥٣ من رسائل الخوارزمي.

"... الجرب حكة مادتها يبوسة وحرارة ووقود والتهاب، زندهما الذى يقتبسان منه طعامٌ وشراب، وفضلة قذفتها الطبيعة الى ظاهر البدن، ودفع الله تعالى شرها عن الباطن، وعسكر من عساكر البلاء تمده القذارة، وتهزمه الطهارة، وتنقص منه البرودة والرطوبة، كما تزيد فيه اليبوسة والحرارة . ومن داوى ظاهره وترك باطنه، فانما يبل حائطا وراءه النار الموقدة، ويرش على سطح بيت فيه الشرر المبثوثة، ويقعد تحت قول الأول :

خليلىّ داويتما ظاهرا فمن ذا يداوى جوى باطنا

وكيف تقطع مادة نار تطفأ عن ظاهر الجسد، وهى تتوقد فى باطن الكبد ... أرى لسيدى أن يصبر على الجوع مع مرارته، وعلى العطش مع حرارته، وأن يقتصر من الطعام على مايكون فى أوسط طبقات الرطوبة، وفى أعدل موازين البرودة، ولابدّ من هجر اللحم والفاكهة ولا سبيل الى الحرافة . فأما البقول فيجب أن لا ترى ولو فى المنام، ولا تمس ولو بالأوهام، والسمك وما ناسبه بلية، واللبن وما خرج منه منية».. وهذه علة تكسب صاحبها خزاية وحياء، وتورثه خجلا واسترخاء، ينظر الى الناس بعين المريب، ويتستر عنهم كتستر المعيب، تنفر عنه الطباع، وتستقذره النفوس، وتنبو عن مؤاكلته العيون، ...ولولم يكن من دقائق آفاتها، ومن عجيب هناتها، إلا أنها تسيخ الفتيان، وتمسخ الانسان، وتجعله أميا بعد أن كان غير أمى، وأعجميا وليس بأعجمى، تنفر من نفسه نفسه، وتهرب من فراشه عرسه، ويتباعد عنه أقرب الناس منه، لقد كانت جديرة أن يحتشد لدوائها، وتبذل الرغائب فى فنائها، ثم هى ربع من أرباع الخذلان، وقسم من أقسام الحرمان . قال الشاعر :

أعاذك الله من أشياء أربعة الموت والعشق والافلاس والجرب (١)

١٢ — ولو أن تلك الرسائل أرّخت لاستطعنا أن نعرف أى الكاتبين أسبق الى الكتابة فى المعانى الطبية التى ظنها الثعالبى بعيدة عن متناول الكتاب . والصلة بين الصاحب والخوارزمى

(١) ص ١١٠ — ١١٢ رسائل الخوارزمى .

كانت قوية تسمح لأحدهما بأن يقف على ما يكتب الآخر ، وان كانت ضعفت بعد ذلك ، حتى كتب الخوارزمى الى الصاحب يعاتبه :

"...ولقد كانت أيامى بحضرة الوزير قصارا ، وكان ليلى بها نهارا ، وساعاتى فيها أسحارا ، كما أن أيام فراقه أيام طوال ، وليلة فراقه تعدّ بليال ، وانى بعد صبرى على فراقه لجلد على وقع سهام الهجر ، واسع المجال فى ميدان الصبر..."[1] الخ .

١٣ — ولم يقف الصاحب فى الإغراب عند حد معقول ، وانما مضى يغرب فى الصنعة شعرا ونثرًا ، فوضع قصيدة تبلغ سبعين بيتا خالية من الألف ، وهى أكثر الحروف دخولا فى المنظوم والمنثور ، مطلعها :

قد ظل يجرح صدرى   من ليس يعدوه فكرى

وقد سارت هذه القصيدة ، واستمر الصاحب فعمل عدّة قصائد كل واحدة خالية من حرف من حروف الهجاء ، وبقيت عليه واحدة تكون معراة من الواو ، فانبرى أبو الحسين الهمذانى وقال قصيدة ليس فيها واو ، ومدح الصاحب فى أثنائها . وأولها :

برق ذكرت به الحبائب   لما بدا فالدمع ساكب

أمدامعى منهلة   هاتيك أم غزر السحائب

نثرت لآلئ أدمع   لم يفترعها كف ثاقب[2]

وقد أخطأ المسيو ميتس (Mez) حين ظن أن الهمذانى الذى صنع هذه القصيدة هو الهمذانى صاحب المقامات[3] . كلا ، فهذا على بن الحسين ، وذاك بديع الزمان أحمد بن الحسين .

والصاحب مسبوق فى هذا النوع من الانشاء ، سبقه واصل بن عطاء الذى تجنب حرف الراء فى خطبه وأحاديثه مع كثرة دوران ذلك الحرف فى الكلام . لكن ابن عطاء كان مضطرا لذلك ، إذ كان ألثغ ، أما الصاحب فيمضى فى هذا الفن صنعة وتكلفا ليكاثر معاصريه من

(١) ص ١٥٢ رسائل .   (٢) ص ٢٢٣ ج ٣ يتيمة .

(٣) ترجمة المسيو روش الفرنسية التى تفضل فأعطانا نسخة منها قبل أن تطبع .

الكتّاب والشعراء . ومن المحتمل أن يكون الصاحب هو الذى أثار فى أبى العلاء فكرة التزام مالا يلزم، وهو نوع من التكلف أثقل به ديوان اللزوميات .

١٤ — قلت إن الصاحب كان شديد الرغبة فى آستعباد الكتّاب والشعراء، وقد نال من ذلك مبتغاه . ولكن المتنبي استعصى عليه وترفع عن مدحه والانتساب اليه . فأسرها الصاحب فى نفسه وأخذ يؤلب النقاد والكتّاب ضده ويحملهم على مهاجمته والنيـل من قدره . ويمكن الحكم بان الحملات التى هوجم بهـا المتنبي وهو حى كان أكثرها بتحريض الصاحب والمهلبي، وكلاهما كان يطمع فى انحياز المتنبي اليـه . وقد اشترك الصاحب بنفسـه فى مهاجمة المتنبي فكتب رسالة نقد بها شعره . وهى رسالة يغلب فيها التحامل، ولكنها مع ذلك رسالة قيمة، تدل على فهمه للشعر وبصره بالنقد . ذكر فى مقدّمتها أنه كان يذاكر بعض المتأدبين فسأله عن المتنبي، فأجاب الصاحب : انه بعيـد المرمى فى شعره، كثير الإصابة فى نظمه، إلا أنه ربمـا يأتى [illegible]قدة الغراء، مشفوعة بالكلمة العوراء . فهاج محادثه وانزعج، وآدعى أن شعر المتن[illegible] هو الموت لم يصفى [illegible] الأقسام، ولم يرض حتى تحداه فقال : ان كان الأمر كما زعمت

ولم يجتنب للبنائه [illegible] بالخطبة ما تذكره، لتتصفحه العيون، وتسبكه العقول .

يحـل عُرى ا[illegible]

[illegible]، وإن لم يكن تطلّب العثرات من شيمتى، ولا تتبع الزلات من طريـ[illegible]

وليس عجيبا أن [illegible] عالم لا يهفو، وأى صارم لا ينبو، وأى جواد لا يكبو، وانمـا فعلت [illegible]

ولكن عريض [illegible] جريض [illegible] رض انى ممن يروى قبل أن يروى، ويخبر قبل أن يخبرُ، فآسمع وأنصـ[illegible]

مبلغ الفتيان أن [illegible]، فما أوردت فيه إلا قليـلا، ولا ذكرت من عظيم عيوبه إلا يسـيرا . وقد بلّينا بزمن يكاد المنسم فيـه يعلو الغارب، ومنينا بأعيار أغمار اغتروا بمادح الجهال، لا يضرعون لمن حلب الأدب أفاويقه، والعلم أشطره، لا سيما على الشعر فهو فويق الثريا وهم دون الثرى، وقـد يوهمون أنهم يعرفون فاذا حكموا رأيت بهـائم مرسنة، وانعاما مجفـلة[1] .

(١) ص ٢٢١ «الكشف عن مساوى المتنبي» .

وهـذه الفقرة تدل على أن الصاحب كان ضيق الصدر يؤذيه أن يذكر المتنبي بخـير . فالمتنبي عنده رجل رفعه الزمن الجائر وأنصار المتنبي عنده أنعام لا يسمعون ولا يعقلون !

١٥ — وقد رأى الصاحب بعد ذلك أن يخبرنا أنه أعدّ للنقد عدته : بمجالس الشعراء، وكاثر الأدباء، وباحث الفضلاء، عشرين سنة، وأخذ عن رواة المبرد وكتب عن أصحاب ثعلب عشرين سنة أخرى . وذكر لنا بهذه المناسبة أنه لم يجد فيمن صحب من يفهم الشعر كما يفهمه أبو الفضـل بن العميد "فانه يتجاوز نقـد الأبيات الى نقد الحروف والكلمات، ولا يرضى بتهذيب المعنى حتى يطالب بتخير القافية والوزن" ثم مضى فى سرد الأحاديث التى وقعت بينه وبين ابن العميد فى نقد الشعر، الى أن قال : "وسمعته أيده الله يقول : إن أكثر الشعراء ليس يدرون كيف يجب أن يوضع الشعر ، ويبتدأ النسج، لأن حق الشاعر أن يتأمل الغـرض الذى قصده، والمعنى الذى اعتمده، وينظر فى أى الأوزان يكون أحسن استمرارا، ومع أى القوافى يحصل أجمل اطراد، فيركب مر[كبـ]ـا لا يخشى انقطاعه والتياثه عليه"[1] [...] فانبرى ا

ونحن نستجيد رأى ابن العميد فى تجاوز نقد الأبيات الى [...]ها . وأولها : [...]

ونرجح أن ابن شُهيد الأندلسى تأثر بهذا الرأى حين قال : "إن [...]مع ساكب فى الكلام، فاذا جاور النسيب النسيب، ومازج القريب القريب[...]ر السحائب الصحبة"[2] . [...] كف ثاقب (٢)

١٦ — وليس يهمنا أن نلخص ذلك الكتاب ، فلنكت[ف بـ]ـذانى الذى صنع هـذه ال[...] [...]يدة المتنبي فى رثاء أم سيف الدولة ليكون نموذجا لبقية المآخذ . قال الصاحب [...]اك بديع الزمان [...]

" ولقد مررت على مرثية له فى أم سيف الدولة تدل مع فساد الحسّ ، على سوء أدب النفس، وما ظنك بمن يخاطب ملكا فى أمه بقوله :

* رواقُ العز فوقك مسبطرٌّ *

---

(١) ص ٨ (٢) ص ١١٨ ح ١ من الذخيرة لابن بسام . مخطوط .

٥ — قلت : إن أبا عامر بن شهيد كان يحب الحياة حبا شديدا، وكان يرى العيش كل العيش فى معاقرة الجمال والصهباء ؛ فلنذكر الآن أنه كان لذلك من أشد الناس إحساسا بكراهة الموت ، وقد بلغ من تفزعه أن شعر معاصروه جميعا بألمه وآمتعاضه وتهالكه على التشبث بأذيال الحياة .

قال آبن بسام : " ولما طال بأبى عامر ألمه ، وتزايد سقمه ، وغلب عليه الفالج الذى عرض له فى مستهل ذى القعدة سنة خمس وعشرين وأربعمائة، لم يعد له حركة ولا تقلب، وكان يمشى الى حاجته على عصا مرة، وآعتمادا على انسان مرة ، الى قبل وفاته بعشرين يوما فانه صار حجرا لا يبرح ولا يتقلب، ولا يحتمل أن يحرك لعظيم الأوجاع مع ضغط الأنفاس وعدم الصبر حتى هم بقتل نفسه[1] " .

فلنتصور قسوة المرض التى تحمل رجلا كابن شهيد على التفكير فى الانتحار ، ولنقرأ ذلك :

هو الموت لم يُصمِنى وأندب نبلها	إذا أنا فى الضراء أزمعت قتلها
ولم يجتنب للبر الله فى كل حالة	على وأحكاما تيقنت عدلها
يحل عُرى اجتنبنى العصا	على ضعف ساق أوهن السقم رجلها
وليس عجيبا أن نمت وكربة	كنسفت ودار كنت فى المحل و بلها
ولكن عريض بالجريض[2] بعثته	الى خطبة لا ينكر الجمع فضلها
فمن مبلغ الفتيان أن أخاهمو	أخو فتكة شنعاء ما كان شكلها
عليكم سلامٌ من فتى عضه الردى	فلم ينس عينا ثبتت فيه نبلها
يبين وكف الموت يخلع نفسه	وداخلها حب يهوّن ثكلها

ولم يفت ابن شهيد أن يظل على عنف المرض ظريف الحس والروح ، فقد حدث أبو بكر المصحفى قال :

(١) الدخيرة ص ١٦٥ ج ١ (٢) الجريض بالجيم الريق ، وهى فى نسخة الدخيرة بالحاء المهملة .

دخلت يوما على أبى عامر بن شهيد، وقد ابتدأت علته التى مات منها، فأنس بى وجرى الحديث الى أن شكوت له تجنى بعض إخوانى علىّ ونفاره عنى ، فقال : سأسعى لإصلاح ذات البين . فاتفق لقائى لذلك المتجنى مع بعض إخوانى وأعزهم علىّ ، فلما رآنى موليا عن ذلك الصديق أنكر علىّ وسأل عن السبب الموجب . فأخبره وزادا فى مشيهما حتى لحقانى ، وعزم علىّ فى تكليم صاحبى، وتعاتبنا عتابا أرق من الهوى ، وأشهى من الماء على الظما ، حتى جئنا دار أبى عامر ، فلما رآنا جميعا ضحك وقال : من كان تولى إصلاح ما سررنا بفساده؟ قلنا : قد كان ما كان! فأطرق مليا ثم أنشد :

من لا أسمى ولا أبوح به أصلح بينى وبين من أهوى
أرسلت من كبدى الهوى فدرى كيف تداوَى مواضع البلوى
ولى حقوق فى الحب ظاهرة لكن إلفى يعدها دعوى [1]

وحدّث المصحفى أيضا قال : دخلت عليه يوما فى تلك العلة ومعى [illegible] إخواننا، وكان أبو عامر قبل ذلك يحب ممازحته فينافره ، حتى [illegible] :
إخوانه بشعر مسه فيه بطرف لسانه ، فقال له ذلك الغلام : [illegible] ساكب
تتثبت فى أمرى ، ولا تعلم من سرى ما يوجب ذلك ، فقال [illegible] السحائب
القراطيس والصدور . وكان ذلك إثر صلاة العشاء الأولى [illegible] كف ثاقب [2] [illegible] سرفنا اليه
فأنشدنا :

ألا بأبى زائر فى العتم بوجه يجلِّى سواد الظُّلم
تكتّم بالليل فى ظله وهل يمكن الصبح أن يكتتم
أتى يستجير الينا به كما جاور البان رطب العَنم [2]

وقد أخذ ابن شهيد يخاطب بالشعر أحبابه وأصدقاءه خطاب الوداع فأرسل الى أبى محمد ابن حزم هذه الأبيات :

---

(١) الذخيرة ص ١٦٣ ج ١ (٢) للقصيدة بقية طويلة يجدها القارئ فى الذخيرة ص ١٦٤ ج ١

ولما رأيت العيش ولّى برأسه وأيقنت أن الموت لاشك لاحق
تمنيت أنى ساكن فى عباءة بأعلى مهب الريح فى رأس شاهق
خليلىّ من ذاق المنية مرة فقد ذقتها خمسين قولة صادق
كأنى وقد حان ٱرتحالى ولم أفز قديما من الدنيا بلمحة بارق
فمن مبلغٌ عنى ابن حزم وكان لى يدا فى ملماتى وعند مضايق
عليك سلام الله إنى مفارق وحسبك زادا من حبيب مفارق
فلا تنس تأبينى اذا ما فقدتنى وتذكار أيامى وفضل خلائقى (١)

— وكان ابن شهيد يشعر أنه أهلٌ لأن يُبكَى حين يموت، ويقول فى ذلك :

سقى الله فتيانا كأن وجوههم وجوه مصابيح النجوم الزواهر
اذا ذكرونى والثرى فوق أعظمى بكوا بعيون كالسحاب المواطر
يقولون : قد أودى أبو عامر العلى أقلّوا فقدما مات أبناء عامر
هو الموت لم يُصرف بأجراس خاطب (٢) بليغ ولم يُعطف بأنفاس شاعر
ولم يجتنب للبطش مهجة قادر قوىّ ولا للضعف مهجة صابر
يحل عُرى الجبار فى دار ملكه ويهفو بنفس الشارب المتساكر
وليس عجيبا أن تدانت منيتى يصدق فيها أولى أمر آخرى
ولكن عجيب أن بين جوانحى هوى كشرار الجُمرة المتطاير
يحركنى والموت يحفر همتى (٣) ويهتاجنى والنفس عند حناجرى

وهذا حقًّا عجيب، فان ابن شهيد ظل يتلهف فى أيام علته المهلكة الى محبوب له اسمه عمرو، وكان حبه له مشهورا يعرفه القريب والبعيد، ولننظر كيف يتوجع وهو يخاطبه خطاب المفارق المشتاق :

(١) انظر جواب ابن حزم على هذه الابيات فى ص ١٦٦ ج ١ من الذخيرة . (٢) الخاطب : الخطيب وهى لفظة قليلة الاستعمال وأذكر أنى رأيتها فى كلام الجاحظ، وهى أكثر موازنة لكلمة كاتب وكلمة شاعر .
(٣) يحفر : يقطع .

إقر السلام على الأصحاب أجمعهم وخُصّ عمرًا بأزكي نور تسليم
وقل له يا أعز الناس كلهم شخصا علىّ وأولاهم بتكريم
الله جارك من ذى منعة ظفرت منه الليالى "بإلف" غير مظلوم
ما كان حبك إلا صوب غادية طيبا وحاشا بحبي فيك للوم
إن شاء صرف الردى تقديم أطوعنا فقد رضيت حماك الله تقديمى
عشنا رفيقين فى بر الهوى زمنا حتى زقا بنوانا طائر الشوم
فشتتت نوب الأيام ألفتنا قسرا ولم يغنها طبي وتنجيمى

وحسب القارئ أن يعلم أن آخر شعر قاله ابن شهيد هو هذه الأبيات ، وفيها ودّع إخوانه ومحبوبه آخر وداع :

أستودعُ الله إخوانى وعشرتهم وكل خِرق(1) الى العلياء سبّاق
وفتية كنجوم الغرب نيّرهم يهدى وصابهمو يردى باحراق
وكوكبًا لىَ منهم كان مغربه قلبي ومشرقه ما بين أطواقى
الله يعلم أنى ما أفارقه إلا وفى الصدر منى حر مشتاق
فإن أعش فلعل الدهر يجمعنا وإن أمت فسيسقيه الردى الساقى
لا ضيع الله إلا من يضيعه ومن تخلّق فيه غير أخلاق!
قد كان بردى إذا ما مسنى كلف لا يثلم الحب آدابي وأعراقى
إنى لأرمقه والموت يضغطنى فأقتضى فرجة ترتد أرماقى

ثم أوصى أن يدفن بجنب صديقه أبي الوليد الزجالى، ويكتب على قبره فى لوح رخام هذه الكلمة :

"بسم الله الرحمن الرحيم. قل هو نبأٌ عظيم أنتم عنه معرضون. هذا قبر أحمد بن عبد الملك ابن شهيد المذنب، مات وهو يشهد ألا إلّه إلا الله وحده لا شريك له ، وأن محمدًا عبده

(1) الخرق بالكسر : السخىّ أو الظريف فى سخاوة ، والفتى الحسن الكريم الخليقة .

ورسوله ، وأن الجنة حق ، والنار حق ، والبعث حق ، وأن الساعة آتية لا ريب فيها ، وأن الله يبعث من فى القبور . ومات فى شهر كذا من عام كذا " .

ويكتب تحت هذا النثر هذه الأبيات وهو يخاطب بها صديقه المدفون :

يا صاحبى قم فقد أطلنا أنحن طول المدى هجود!

فقال لى : لن نقوم منها ما دام من فوقنا الصعيد

تذكر كم ليلة نعمنا فى ظلها والزمان عيد

وكم سرور همى علينا سحابهُ ثرةً تجود

كلٌّ كأن لم يكن تقضّى وشؤمه حاضرٌ عتيد

حصّله كاتب حفيظ وضمه صادق شهيد

يا ويلنا إن تنكبتنا رحمة من بطشه شديد

يارب عفوا فأنت مولًى قصّر فى شكره العبيد

قال ابن بسام : وكان أبو عامر كثيرا ما يخشى صعوبة الموت ، وشدّة السّوق ، فيسّر الله عليه ، وما زال يتكلم ويرغب الى الله أن يرفق به ، ويكثر من ذكره ، وقد أيقن بفراق الدنيا ، الى أن ذهبت نفسه رحمه الله يوم الجمعة آخر يوم من جمادى الأولى سنة ست وعشرين وأربعمائة . ولم يُشهد على قبر أحد ما شُهد على قبره من البكاء والعويل .

١٣ – نثر ابن شهيد

١ – اتفق من ترجموا لابن شهيد على وصفه بالبراعة فى الانشاء، فقال ابن حيان : " كان أبو عامر يبلغ المعنى ولا يطيل سفر الكلام . وإذا تأملته ولسنه ، وكيف يجر فى البلاغة رسنه ، قلت عبد الحميد فى أوانه ، والجاحظ فى إبانه ، والعجب منه أنه كان يدعو قريحته لما شاء نظمه ونثره فى بديهته وروبته ، فيقود الكلام كما يريد من غير اقتناء لكتب ، ولا اعتناء بالطلب ، ولا رسوخ فى الأدب ، فانه لم يوجد له – رحمه الله – فيما بلغنى بعد موته – كتابٌ يستعين به على صنعته ، ويشحذ من طبعه إلا ما لا قدر له ، فزاد ذلك فى عجائبه ، وإعجاز بدائعه ، وكان فى تميق الهزل والنادرة الحادّة أقدر منه على سائر ذلك . وشعره عند أهل النقد تصرف فيه تصرف المطبوعين فلم يقصر عن غايتهم . وله رسائل كثيرة فى فنون الفكاهة وأنواع التعريض والأهزال ، قصار وطوال ، برز فيها شأوه ، وأبقاها فى الناس خالدة . وكان فى سرعة البديهة وحضور الجواب وحدّته مع رقة حواشى كلامه ، وسهولة ألفاظه ، وبراعة أوصافه ، ونزاهة شمائله وأخلاقه ، آية من آيات خالقه[1] " .

وقال الثعالبي : " فنثره فى غاية الملاحة ، وشعره فى غاية الفصاحة[2] " .

وقال ابن بسام : " وقد أخرجت أنا من أشعاره الشاردة ، ورسائله الباقية الخالدة ، ونوادره القصار والطوال ، وتعريضاته السائرة الأمثال ، ما يحل له الوقور حُباه ، ويحن معه الكبير إلى صباه[3] " .

وقال الحناط وهو يهاجمه : " الإسهاب كلفة ، والايجاز حكمة ، وخواطر الألباب سهام يصاب بها أغراض الكلام . وأخونا أبو عامر يسهب نثرا ، ويطيل نظماً ، شامخا بأنفه ،

(١) الذخيرة ص ٩٤ ج ١ (٢) اليتيمة ص ٣٩٤ ج ١ (٣) الذخيرة ص ٩٤ ج ١

ثانيا من عِطفه، مخيلا أنه أحرز السبق فى الآداب، وأوتى فصل الخطاب، فهو يستصغر أساتيذ الأدباء، ويستجهل شيوخ العلماء .

وابن اللبون اذا ما لُزَّ فى قَرَن لم يستطع صولة البزل القناعيس"[1]

وهذه الآراء التى نقلناها عن ابن حيان والثعالبى والحناط تمثل رأى جمهور الناقدين فى ابن شهيد، وتدلنا على أنه شغل الناس حينا من الزمان. ولو انتقلنا الى رأيه فى نفسه لرأيناه مفتونا أشنع الفتون بما اعتقده من إجادة النظيم والنثير، والتفوق البالغ على كتاب المشرق والمغرب . وقد آن أن يوزن نثره بمعيار النقد ليعرف مافيه من الزائف والصحيح .

٢ — سئل أبو العلاء المعرى رأيه فى شعر ابن هانىء الأندلسى فأجاب : "رحًى تطحن قرونا" وهو جواب حِذق وذكاء، فضلا عما فيه من روعة التصوير . وأخشى أن يكون الأمر كذلك فى نثر ابن شهيد، فهو فى الأكثر جعجعة وقعقعة وقلقلة فى غير نفع ولا غَناء . ويسوءنا والله أن يكون ذلك مانراه فى نثر ذلك الرجل الذى نعتقد فيه دقة الفهم، ورقة الطبع، وسلامة الذوق، ولكن ماالحيلة وقد قلبنا نثره على وجوهه، وراجعنا مابقى منه أكثر من عشرين مرة، فلم نزدد إلا اقتناعا بأنه كان فى إنشائه من المتكلفين .

٣ — وربما كان من أسباب الالتواء الذى نشهده فى نثر ابن شهيد غرام الرجل — كان — بمقارعة كتاب المشرق، ومواجهة كتاب المغرب بألوان من الفن كان لها فى زمانه بريق يعشى العيون . وكان النثر فى ذلك العصر قد أخذ ينافس الشعر منافسة جدية، واستطاع ابن شهيد أن يناضل معاصريه برسائل محبرة موشاة، تؤدى فى عالم النثر ما كانت تؤدى النقائض فى عالم الشعر، فوقع له مع الافليلى والحناط وغيرهما منافرات كان لها فى مجالس المغرب دوى شديد . هذا مع أن الرجل كان من فحول الشعراء، وكان يستطيع أن يقارع خصومه بالشعر، وأن يقيم من المعارك الشعرية ما يعيد به عهد الأخطل والفرزدق وجرير

(١) الذخيرة ص ٢٣٢ — والبزل جمع بازل وهو البعير بلغ تسع سنين، والقناعيس جمع قنعاس بالكسر وهو العظيم من الإبل، ومن الرجال الشديد المنيع .

من شعراء الهجاء ، ولكنه أراد أن يحيي فى بلاده معارك نثرية كالمعارك التى كانت تقع فى الشرق بين أمثال الخوارزمى وبديع الزمان . وفى هذا إغناء للنثر وسعيٌ الى إمداده بمختلف المعانى والأغراض، ولكنه آنحدار بالنثر الى موضوعات لا يصلح لهـا إلا قليلا، فان الهجاء كما تسيغه الطبيعة العربية لا يؤدّى إلا بالبيت السائر أو الكلمة الشرود .

٤ — ومع ما فى نثر آبن شهيد من القلق والغموض والاضطراب فانه يغرى القـارئ بالبحث عما فيـه من نتاج الفكر والذكاء ، وهو يشبه بعض التلال التى يوقن المتطلع بأن فيها كنوزا ، فلا يزال يقلب أكداس الخزف والتراب حتى يصل الى بعض ما ينشُد من الذهب الدفين .

ومن أمثـلة ذلك أنه اندفع مرة يشتم نحاة قرطبـة ، ويقرع أبا القاسم الافليلى فلم يقل شيئا ذا بال، ولكنه ختم رسالته بهذه الكلمات الخبيثة فى وصف الافليلى :

” ليست مشيته مشية أديب، ولا وجهه وجه أريب، ولا جلسته جلسة عالم، ولا أنفه أنف كاتب، ولا نغمته نغمة شاعر[1] “ .

٥ — غير أن ابن شهيد لا يظل فى جميع أحواله أسير القلق والغموض ، فإن له أحيانا يفصح فيها ويبين ، كقوله يخاطب أحد الأمراء :

” من عز بز، ومن ريش طار ، ومن سارت به الأيام سار، جَدٌّ كبا ، وحسامٌ نبا، وآمال تفرقت أيدى سـبا . كلمات أنثرها عليك، وآمال أصرفها إليك . كنا قبل أن ترمى بنا النوى مراميها، وتلق علينا الخطوب مراسيها ، وتمخضنا الأيام مخضا، وتركض بنـا الليالى ركضا، تِربَىْ صحبة، وحليفَىْ صـبوة، قد تخلينا عن الأنساب، وآنتسبنا الى الآداب، والدار إذ ذاك صقب، والملتقى كثب، والزمان غِر، وحواصلنا صُفر، نترنم ترنم الحمـام، على زرق الجمـام[2]، ثم ألقت الأيام علينا بكلكل ... ... فنشرنا بكل فج عميق، وأفق سحيق، ونفحت

(١) الذخيرة ص ١٢٣ ج ١

(٢) الجمام : المياه الكثيرة، والمفرد جم، وهو فى الأصل الكثير من كل شيء .

عليك رياح السد ، وجادتك المنى من تهامة ونجد ، وامتطيت ظهر الجوزاء ، وافترشت لبدة العواء[1] ، وكلما دعيت للنزال والعراك ، تترست بالثريا وطعنت بالسماك ، فزحمت منكب الدهر ، وقضيت أربك منه على قصر ، فكان أول حيصتك عن الوفاء ، وحيدتك عن رعاية قديم الإخاء ، أن تركت المخاطبة ، وأضربت عن المكاتبة ، خشية أن يكون كانا عليك ، ورغبتنا فيما لديك ، وهيهات ! يأبى ذلك كرم محض ، وهمة علياء نالها خفض ، ثم قلت : الحمل على حسن الظن أجمل ، والقضاء بأكرم العهد أقبل ، قد يشغل بالرؤساء ، ويجاذب العظماء ، وعينه مع ذاك راعية ، وأذنه واعية ، وإنما الوصل بالفؤاد ، لا بالمداد ، والالتقاء بالحلوم ، لا بالجسوم ، فانطويت على ود ، وثبت على صحة عهد ... ... الخ »[2] .

وهذا نثر مقبول ، لا يؤخذ عليه إلا شيء من التوعر قليل . وأوضح منه وأفصح قوله يصف إحدى المنافرات :

« لما قدم زهير الصقلبي فتى بني عامر ، حضرة قرطبة من المرية ، وجه أبو جعفر عباس وزيره عن لمة من أصحابنا منهم ابن برد وأبو بكر المرواني وابن الحناط والطبني ، فسألهم عني وقال : وجهوا عنه ، فوافاني رسوله مع دابة له بسرج محلى ثقيل فسرت إليه ودخلت المجلس وأبو جعفر غائب ، فتحرك المجلس لدخولي وقاموا جميعا إلي ، حتى طلع أبو جعفر علينا ، ساحبا لذيل لم ير أحد سحبه قبله ، وهو يترنم ، فسلمت عليه سلام من يعرف حق الرجال ، فرد رد الطغيان ، فعلمت أن في أنفه نعرة لا تخرج إلا بسعوط الكلام ، ولا تراض إلا بمستحكم النظام ، فرأيت أصحابي يصيخون إلى ترنمه ، فسألتهم عن ذلك فقال الحناط — وكان كثير الإنحاء علي ، جالبا في المحافل ما يسوء إلي — : الوزير حضره قسيم من الشعر ، وهو يسألنا عن إجازته ، فعلمت أني المراد ، فأنشده ، وهو :

مرض الجفون ولثغة في المنطق

فأخذت القلم وكتبت بديها :

---

(١) العواء : من منازل القمر .   (٢) الذخيرة ص ١١٥ ج ١

مرض الجفون ولثغة فى المنطق	شيئان جرا عشق من لم يعشـق
من لى بالثغ لا يزال حديثــه	يذكى على الأكباد جمرة محـرق
ينبى فينبـو فى الكلام لسـانه	فكأنه من خمـر عينيه سـقى
لا ينعش الألفـاظ من عثراتها	ولو آنها كتبت له فى مُهـرق

ثم قمت عنهم فلم ألبث أن وردوا علىّ، وأخبرونى أن أبا جعفر لم يرض بما جئنا به من البديه: وسألونى أن أحمل مكاوى الكلام على اختباره، وذكروا أن إدريس هجاه وأفحش، فلم أستحسن الإفحاش، فقلت فيه معرضا إذ التعريض من محاسن القول [(١)].

٦ — وهناك رسائل رضى عنها ابن شهيد، وحدثنا فى "التوابع والزوابع" أنه قرأها على شعراء الجن فاستجادوها، وهى رسالته فى صفة البرد والنار والحطب، ورسالته فى الحلواء، وكلماته فى وصف جارية، ونعت الماء والثعلب والبرغوث والبعوض. وهذه الرسائل فى جملتها تدل على غنى فى اللغة وبراعة فى الصنعة، ولكنها خالية من الروح. ويظهر أن الجن الذين آستجادوها لم يكونوا من أصحاب الأذواق فى نقد الكلام، مع أنهم كانوا من أقطار مختلفة، وصاحبوا الأفذاذ من شعراء الحجاز والشام والعراق!

وأجود ما وقع له فى تلك الرسائل "المستجادة" قوله فى وصف ماء صاف:

"كأنه عصير صباح، أو ذوب قمر لياح"

وقوله فى وصف البعوض:

"تنقض العزائم وهى منقوضة، وتعجز القوى وهى بعوضة، ليرينا الله عجائب قدرته، وضعفنا عن أضعف خليقته [(٢)]".

ورسالته فى وصف الحلواء قالها تحقيرا لفقيه نهم لقيه فى المسجد الجامع، فلما طالعوا الحلواء «آضطرب به الألم، وآستخفه الشره، فدار فى ثيابه، وأسال من لعابه، وآزورّ جانبه،

(١) ما سماه ابن شهيد تعريضا هو أيضا إفحاش لم نر روايته لأننا لا نستجيز رواية الهجاء القبيح الذى يجرح الأدب والذوق. وبقية هذا الحديث فى ص ١٥٤ من الذخيرة ج ١

(٢) اليتيمة ص ٣٩٢ ج ١

وخفق شـاربه » ثم أخذ يدور حول صنوف الحلوى ويصـفها واحدا واحدا ، فالفالوذج "مجاجة الزنابير خالطها لباب الحبة، فجاءت أطيب من ريق الأحبة" والخبيص "جليد سماء الرحمة، تمخضت به فأبرزت منه زبد النعمة، تجرحه اللحظة، وتدميه اللفظة"، ثم يقول ابن شهيد بعد كلام : "فأمرت الغـلام بابتياع أرطال تجمع أنواعها التى أنطقتـه ، وتحتوى على ضروبها التى صرعته، فجاء بهـا فوضعها بين يديه، فلمـا عاينها انحنى عليها بلبانه، وألقى عليها بجرانه، وجعل يركل برجليه ، ويحاحش بفخذيه، مانعا عنها ومدافعا ، فصحت به لا عليك حكمها، فجعل يقطع ويبلع، ويوجر فاه ويدفع، وعيناه تبصان، كأنهما جمرتان، وقد برزتا عن وجهه كأنهما خصيتان . وأنا أقول على رسلك يا فلان ! البطنة تذهب الفطنـة ! وهو يقول : أُكلها دائم وظلها، حتى التقم جماهرها، وألحق أولها بآخرها، فهبت منه ريح عقيم، قرن إقبالها بالعذاب الأليم، نثرتنا شـذر مذر ، وفرقتنا فى كل شعب شغر بغر، فالتمحنا منـه الظَّربان، وصدق فيه الخبر العيان" (١) .

وعندى أن ابن شهيد فى رسالة الحلواء عارض بديع الزمان فى المقامة البغدادية، والنكتة فى الرسالتين متشابهة، فهى عند ابن شهيد سخرية من فقيه أكول، وعند بديع الزمان استهزاء بفلاح منهوم؛ ولكن بديع الزمان كان أكثر إصابة لغرضه من ابن شهيد؛ ولننظر كيف يقول وقد استدرج سواديا بالكرخ (٢) :

"فقلت : فهلم الى البيت نصب غداء، أو الى السوق نشترى شواء، والسوق أقرب، وطعامه أطيب ، فاستفزته حُمَـة القرم، وعطفته عطفة النهم، وطمع، ولم يعـلم أنه وقع ، ثم أتيت شوّاء يتقاطر شِـواؤه عرقا، ويتسايل جوذابه مرقا (٣)، فقلت : أبرز لأبى زيد من هذا الشواء، ثم زن له من تلك الحلواء، واختر من تلك الأطباق، وانضد عليها أوراق الرقاق،

(١) وردت رسالة الحلواء فى الذخيرة ص ١٣٦ و١٣٧ ج ١ وفى اليتيمة ص ٣٩٢ و٣٩٣ ج ١ ، وفى النسختين اختلاف شديد، وفيهما كذلك كثير من التحريف ، والفقرات التى اخترناها مأخوذة مما صح لدينا نظمه على اختلاف النسختين .

(٢) الكرخ محلة كانت فى الجانب العربى من بغداد .

(٣) الجوذاب : خبز يوضع فى التنور ومعه طائر أو لحم .

وشيئا من ماء السماق[١] ؛ ليأكله أبو زيد هنيئــا ؛ فانحى الشواء بساطوره، على زبدة تنــوره ، فجعلها كالكحل سحقا ، وكالطين دقا ، ثم جاس وجلست ، ولا نبس ولا نبست ، حتى آستوفيناه وقلت لصاحب الحلواء : زن لأبى زيد من اللوزينج رطلين ، فانه أجرى فى الحلوق ، وأسرى فى العروق ، وليكن ليــلى العمر ، يومى النشر ، رقيق القشر ، كثيف الحشو ، لؤلؤى الدهن ، كوكبى اللون ، يذوب كالصمغ ، قبل المضغ ، ليأكله أبو زيد هنيئا . ثم قعــد وقعــدت ، وجرد وجردت ، وآســتوفيناه . ثم قلت : يا أبا زيد ! ما أحوجنا إلى ماء يشعشع بالثلج ، ليقمع هذه الصارة[٢] ، ويفثأ[٣] هذه اللقم الحارة ! إجلس ، أبا زيد ، حتى آتيك بسقاء ، يحيينا بشربة من ماء . ثم خرجت ، وجلست بحيث أراه ولايرانى ، أنظر ما يصنع به ، فلما أبطأت عليــه قام السوادى الى حماره ، فاعتلق الشواء بإزاره ، وقال : أين ثمن ما أكلت ؟ فقال : ما أكلته إلا ضيفا . فقال الشواء : هاك وآك ، متى دعوناك ؟ زن يا أخا القحبة عشرين ، وإلا أكلت ثلاثا وتسعين ! فجعل السوادى يبكى ويمســح دموعه بأردانه ، ويحل عقــده بأسنانه ، ويقول : كم قلت لذلك القُرَيد ، أنا أبو عبيد ، وهو يقول : أنت أبو زيد ! " .

وإنمــا آفترضــنا ان ابن شهيــد عارض بديع الزمان وحاكاه ، لأنه كان مشــغوفا بأدبه ومعنيا بمعارضته ، فقــد حدّثنا فى " التوابع والزوابع " أنه قابل بأرض الجنّ (زبدة الحقب) صاحب بديع الزمان ، وجرت بينهــما مصاولة انتصر فيهــا ابن شهيد . وهــذا يدل على أن رسائل بديع الزمان كانت وصلت كاملة الى الأندلس ، وفعلت فعلها فى أنفس الأدباء هناك ، وأن ابن شهيد كان بها من المعجبين .

٧ ــ أما وصف الجارية الذى رضى عنه ابن شهيد ، وقدّمه كذلك الى شعراء الجنّ فاستجادوه ، فهو رسالة فيها فقرات تنم عن قلب غزل ونفس طروب ، وفيها كذلك كلمــات تُليح بمغامز الفتك والمجون ، وكانت جاريته " أخت نِعمة ، وربيبة نَعمة ، كأن شعرها على

(١) السماق : حب أحمر صغير شديد الحموضة شجره يشبه الرمان . (٢) الصارة : العطش .
(٣) يفثأ : يسكن .

غرتها الغزاء، غراب يسفد حمامة بيضاء ... تكلمك بألحاظها، وتأسوك بألفاظها، تقابلك من خدها بوردة، ومن عينها بنرجسة، كأنما ثغرها من جوهر، وشفتها خيط حرير أحمر، تقبل عليك بقضيب بان، ثمرته رمانتان، وتنفتل عليك بكفل مائج، كأنه كثيب عالج ... المنظر منظر غلام، والمخبر مخبر فتاة، إن علوتها تدفعت اليك، أو عاتك تداركت عليك، وإن أعطشك فراشها سقتك من شراب، ان شئت قلت خمرة أو رضاب، أو أجاعك عرا كها أطعمتك من لسان، يصل اليك وصول الإيمان (١) ".

٨ — ورسالته عن النار والحطب تمثل فزع أهل الأندلس من البرد، ولكنها، كأكثر ما كتب، مثقلة بالصنعة، خالية من الروح. وهى رسالة مهداة الى صديق نفحه بأحمال من الحطب الجزل — والحطب مما يهدى فى تلك البلاد لما يعانى أهلها من قسوة الشتاء — ولننظر كيف يصور اصطدام النار بالوقود:

" حبستنا اليوم خيل البرد مغيرة ... فجعلت مجنى حطبا دل على نفسه، وتشظى من يبسه، فسلطت عليه صاحب الشرر، ورميته منها ببنات الحديد والحجر، فواقعه قليلا، وعاركه طويلا، فكان لها عجيج، وله من حرها ضجيج، ثم خر لها صريعا، واستولت عليه صعبا منيعا، فبددت شمله وألفت شملها، واستحالت حية لا نستلذ قتلها، ترمى بألوان، وتتهدد بلسان، فلذعت البرد لذعة، ونكزته على فؤاده نكزة، نخر لها على جبينه، ومات بها من حينه (٢) ".

٩ — وبعد فان نثر ابن شهيد — على ما فيه من مآخذ وعيوب — دليل على أن الرجل كان يتناول اللغة بعزائم الفحول، وليس يعيبه أن نراه نحن أقل من شهرته، فانا نحكم على أدبه بأذواق تختلف عن أذواق معاصريه أشد الاختلاف. والنثر الفنى كالشعر، له دقائق قلما يتفق فى تذوقها الناقدون. وكان للرجل فى حياته نجاح معروف، فقد وصل نثره وشعره الى الشرق على عسر الوصول، وتداوله المؤلفون، وكان لا يزال من الأحياء؛ وفى هذا برهان على أن الرجل أمد عصره بروحه واستولى بقوة على عرش البيان.

(١) اليتيمة ص ٣٩٤ ج ١ (٢) اليتيمة ص ٣٩٠ ج ١

ولا ننس أن نثر ابن شهيد لم يصـل الينا منه إلا شيء قليـل ، ولم يدوّن منه إلا الجانب البراق ، الذى طرب له كتاب الصنعة فى المشرق والمغرب ؛ وللفن البراق أعمار قد تقصر وقد تطول . ولو وصلت الينا جمـلة صالحة من نثره الذى جرى فيـه على سليقته وفطرته ، وانحاز فيه الى فيض عقله و روحه ، لرجونا أن يكون لنا فيه رأى غير هذا الرأى ، وخاصة اذا لاحظنا أن رسائله فى صناعة النقد والبيان تدل على أنه كان من أصفى الناس ديباجة ، وأسدهم رأيا ، وأصدقهم فراسة ، اذا مضى يشرح مزالق الأفكار ومزلات العقول .

ولا ننس أيضا أن ابن شهيد كان يمتح من قليب فكره ، ولم تكن له مراجع للثقافة الأدبيـة ، إلا ما لا قدر له من الكتب كما حدّث ابن حيان ، وذلك كان فى عصر مضطرب أشنع اضطراب ، يقاسى شـعراؤه وكتابه ومتأدبوه أهوالا من الفتن قل أن يصفو معها فكر أو ينضج بيان .

فلنحمد إذن ما أسداه ابن شهيد ، فان جهد المقل غير قليل ، ولنذكر أننا ننقد وننقض ، فى سلامة وعافية لم يحلم بهما أولئك الأسلاف الذين نازلوا الأقدار ، ورفعوا أعلامهم بين أمم الصليب فوق هامات الأسود .

فعلى ذكراهم تحيةٌ وسلام !

١٤ – أبو الفضل الميكالى

١ – أسرة الميكالى أسرة قديمة العهد بالمجد فى المدنية الإسلامية، وكان لهذه الأسرة كرامة وسلطان فى القرن الثالث والرابع والخامس . فقد مدحهم البحترى وخدمهم ابن دريد، وتفيأ ظلالهم أبو بكر الخوارزمى ؛ وبديع الزمان الهمذانى، وغيرهم من أعيان الكتاب والشعراء .

وأشهر أعلام هذه الأسرة فى الأدب الأمير أبو الفضل عبيد الله بن أحمد الميكالى المتوفى سنة ٤٣٦ . وكانت له آثار كثيرة لم يبق منها إلا شذرات متفرقة فى يتيمة الدهر وزهر الآداب وثمار القلوب . وهو يلتزم السجع والازدواج فى رشاقة وعذوبة واتساق . وفيه يقول الثعالبى فى مقدمة فقه اللغة :

”ومن أراد أن يسمع سر النظم، وسحر النثر، ورقية الدهر، ويرى صوب العقل، وذوب الظرف، ونتيجة الفضل، فليستنشد ما أسفر عنه طبع مجده، وأثمره عالى فكره، من مُلَح تمتزج بأجزاء النفوس لنفاستها، وتشرب القلوب لسلاستها ... وايم الله ما من يوم أسعفنى فيه الزمان بمواجهة وجهه، وأسعدنى بالاقتباس من نوره، والاغتراف من بحره، فشاهدت ثمار المجد والسؤدد تنتثر من شمائله، ورأيت فضائل أفراد الدهر عيالا على فضائله، وقرأت نسخة الكرم والفضل من ألحاظه، وانتهبت فرائد الفوائد من ألفاظه، إلا تذكرت ما أنشدنيه أدام الله تأييده لابن الرومى :

لولا عجائب صنع الله ما نبتت   تلك الفضائل فى لحم ولا عصب

وما أنس لا أنس أيامى عنده بفيروز أباد، سقاها الله ما يحكى أخلاق صاحبها من سَبَل القطر ! فإنها كانت بطلعته البدرية، وعشرته العطرية، وألفاظه اللؤلؤية، ومحاسن أقواله وأفعاله التى يعيا بها الواصفون، أنموذجات من الجنة التى وعد المتقون، فإذا تذكرتها فى تلك المرابع التى هى مراتع النواظر، والمصانع التى هى مطالع العيش الناضر، والبساتين التى إذا

أخذت بدائع زخارفها، ونشرت طرائف مطارفها، طُوِىَ لها الديباج الخسروانى، ونُفِىَ معها الوشى الصنعانى، فلم تشبَّه إلا بنسيمه، وآثار قامه، وأزهار كلمه، تذكرت سحرا وسيما، وخيرا عميا، وارتياحا مقيا، ورَوْحا وريحانا ونعيا ".

٢ — وأظهر الفنون التى كان يجيـدها الميكالى هو فن الإخوانيـات، ورسائله إلى أصدقائه مشربة بأنفاس الحنين، حتى لتحسبها رسائل عاشق لا رسائل صديق ...

وإليك قوله من رسالة :

" أيامَ ظلُّ العيش رطب، وكفّ الهوى رحب، وشرب الصبا عذب، وما لشرق الأنس غرب[1] ".

وقوله من رسالة ثانية :

"إنمـا أشكو اليك زمانا سلب ضعف ما وهب، وفجع بأكثر ممـا متع، وأوحش فوق ما أنس، وعنف فى نزع ما ألبس، فإنه لم يذقنا حلاوة الاجتماع، حتى جرعنا مرارة الفراق، ولم يمتعنا بأنس التلاق، حتى غادرنا رَهن التلهف والاشتياق[2] ".

وليتأمل القارئ رقة الحنين فى قوله من كلمة ثالثة :

"أنا أسأل الله تعالى أن يرد علىّ برد العيش الذى فقدته، وفسحة السرور الذى عهدته، فيقصر من الفراق أمده، ويعلو للقاء حكمه ويده، ويرجع ذلك العيش الذى رقّت غلائله، وصفت من الأقذاء مناهله، فلم أهنأ بعده بأنس مقيم، ولا تعلقت يوما إلا بعيش بهيم .

فان ترجع الأيام بعـد الذى مضى ... بذى الأثل صيفا مثل صيفى ومربعى

شددت بأعناق النوى بعـد هذه ... مرائر إن جاذبتهـا لم تقطّع

وما على الله بعزيز أن يقرب بعيدا، ويهب طالعا سعيدا، ويسهل عسيرا، ويفك من رق الاشتياق أسيرا[3] ".

---

(١) ص ٢٥١ ج ٤ يتيمة (٢) ص ٩٣ ج ٤ زهر الآداب (٣) ص ٩٣ و ٩٤ ج ٤

ومع أن صلته بأبى منصور الثعالبى كانت صلة الأمير المفضل بالصاحب الأمين فانا نجده يكتب إليه بأجمل ما يوحى الرفق والحنان فيقول :

" كتابى، وأنا أشكو إليك شوقا لو عالجه الأعرابىّ لما صبا إلى رمل عالج، أو كابده الخلىّ لانثنى على كبد ذات حرق ولواعج، وأذم زمانا يفرق فلا يحسن جمعا، ويخرق فلا ينوى رقعا، ويوجع القلب بتفريق شمل ذوى الوداد، ثم يخل عليهم بما يشفى الصدور والأكباد، قاسى القلب فلا يلين لاستعطاف، جائر الحكم فلا يميل إلى إنصاف، وكم أستعدى على صروفه وأستنجد، وأتلظى غيظا عليه وأنشد :

متى وعسى يثنى الزمان عنانهُ ... بعـثرة حال والزمان عَثـورُ
فتدرَك آمالٌ وتقضى مآربٌ ... وتحدث من بعد الأمور أمورُ

وكلا! فما على الدهر عتب، ولا له على أهله ذنب، وإنما هى أقدار تجرى كما شاء مجريها، وتنفذ كالسهام إلى مراميها، فهى تدور بالمكروه والمحبوب، على الحكم المقدور المكتوب، لا على شهوات النفوس، وإرادات القلوب، وإذا أراد الله تعالى أذن فى تقريب البعيد النازح، وتسهيل الصعب الجامح، فيعود الأنس للقاء الإخوان كأتمّ مالم يزل معهودا، ويجدّد للمذاكرة والمؤانسة رسوما وعهودا، إنه الملبّى به والقادر عليه" (١) .

٣ — وقد كان الميكالى يعيش أطيب العيش بين نعمة الجاه والمال، ولكنه كان يشكو زمانه على غير ما كان يشكو البائسون من الكتّاب والشعراء، فنراه يقول :

" يأبى الدهر إلا ولوعا بشمل وصل يشرّده، ونظام أنس يبدّده، ومخلب ظلم يحدده . ولو انبسطت فيه يدى لكسرت جناحه، وخفضت جماحه، ولكنه الحية الصماء لا تستجيب لراقى، والداء العضال لا يشفى منه طبيب ولا واقى" (٢) .

ولننظر قوله يتوجع لرفيق عليل :

" لو استطعت لخلعت عليه سلامتى سربالا، وأعرته من جسمى صحة وإقبالا، فلست أتهنأ بالعافية مع سقمه، ولا أتمتع بنضارة عيشى مع شحوب جسمه" (٣) .

(١) زهر الآداب ج ٢ ص ١٨٩ (٢) ص ٢٥٥ ج ٤ يتيمة . (٣) ص ٢٥٦ ج ٤ يتيمه .

ولسنا نعرف إلى من كتب العبارات الآتية :

" أنا فى مقاساة حرّ الشوق إليك كما اعتاد محموم بخيبر صالب(١) ، وتذكر الاجتماع معك كما اهتز من صرف المدامة شارب ، وفى تكلف الصبر عنك كطالب جدوى خُلة لا تواصل وفى القلق لفراقك كطائر جوّ أعلقته الحبائل . كتبت هذه الأحرف وأنا أودّ أن مدادها سواد طرفى ، وبياضها جلدة بين عينى وأنفى ، وحاملها دون سائر الناس كفى . لولا التعلل باللقاء لتصدّعت أكباد وقلوب ، وكانت بينى وبين النوى شئون وخطوب . أنا فى مفارقتك كبنات الماء نضب عنها الغدير ، ونبات الأرض أخطأه النوء المطير . لا تفارق نفسى فيك أشواقها ، حتى تفارق الحمائم أطواقها " .

٤ — واهتمام الميكالى بهذا النوع من الكتابة غرس فيه الحرص على وصف ما يرد عليه من رسائل إخوانه ، فكان قلمه من أفصح الأقلام فى وصف الكتب يتهاداها الأصدقاء ، ومن أمثلة ذلك قوله :

"وصل كتاب مولاى وسيدى أبدع الكتب هوادى وأعجازا ، وأبرعها بلاغة وإعجازا ، فحسبت ألفاظه در السحاب ، أو أصفى قطرا وديمة ، ومعانيه در السخاب ، بل أوفى قدرا وقيمة ، وتأملت الأبيات فوجدتها فائقة النظم والرصف ، عبقة النسيم والعَرف ، فائزة بقداح الحسن والظَّرف ، مالكة لزمام القلب والطرف ، ولا غرو أن يصدر مثلها عن ذلك الخاطر وهو هدف الفِقر والنوادر ، وصدف الدرر والجواهر . والله يمتعه بما منحه من هذه الغرر والأوضاح ، كما أطلق فيها ألسنة الثناء والامتداح " .

٥ — وبجانب هذه البراعة كان الميكالى كريم الأخلاق ، وما ألطف ما يقول الثعالبى فيه :

" وكثيرا ما أحكى للإخوان أنى استغرقت أربعة أشهر بحضرته ، وتوفرت على خدمته ، ولازمت فى أكثر أوقاتى عالى مجلسه ، وتعطرت بغبار موكبه ، فبالله يمينا كنت غنيا عنها لو خفت إثمها أنى ما أنكرت طرفا من أخلاقه ، ولم أشاهد إلا مجدا وشرفا من أحواله ، وما رأيته اغتاب غائبا ، أو سب حاضرا ، أو حرم سائلا ، أو خيب آملا ، أو أطاع سلطان

(١) صلبت الحمى دامت واشتدّت .

الغضب فى الحضر، أو تصلى بنار الضجر فى السفر، أو بطش بطش المتجبر، ولا وجدت المآثر إلا ما يتعطاه، والمآثم إلا ما يتخطاه" .

٦ — ونعود فنذكر أن صلة الميكالى بأصدقائه وألافه آنتهبت أجزاء نفسه بحيث يمكن رجع أدبه الى المعانى النفسية التى توحى بها الصداقة والألفة والحب ، فأدبه مقسّم بين كتاب شوق، أورسالة عتب، أوكلمة توجع، أو خطاب آقتضاء، أو مألكة تهنئة، أو نميقة ثناء .

والظاهر من كلام عمر المطوعى فى كتابه عن الشعراء أن الميكالى كان بليغ الأثر فى أنفس معاصريه، وأن فريقا منهم كان يؤلف الكتب بارشاده وفى ضوء فكره . وهذا شبيه بالحق : لأن الميكالى فيما يظهر من شعره ونثره كان قوة عظيمة من القوى الأدبية ، ولكن ينبغى الآحتياط فى فهم هذه الفكرة : فقد كان الميكالى غنيا ، وكان بيته ملجأ الشعراء والكتّاب والمؤلفين، فلا مفر من أن يحسب لمجاملته حساب، وأن يقدر الناقد أنه قد ينسب اليه ما ليس له لمكانه من العلم والغنى والجاه .

٧ — صنعة الميكالى فى شعره أظهر منها فى نثره ، فهو حين ينثر سهل الخليقة، فاذا نظم تكلف، وهو يؤثر الجناس على سائر أنواع البديع، والى القارئ قوله :

شـافهَ كفى رشأٌ ... بقبـلة ما شفتِ

فقـلت إذ قبّلها ... ياليت كفى شفتى

وقـوله :

من لى بشـمل الأنس أجمعـهُ ... بشادن حلَّ فيـه الأنس اجمعـهُ

ما زال يعرض عن وصلى فأخدعه ... فالآن لى لانَ بعد الصـد أخدعه[1]

وهذا كما نرى تكلف ثقيل ممجوج .

وقد يترك الصنعة ويمضى على سجيته فيجيد، من ذلك قوله :

عمر الفتى ذِكرهُ لا طول مدتهِ ... وموته خزيه لا يومـه الدانى

---

(١) الأخدع : شعبة من الوريد ، والجمع أخادع .

وقــوله :

كم والد يحــرم أولادهُ وخيره يحظى به الأبعــدُ

كالعين لاتبصر ما حولها ولحظها يدرك ما يبــعد

وجمــلة القول أن الجيد من نثره أكثر من جيد شعره ، وهو فى كلا الفنين صناع اليد ذكىّ الجنان .

٨ — وسـلطانه على معاصريه له قيمته على أى حال ، فليس الغنى ولا العــلم مما يكفى لأن يكون للرجل حاشية وأنصار أوفياء . وإنمـا يرجع ذلك الى رقة القلب وقوة العقل وخفة الروح ، وهى المقومات الأساسية لحياة المفكر والأديب . وكذلك آستطاع الميكالى أن يستعبد طائفة من أحرار القـلوب والعقول بمـا كان له من صـفاء الذهن ، وقوة القريحة ، وطهارة الوجدان .

١٥ – بديع الزمان

١ – ولد أبوالفضل أحمد بن الحسين فى همذان نحو سنة ٣٥٨، درس اللغة والأدب وتعمق فيهما تعمقا ظهر أثره فى نثره وشعره . وكان فى صباه جميلا فتانا خفيف الروح، وكان لجماله وحلاوة لسانه أثر كبير فى النصر الذى أحرزه فى حياته الأدبية ، فقد انتقل الى نيسابور سنة ٣٨٢، وكانت يومئذ موطنا لأبى بكر الخوارزمى أعلم أهل عصره باللغة والأدب، وأقربهم مكانة من الملوك والأمراء . فبدا لبديع الزمان أن يناظره علنا عند بعض الأمراء، فقبل الخوارزمى بعد تردد، ثم دارت المناقشة يوما أو بعض يوم فى موضوعات أدبية مختلفة فاستطاع بديع الزمان بسرعة بديهته ونضارة صباه أن يجذب اليه أنظار الحاضرين ، فغُلب الخوارزمى وظهرت عليه دلائل الضعف، وسرى فى الأقطار الاسلامية يومئذ أن بديع الزمان أجمل منه شعرا ، وأحلى نثرا، وأقوى حجة، ثم مرض الخوارزمى حزنا ومات قبل أن ينقضى الحول سنة ٣٨٣

وبموت الخوارزمى خلا الجو لبديع الزمان عند الملوك والأمراء والوزراء، وصار يتنقل فى الحواضر الاسلامية بالشرق الى أن استقر فى هراة، وصاهر أحد علمائها الأعلام، وحسنت حاله، وأقبلت عليه الدنيا، ولكن المنية عاجلته وهو فى سن الأربعين سنة ٣٩٨ وقد استيقظ فى قبره بعد الدفن فظل يصرخ و يطلب الغوث ، ولكن الناس لم يتنبهوا اليه الا بعد مدة ففتحوا قبره فوجدوه مضطجعا وقد أمسك لحيته بيده ومزق كفنه، ولكنه مات من الرعب والفزع حين يئس من النجاة .

٢ – اهتم كتاب التراجم بحياة بديع الزمان ، وأجمل ما قرأناه فى ترجمته قول الثعالبى فى يتيمة الدهر: "بديع الزمان، ومعجزة همذان، ونادرة الفلك، وبكر عطارد، وفرد الدهر،

وغرة العصر، ومن لم يلق نظيره فى ذكاء القريحة ، وسرعة الخاطر، وشرف الطبع، وصفاء الذهن ، وقوة النفس ، ومن لم يدرك قرينه فى ظرف النثر وملحه ، وغرر النظم ونكته، ومن لم ير ولم يرو أن أحدا بلغ ما بلغه من لب الأدب وسره، وجاء بمثل إعجازه وسحره ؛ فانه كان صاحب عجائب ، وبدائع وغرائب : فمنها أنه كان ينشد القصيدة التى لم يسمعها قط وهى أكثر من خمسين بيتا فيحفظها كلها ويؤديها من أولها الى آخرها لا يخرم حرفا ولا يخل معنى، وينظر فى الأربعة والخمسة أوراق من كتاب لم يعرفه ولم يره نظرةً واحدة خفيفة ثم يهذ بها عن ظهر قلبه هذا، ويسردها سردا ... وكان يقترح عليه عمل قصيدة أو إنشاء رسالة فى معنى بديع وباب غريب فيفرغ منها فى الوقت والساعة ، والجواب عنها فيها ، وكان ربما يكتب الكتاب المقترح عليه فيبتدئ بآخر سطر منه ثم هلم جرا الى الأول ويخرجه كأحسن شىء وأملحه[1]، ويوشح القصيدة الفريدة من قوله بالرسالة الشريفة من إنشائه فيقرأ من النظم والنثر، ويروى من النثر والنظم، ويعطى القوافى الكثيرة فيصل بها الأبيات الرشيقة، ويقترح عليه كل عويص وعسير من النظم والنثر فيرتجله فى أسرع من الطرف، على ريق لا يبلعه، ونفس لا يقطعه، وكلامه كله عفو الساعة، وفيض البديهة، ومسارقة القلم، ومسابقة اليد، وجمرات الحدة، وثمرات المدة، ومجاراة الخاطر للناظر، ومباراة الطبع للسمع . وكان يترجم مايقترح عليه من الأبيات الفارسية المشتملة على المعانى الغريبة بالأبيات العربية فيجمع فيها بين الإبداع والإسراع، الى عجائب كثيرة لا تحصى، ولطائف تطول أن تستقصى . وكان مع هذا كله مقبول الصورة، خفيف الروح، حسن العشرة، ناصع الظرف، عظيم الخلق ، شريف النفس ، كريم العهد، خالص الود، حلو الصداقة، مر العداوة . وفارق همذان سنة ٣٨٠ وهو مقتبل الشبيبة، غض الحداثة ؛ وقد درس على أبى الحسين بن فارس وأخذ عنه جميع ماعنده، واستنفد علمه، واستنزف بحره . وورد حضرة الصاحب فتزود من ثمارها، وحسن آثارها، ثم قدم جرجان وأقام بها مدة على مداخلة الاسماعيلية والتعيش فى أكنافهم، والاقتباس

---

(١) انظر شاهد هذا فيما سنعرض من نص المناظرة (ص ٣٤٨) .

من أنوارهم، وآختص بأبى سعد محمد بن منصور ونفقت بضائعه لديه، وتوفر حظه من عادته المعروفة فى إسداء المعروف والإفضال على الأفاضل . ولما آستقرت عزيمته على قصد نيسابور أعانه على حركته، وأزاح علله فى سفرته، فوافاها فى سنة ٣٨٢ ونشر بها بزّه، وأظهر طرزه، وأملى أربعمائة مقامة[1] نحلها أبا الفتح الاسكندرى فى الكدية وغيرها، وضمنها ما تشتهى الأنفس، وتلذ الأعين، من لفظ أنيق قريب المأخذ، بعيد المرام، وسجع رشيق المطلع والمقطع كسجع الحمام، وجِدّ يروق فيملك القلوب، وهزل يشوق فيسحر العقول. ثم شجر بينه و بين أبى بكر الخوارزمى ما كان سببا لهبوب ريح الهمذانى وعلو أمره، وقرب نجحه، و بعد صيته، إذ لم يكن فى الحسبان والحساب أن أحدا من الأدباء والكتّاب والشعراء ينبرى لمباراته، ويجترئ على مجاراته، فلما تصدّى الهمذانى لمساجلته وتعرض للتحكك به وجرت بينهما مكاتبات ومباهلات ومناظرات ومناضلات وأفضى السنان الى العنان، وقرع النبع بالنبع، وغلّب هذا قوم وذاك آخرون، وجرى من الترجيح بينهما ما يجرى بين الخصمين المتحاكمين، والقرنين المتصاولين، طار ذكر الهمذانى فى الآفاق، وآرتفع مقداره عند الملوك والرؤساء، وظهرت أمارات الإقبال على أموره، وأدرّ له أخلاف الرزق وأركبه أكتاف العز . وأجاب الخوارزمى داعى ربه فخلا الجو للهمذانى وتصرفت به أحوال جميلة، وأسفار كثيرة، ولم يبق فى بلاد خراسان وسجستان وغزنة بلدة الا دخلها، وجنى ثمرتها، وآستفاد خيرها وميرها، ولا ملك ولا أمير ولا وزير ولا رئيس الا آستمطر منه بنوء، وسرى معه فى ضوء، ففاز برغائب النعم، وحصل على غرائب القِسم، وألقى عصاه بهراة وآتخذها دار قراره، وجمع أسبابه ... وخار الله له فى مصاهرة أبى على الحسين بن محمد الخشنامى ... فانتظمت أحوال أبى الفضل بصهره، وتعرفت القرة فى عينه، والقوة فى ظهره، وآقتنى بمعونته ومشورته ضياعا فاخرة، وعاش عيشة راضية . وحين بلغ أشدّه وأربى على أربعين سنة ناداه الله فلباه، وفارق دنياه فى سنة ٣٩٨ فقامت عليه نوادب الأدب، وآنثلم حد القلم ... الخ»[2] .

---

(١) راجع ما حققناه من عدد المقامات فى الجزء الأول ص ٢٠٦ (٢) اليتيمة ج ٤ ص ١٦٧ — ٣٦٩

٣ — وقد نقلنا كلام الثعالبي على طوله لأنه يعطى صورة من طرائق كتاب القرن الرابع فى كتابة التراجم ، ولأن الثعالبي كان من معاصرى البديع ، ولأنه أعطانا فوائد تاريخية على قلة مايفعل ذلك ، فقد عرفنا أن البديع أنشأ المقامات فى نيسابور بعد أن حل بها سنة ٣٨٢ وعرفنا أنه ناظر الخوارزمى فى ذلك الحين ، وهذا يعيّن أن الخوارزمى مات سنة ٣٨٣ لا سنة ٣٩٣ كما توهم بعض من نقل عنهم ابن خلكان[1] .

وتاريخ إنشاء المقامات الذى نص عليه الثعالبي ظاهر الصحة ، لأن البديع يذكر تواريخ سبقت ذلك ، كقوله فى المقالة القزوينية "غزوت الثغر بقزوين ، سنة خمس وسبعين" .

٤ — أما المناظرة التى أشار اليها الثعالبي والتى آستفاض ذكرها فى كتب الأدب فقد حررها بديع الزمان بقلمه ، وهى وثيقة أدبية تمثل زهوه وأخلاقه ، وتبين تهافت الناس اذ ذاك على شهود المناظرات ، وكانت من الفنون الظاهرة فى القرن الرابع ، ومن أشهر من آهتم بتدوين مناظرات ذلك العهد أبو حيان التوحيدى ، غير أن التوحيدى كان يهتم بتدوين المناظرات الفلسفية والفقهية .

ابتدأ بديع الزمان فحدثنا أن تقييد تلك المناظرة كان مما آقترح عليه ، وأنه سيسوق صدر حديثه مع الخوارزمى الى العجز ، كما يساق المـاء الى الأرض الجُرُز . ثم قال بعد كلام فى الثناء على من وجه اليه الحديث :

" نعود للقصة نسوقها ، وأولها أنا وطئنا خراسان فما آخترنا الا نيسابور دارا ، وإلا جوار السادة جوارا ، لا جرم أنا حططنا بها الرحل ، ومددنا عليها الطنب ، وقديما كنا نسمع بحديث هذا الفاضل فنتشوقه ، ونخبره على المغيب فنتعشقه ، ونقدر أنا لو وطئنا أرضه ، ووردنا بلده ، يخرج لنا فى العشرة ، عن القشرة ، وفى المودة ، عن الجلدة ، فقد كانت لحمة الأدب جمعتنا ، وكلمة الغربة نظمتنا ، وقد قال شاعر العرب غير مدافَع :

أجارتنا إنا غريبان ههنا وكل غريب للغريب نسيبُ

---

(١) انظر وفيات الأعيان ج ١ ص ٣٥٦

فأخلف ذلك الظن كل الإخلاف، وآختاف ذلك التقدير كل الآختلاف، وقد كان آتفق علينا فى الطريق من العرب آتفاق، لم يوجبه آستحقاق، من بزة بزّوها، وفضة فضّوها، وذهب ذهبوا به، ووردنا نيسابور براحة أنقى من الراحة، وكيس أخلى من جوف حمار، وزىّ أوحش من طلعة المعلم[1] بل آطلاعة الرقيب، فما حالنا إلا قصبة جواره، ولا وطئنا إلا عتبة داره . وهذا بعد رقعة كتبناها، وأحوال أنس نظمناها . فلما أخذنا لحظ عينه سقانا الدردىّ من أوّل دنه، وأجنانا سوء العشرة من باكورة فنه، من طرف نظر بشطره، وقيام دفع فى صدره، وصديق آستهان بقدره، وضيف آستخف بأمره . لكنا أقطعناه جانب أخلاقه، وقاربناه إذ جانب، وواصلناه إذ جاذب، وشربناه على كدورته، ولبسناه على خشونته، و رددنا الأمر فى ذلك الى زىّ آستغثه، ولباس آسترثه، وكاتبناه نستمد وداده، ونسلس قياده، ونستميل فؤاده، ونقيم منآده ".

٥ — وخلاصة ما سلف أن بديع الزمان بعد أن أعانه محمد بن منصور وأزاح علله فى سفرته الى نيسابور خرج عليه اللصوص فى الطريق — وهو يسميهم «العرب» — فسلبوا ما كان معه من فضة وذهب ودخل نيسابور على أسوأ حال، وفكر عند وصوله فى الآتصال بأبى بكر الخوارزمى، ولكن الخوارزمى لم يكرم زيارته، وظن بديع الزمان أن تلك الجفوة لم تكن إلا لأنه ورد فى زىّ غث، ولباس رث .

أما المراسلات التى سبقت المناظرة فهى خطاب من البديع وجواب من الخوارزمى .

ولننظر كيف بدأ البَديع يغرس بذور الشحناء :

" الأستاذ أبو بكر — والله يطيل بقاءه ! — أزرى بضيفه أن وجده يضرب إليه آباط القلة، فى أطمار الغربة، فأعمل فى رتبته أنواع المصارفة، وفى الآهتزاز له أنواع المضايقة، من إيماء بنصف الطرف، وإشارة بشطر الكف، ودفع فى صدر القيام، عن التمام،

---

(١) يريد أن طلعة المعلم توحش الطفل لأنها تنقله من اللعب الى الدرس، ومعاذ الله أن تكون «طلعة المعلم وحشة» فى جميع الأحوال ! !

ومضغ الكلام، وتكلف لرد السلام . وقد قبلت تربيته صعرا، وآحتملته وزرا ، وآحتضنته نكرا، وتابطته شرا، ولم آله عذرا، فان المرء بالمـال، وثياب الجمال، ولست مع هذه الحال، وفى هذه الأسمـال، أتقزز صـف النعال، فلو صدقته العتاب ، وناقشـته الحساب، لقلت إن بواديا ثاغية صباح، وراغية رواح، وناسا يجرون المطارف، ولا يمنعون المعارف .

وفيهم مقاماتٌ حسان وجوههم وأنديةٌ ينتابها القول والفـعلُ

ولو طوّحتْ بابى بكر أيده الله طوائح الغربة ، لوجد مغنى البشر قريبـا ، ومحط الرحل رحيبا، ووجه المضيف خصيبا . ووجه الأستاذ أبى بكر أيده الله فى الوقوف على هذا العتاب الذى معناه ود، والمر الذى يتلوه شهد، موفقٌ ان شاء الله تعالى " .

فأجاب الخوارزمى :

" وصلت رقعـة سيدى ومولاى ورئيسى أطال الله بقاءه الى آخر السكباج ، وعرفت ما تضمنه من خشن خطابه ، ومؤلم عتابه ، وصرفت ذلك منه الى الضجر الذى لا يخلو منه من مسه عسر، ونبا به دهر، والحمد لله الذى جعلنى موضع أنسه، ومظنة مشتكى ما فى نفسه! أما ماشكاه سيدى ورئيسى من مضايقتى إياه فى القيام فقد وفيته حقه أيده الله سلاما وقياما، على قدر ما قدرت عليه، ووصلت إليه، ولم أرفع عليه الا السيد أبا البركات العلوى أدام الله عزه، وما كنت لأرفع أحدا على من جده الرسول، وأمه البتول، وشاهداه التوراة والانجيل، وناصراه التأويل والتنزيل، والبشـير به جبرائيل وميكائيل . فأما القوم الذين صـدر سيدى عنهـم فكما وصف حسن عِشرة ، وسـداد طريقة، وكمال تفصيل وجملة، ولقـد جاورتهم فأحمدت المَراد، ونلت المُراد :

فان كنت قد فارقت نجدا وأهلهُ فمـا عهد نجـدٍ عنـدنا بذميم

والله يعلم نيتى للاخوان كافة،ولسيدى من بينهم خاصة،فان أعاننى الدهر على ما فى نفسى بلغت إليه ما فى الفكرة، وجاوزت مسافة القدرة ، وإن قطع علىّ طريق عشرتى بالمعارضة، وسوء المؤاخذة، صرفت عنانى عن طريق الاختيار، بيد الاضطرار :

فما النفس إلا نطفة بقرارة اذا لم تكدر كان صفوا معينها

وبعد فحبذا عتاب سيدى اذا استوجبنا عتبا، واقترفنا ذنبا ، فاما أن يسلفنا العربدة فنحن نصونه عن ذلك ونصون أنفسنا عن احتماله . ولست أسومه أن يقول استغفر لنا إنا كنا خاطئين ، ولكنى أسأله أن يقول لا تثريب عليكم اليوم يغفر الله لكم وهو أرحم الراحمين " .

٦ — وبهذين الخطابين بدأت البغضاء، وانقطع بديع الزمان عن زيارة الخوارزمى « ومضى على ذلك الأسبوع ، ودبت الأيام، ودرجت الليالى، وتطاولت المدة » ومشى الواشون بالسوء ، ودعا ناس الى مناظرة تقوم بين الرجلين، فتردد الخوارزمى وهش بديع الزمان، ثم ركب الخوارزمى فى جمع من أصحابه وتلامذته ، وبعد لحظات ابتدأ النضال، ولنترك البديع يصف ذلك الموقف المشهود .

صورة المناظرة [1]

" ... فتركناه على غلوائه، حتى إذا نفض ما فى راسه، وفرغ جعبة وسواسه ، عطفنا عليه فقلنا : ياعافاك الله! دعوناك وغرضنا غير المهارشة ، واستزرناك وقصدنا غير المناوشة، فلتهدأ ضلوعك، وليفرخ روعك ، وما اجتمعنا إلا لخير فلتسكن سورتك، ولتان فورتك، ولا ترقص لغير طرب، ولا تحم لغير سبب ! وإنما ذكرناك لتملأ المجالس فوائد، وتذكر أبياتا شوارد ، وأمثالا فرائد، ونباحثك فنسعد بما عندك، وتسألنا فتسر بما عندنا، ويقف كل واحد منا موقفه من صاحبه، وقديما كنت أسمع بحديثك فيعجبنى الالتقاء بك ، والاجتماع معك ، والآن إذ سهل الله ذلك فهلم الى الأدب نتفق يومنا عليه ، والى الجدل نتجاذب طرفيه ،

(١) أثبتنا هذا الشاهد على طوله لطرافته ولدلالته على عقلية فريق من كتاب ذلك العهد ، ولنبين كيف استطاعت اللغة المثقلة بالزخرف والسجع أن تؤدى نوعا من القصص فى تدوين المناظرات . وقد أسقطنا جزءا من صورة هذه الوثيقة الأدبية فرارا من التطويل .

وللقارئ أن يرجع الى رسائل بديع الزمان ص ٢٨ — ٨٣

فآسمع خيرا وأسمعنا مثله، ولنبدأ بالفن الذى ملكت به زمانك ، وفُقت به أقرانك ، وملكت به عنانك ، وأخذت منه مكانك ، فطار به آسمك بعد وقوعه ، وآرتفع له ذكرك عقب خضوعه، وأخمت به الرجال حتى أذعن العالم، وقلد الجاهل ... فجارنا بفرسك ، وجُدْ لنا بنفسك .

فقال : وما هو ؟

فقلت : الحفظ إن شئت ، والنظم إن أردت ، والنثر إن آخترت ، والبديهة إن نشطت . فهذه أبوابك التى أنت فيها آبن دعواك، تملأ منها فاك .

فأحجم عن الحفظ رأسا، ولم يجل فى النثر قِدْحا . وقال :

أبادهك .

وقلت : أنت وذاك !

ثم مال الى السيد أبى الحسين يسأله بيتا ليجير . فقلت : يا هذا أنا أكفيك، ثم تناولت جزأ فيه أشعاره وقلت لمن حضر :

هذا شعر أبى بكر الذى كد به طبعه، وأسهر له جفنه ، وأجال فيه فكره، وأنفق عليه عمره، وآستنزف فيه يومه ،ودونه فى صحيفة مآثره،وجعله ترجمان محاسنه، وعبر به عن باطنه، وأخذ مكانه وهو ثلاثون بيتا، وسأقرن كل بيت بوفقه ، وأنظم كل معنى الى لِفقه، بحيث أصيب أغراضه، ولا أعيد ألفاظه ، وشريطتى أن لا أقطع النفَس ، فان تهيأ لواحد ، أو أمكن لناقد ، ممن حضر، يريد النظر ، أن يميز قوله من قولى، ويحكم على البيت أنه له أو لى، أو يرجح ما نظمه بنار الروية، على ما أمليته على لسان النفس فله يد السبق، أو يكون غيرها فإعفاء عن هذه المقاومة، ويتنحى لنا عن أرض المماثلة ، ويخلى الطريق لمن يبنى المنار به .

فقال أبو بكر : ما الذى يؤمننا من أن تكون نظمت من قبل ما تريد إنشاءه الان ؟

فقلت : اقترح لكل بيت قافية لا أسوقه إلا إليها، ولا أقف به إلا عليها ، ومثال ذلك أن تقول (حشر) فأقول بيتا آخره (حشر) ثم (عشر) فأنظم بيتا قافيته (عشر) ثم هلم جرا الى حيث يتضح الحق، ويفتضح الزرق[1]، وتستقر الحجة ، وتستقل الشبهة، وتنطرد فيعرف الحالى من العاطل، ويفرق بين الحق والباطل .

فأبى أبو بكر أن يشاركنا فى هذا العنان ، ومال الى السيد أبى الحسين يسأله بيتا ليجيز فتبعنا رأيه فيما رآه، ولم نرض إلا رضاه ، وأعمل كل منا لسانه وفمه ، وأخذ دواته وقلمه ، فأجزنا البيت الذى قاله ،وكلما أجزناه إجازة جارى القلم فيها الطبع،وبارى اللسان بها السمع، وسارق الخاطر بها الناظر ، وسابق الجنان بها البنان، إذ قلنا :

هـذا الأديب على تعسف فتكه ... وبروكه عنـد القـريض ببركه[2]
متسـرع فى كل ما يعتاده ... من نظمـه متباطئ عن تركه
والشعر أبعد مذهبا ومصاعدا ... من أن يكون مطيعـه فى فكه
والنظم بحـرٌ والخواطر معبرٌ ... فانظر الى بحر القـريض وفلكه
فمتى توانى فى القـريض مقصِّر ... عرّضت أذن الامتحان بعركه
هـذا الشريف على تقدّم بيته ... فى المكرمات ورفعه فى سمكه
قـد رام منى أن أقارن مثـله ... وأنا القرين السوء إن لم أنكه[3]
واذا نظمت قصمت ظهر مناظرى ... وحطمت جارحة القـرين بدكه
ودبغت منـه أديمه وتركته ... نهـج الأديم بدبغـه وبدلكه
أصغو الى الشعر الذى نظّمته ... كالدرّ رصِّع فى مجـرّة سلكه
فمتى عجزت عن القـريض بديهة ... فدمى الحـرام له إراقةُ سفكه

وقال أبو بكر أبياتا جهدنا به أن يخرجها من الغلاف ، ويبرزها من اللحاف ، فلم يفعل دون أن طواها وجعل يعركها ويفركها ، فقلت : إن البيت لقائله، كالولد لناجله ، فما لك

(١) الزرق جمع أزرق ويراد به الأعمى . وفى القرآن (ونحشر المجرمين يومئذ زرقا) أى عميا .

(٢) البرك بفتح فسكون : الصدر . (٣) من النكاية وهى الإهانة .

تعق ٱبنك وتضيمه ؟ أبرزها للعيون ، وخلصها من الظنون . فكره أبو بكر أيده الله أن تكون المرة أعقل منه لأنها تحدث فتغطى ، فلم يستجرئ أن يظهر ثم مسح جبينه و بسط يمينه للبديهة نفسا دون أن يكتب . فقلنا : أنت وذاك . وٱقترح علينا أن نقول على وزن قول أبي الطيب المتنبي حيث يقول :

أرق على أرق ومثلى يأرقُ　　وجوًى يزيد وعبرةٌ تترقرقُ

وٱبتدر أبو بكر أيده الله الى الإجازة ولم يزل الى الغايات سباقا فقال :

و إذا ٱبتدهت بديهة يا سيدى　　فأراك عند بديهتى تتقلقُ

و إذا قرضت الشعر فى ميدانه　　لا شك أنك يا أخى تتشقق

إنى إذا قلت البديهة قلتها　　عجلا وطبعك عند طبعى يرتق

مالى أراك ولست مثلى عندها　　متموّها بالترهات تمخرق

إنى أجيز على البديهة مثل ما　　تريانه و إذا نطقت أصدق

لو كنت من صخرٍ أصمّ لهاله　　منى البديهة وٱغتدى يتفلق

أو كنت ليثا فى البديهة خادرا　　لرئيت يا مسكين منى تفرَق

و بديهة قد قلتها متنفسا　　فعل الذى قد قلت يا ذا الأخرق

ثم وقف يعتذر و يقول : إن هذا كما يجىء لا كما يجب . فقلت : قبل الله عذرك لكنى أراك بين قواف مكروهة وقافات خشنة كل قاف كجبل قاف ، منها تتقلق وتتشقق وتمخرق وتخرق وتطلق وتعلق وتبرق وتفرق وأحمق وأخرى إلى أشياء لا أكثر بها العدد ، نخذ الآن جزاء عن قرضك ، وأداء لفرضك ، وقلت :

مهلا أبا بكر فزندك أضيق　　فاخرس فإن أخاك حىٌّ يرزق

دعنى أعرك إذا سكتّ سلامةً　　فالقول يجد فى ذويك و يعرق

ولفاتك فتكاتُ سوء فيكمُ　　فدع الستور وراءها لا تخرق

وٱنظر لأشنع ما أقول وأدعى　　ألهُ إلى أعراضكم متسلّق

يا أحمقا وكفاك ذلك خزيةً　　جربت نار معرتى هل تحرق

فلما أصابه حر الكلام، ومسه لفح هذا النظام، قطع علينا فقال : يا أحمقا لا يجوز فإن أحمق لا ينصرف . فقلنا : ياهذا لا تقطع فإن شعرك إن لم يكن عَيبة عيب فليس بظرف ظرف، ولو شئنا لقطعنا عليك، ولوجد الطعن سبيلا اليك . وأما أحمق فلا يزال يصفعك لتصفعه حتى ينصرف وتنصرف معه ! وعرفناه أن للشاعر أن يرد ما لا ينصرف الى الصرف، كما أن له رأيه فى القصر والحذف، وأنشدناه حاضر الوقت من أشعار العرب فقال : يجوز للعرب ما لا يجوز لك . فلم يدر كيف يجيب عن هذا الموقف وهذه المواقفة، وكيف يسلم من هذه المصارفة، لكنا قلنا : أخبرنا عن بيتك الأول أمدحت أم قدحت، وزكيت أم جرحت ؟ ففيه شيئان متفاوتان، ومعنيان متباينان، منها أنك بدأت نخاطبت بيا سيدى، والثانية أنك عطفت فقلت لتقلق وهما لا يركضان فى حلبة ولا يخطان فى خطة . ثم قلت له : خذ وزنا من الشعر حتى أسكت عليك فتستوفى من القول حظك وأسكت علينا حتى نستوفى حظنا ، ثم إنى أحفظ عليك أنفاسك وأوافقك عليها وأحفظ علىّ أنفاسى ووافقنى عليها فإن عجزتُ عن اختلافها حفظتها لك، فسلنى عنها بعد ذلك . وأخذنا بيت أبى الطيب المتنبى :

أهلا بدارٍ سباك أغيدها ... أبعدَ ما بان عنك خرّدها

فقلت :

يا نعمة لا تزال تجحدها ... ومنة لا تزال تكندها

فأخذ يخنق البيت قبل تمامه، ومضيق الشعر قبل نظامه، فقال : ما معنى تكندها ؟ فقلت : يا هذا، كند النعمة كفرها . فرفع يديه ورأسه وقال : معاذ الله بأن يكون كند بمعنى جحد، وإنما الكنود القليل الخير . فأقبلت الجماعة عليه يوسعونه بريا وفريا ويتلون له قول الله تعالى (إن الإنسان لربه لكنود) وقلت له : أليس الشرط أملك؟ والعهد بيننا أن تسكت ونسكت حتى تتم ونتم، ثم نبحث ونفحص؛ فنبذ الأدب وراء ظهره وصار الى السخف يكيلنا بصاعه ومُده ، وينفض فيه حُمة جهده، وأفضى الى السفه يغرف علينا غرفا ، ويستقى من جرفه جرفا . فقلت : يا هذا إن الأدب غير سوء الأدب وللمناظرة حضرنا لا للمنافرة، فان نفضت من هذا السخف يدك، وثنيت عن هذا السفه قصدك، وإلا تركت مكالمتك . ولو كان

فى باب الاستخفاف شىء أعظم من الاحتقار، وإنكار أبلغ من ترك الإنكار، لبلغته منك . فأخذ يمصى على غُلَوائه، ويمعن فى هرائه وهذائه . فاستندت الى المسند، ووضعت اليد على اليد، وقلت استغفر الله من مقالتك ونفضتها قائمة معه . وسكت حتى عرف الناس، وأيقن الجلاس، أنى أملك من نفسى ما لا يملكه، وأسلك من طريق الحلم ما لا يسلكه، ثم عطفت عليه وقلت: يا أبا بكر إن الحاضرين قد عجبوا من حلمى، وتعجبوا من فضلى، وبقى الآن أن يعلموا أن هذا السكوت ليس عن عىّ، وأن تكلفى للسفه أشدّ آستمرارا من طبعك، وغَربى فى السخف أمتن عودا من نبعك، وسنقرع باب السخف معك، ونفترع من ظهر السفه مفترعك . فتكلم الآن . فقال لى : أنا قد كسبت بهذا العقل دية أهل همذان مع قلته فما الذى أفدت أنت بعقلك مع غزارته ؟ فقلت أما قولك أهل همذان فما أولانى أن أجيب عنه ولكن هذا الذى تمدح به وتتبجح وتتشرف وتتصلف من أنك شحذت فأخذت، وسألت فحصلت، وآجتديت فآقتنيت، فهذا عندنا صفة ذم ياعافاك الله! ولأن يقال للرجل يافاعل يا صانع أحبُّ اليه من أن يقال يا شحاذ ويامكدى! وقد صدقت، أنت فى هذه الحلبة أسبق، وفى هذه الحرفة أعرق، ولعمرك أنت أشحذ، وفى الكدية أنفذ، وأنا قريب العهد بهذه الصنعة، حديث الوِرد لهذه الشِّرعة، مرمل اليد فى هذه الرقعة . فأما مالك فعندنا يهودىّ يماثلك فى مذهبه، ويزيدك بذهبه، ومع ذلك لا يطرفنى إلا بعين الرهبة، ولا يمد الىّ إلّا يد الرغبة، ولو كان الغنى حظا لأخطاه مثل هذا العقل، ولو كان المال غُنما لما أُدركَ بهذا السعى . ولكن عرفنى هل كنت فيما سلف من زمانك، ونبت من أسنانك، إلا هاربا بذمائك، مضرجا بدمائك، مرتهنا بقولك بين وجنة موشومة، وجوارح مهشومة، ودار مهدومة، وخدود ملطومة . ومتى صفتْ مشارعك، وأخصبت مرابعك، إلا فى هذه الأيام القذرة؟ وستعرف غدك من بعد، وتنكر أمسك، وتعلم قدرك فى غد، وتعرف نفسك . وما أضيع وقتا أنطقته بذكرك، ولسانا دنسته باسمك! وملت الى القوال فقلت أسمعنا خيرا فدُفع القوال وغنى أبياتا منها :

وشبَّهنا بنفسج عارضيه بقايا اللطم فى الخد الرقيق

فقال أبو بكر : أحسن ما فى الأمر أنى أحفظ هذه القصيدة وهو لا يعرفها ، فقلت : يا عافاك الله أعرفها وإن أنشدتكها ساءك مسموعها ، ولم يسرك مصنوعها ، فقال : أنشد ! فقلت : أنشد ولكن روايتى تخالف هذه الرواية وأنشدت :

وشبهنا بنفسج عارضيه بقايا الوشم فى الوجه الصفيق

فأتته السكتة ، وأضجرته النكتة ، وانطفأت تلك الوقدة ، وانحلت تلك العقدة . وأطرق مليا وقال : والله لأضربنك وإن ضُربت ، ولأشتمنك وإن شُتمت ، ولتعلمن نبأه بعد حين ، ولتعلمن أينا الضارب وأينا المضروب ! فقلت : ياأبا بكر مهلا فانك بين ثلاثة فصول لم تتخطها من عمرك وثلاث أحوال لم تتعدها فى أمرك ، وأنت فى جميع الثلاثة ظالم فى وعيدك ، متعدّ فى تهديدك ، لأنك كهل وأنت شاعر ، وكنت شابا وأنت مقامر ، وكنت صبيا وأنت مؤاجر ، فنطاق القدرة فى الفصول الثلاثة ضيِّق عن هذا الوعيد ، لكنا نصفعك الآن وتضربنا فيما بعد ، فقد قيل اليوم قصف ، وغدًا خسف ، وقيل اليوم خمر ، وغدًا أمر ! فقال أبو بكر والله لو دخلت الجنة ، واتخذت السندس والإستبرق جُنة ، لصفعت ! فقلت : والله لو أن قفاك غدا فى درج فى خرج فى برج لأخذك من النعال ما قدم وما حدث ، ونالك من الصفع ماطاب وخبث ، وأنشدت قول ابن الرومى :

إن كان شيخا سفيها يفوق كل سفيه

فقد أصاب شبيها له وفوق الشبيه

ثم لما آبت نفس العقل وزال سكر الغيظ تمثلت بقول القائل :

وأنزلنى طول النوى دار غربة إذا شئت لاقيت امرءا لا أشاكله

أحامقه حتى يقال سجية ولو كان ذا عقل لكنت أعاقله

ودُفع القوال فبدأ بأبيات ، ولحن بأصوات ، وجعل النعاس يثنى الرؤوس ، ويمنع الجلوس ، فقمنا عن الليل وهو بحره مائل الذقن الى ما وُطِّئ من مضجع ، ومُهِّد من مهجع ، ولم يكن النوم ملء الجفون ، ولا شغل العيون ، حتى أقبل وفد الصباح ، وحيعل المؤذن بالفلاح ،

وندب الى النهوض، بالمفروض، فأجبنا . فلما قضينا الفرض. فارقنا الأرض، فأوى الى أم مثواه وأويت الى الحجرة وظني أن هذا الفاضل يأكل يده ندما، ويبكى على ماجرى دمعا ودما، فانه إذا سمع بحديث همذان قال : الهاء هم والميم موت، والذال ذل ، والألف آفة، والنون ندامة، وأنه إذا ذم هاله منا طيف، وإذا انتبه راعه منا سيف، وأخذ الناس يترامزون بما جرى ويتغامزون، وراب هذا الفاضل غمزاتهم مثل ماراب المريض تغامز العواد بجعل يحلف للناس بالعتق، وتحرير الرق. والمكتوب فى الرق، إنه أخذ قصب السبق، وإنه ينطق عن الحق، والناس أكياس لا يقنعهم عن المدعى يمين دون شاهدين! وسعوا بيننا بالصلح يحكمون قواعده ومعاقده، وعرفنا له فضل السن فقصدناه معتذرين اليه فأومأ إيماءة مهيضة، وآهتز آهتزازة مغيضة، وأشار إشارة مريضة، بكف سحبها على الهواء سحبا، وبسطها فى الجو بسطا، وعلمنا أن للتمور أن يستخف ويستهين، وللقادر أن يحتمل ويلين، فقلنا إن بعد الكدر صفوا ، كما أن عقب المطر صحوا، فهل لك فى أخلاق فى العشرة نستأنفها، وطرق فى الخلطة نسلكها، فان ثمرة الخلاف ماقد بلوتها؟ فقال ظهر الوفاق لفظا كما ذكرت، والجميل أجمل كما علمت، وسنشترك هذا العنان. وعرض علينا الإقامة عنده سحابة ذلك اليوم، فاعتللنا بالصوم، فلم يقبل العذر وألح فقلت : أنت وذاك فطعمنا عنده، وأخذنا دندانُ مزده ، وخرجنا والنية على الجميل موفورة، وبقعة الود معمورة، وصرنا لا نتعلل إلا بمدحه، ولا نتنقل إلا بذكره، ولا نعتد إلا بوده، لا بل ملأنا البلد شكرا، والأسماع نشرا، وبتنا نحن من الحال فى أعذبها شرعة ، ومن الثقة فى أطيبها جرعة ، ومن الظنون فى أملحها فرعة، ومن المودة فى أعزها بقعة، وأوسعها رفعة، حتى طرأ علينا رسولان متحملان لمقالته، مؤديان لرسالته، ذاكران أن أبا بكر يقول قد تواترت الأخبار، وتظاهرت الآثار، فى أنك قَهرت وأنى قُهرت ولا شك أن ذلك التواتر عنك صدرت أوائله . والخبر إذا تواتر به النقل، قبله العقل. ولا بد أن نجتمع فى مجلس بعض الرؤساء فنتناظر بمشهد الخاصة والعامة، فانك متى لم تفعل ذلك لم آمن عليك تلامذتى أو تقر بعجزك وقصورك عن بلوغك أمدى وما أبدى . فعجبت كل العجب مما سمعت، وأجبته فقلت : أما قولك قد تواتر الخبر بأنك قُهرت وأن ذلك عن

جهتى صدر ومن لسانى سمع فبالله ما أتمدح بقهرك، ولا أتبجح بقسرك . وإن لنفسك عندك لشأنا إن ظننتنى أقف هـذا الموقف، أنا ان شاء الله تعالى أبعـد مرتقى همة ومصعد نفس أسأل الله سترا يمتد ووجها لا يسود! فأما التواتر من الناس والتظاهر على أنى قهرتك فلو قدرت على الناس لخطتُ أفواهم، ولقبضت شفاههم ، فما الحيلة وهل الى ذلك سبيل فأتوسل ، أم ذريعة فأتوصل؟ ثم هذا التواتر، ثمرة ذلك التناظر، مع ذلك التساتر، فان كان قد ساءك فأحرى أن يسوءك عند مجتمع الناس ومحتفل أولى الفضل، ولأن يترك الأمر مختلَفا فيـه خيرٌ لك من أن يُتفق عليه . وإن أحببت أن تطير هذا الواقع وتهيج هذا الساكن فرأيك موفقا . فأما هذا الوعيد فقد عرضته على جوانحى أجمع وجوارحى كلها فلم تنشد الا بيت القائل :

وعيـدٌ تخرج الآرام منهُ وتكره نيـة الغنم الذئابُ

فكم تتكوكب تلامذتك ويتعسكرون، ويتجيش أصحابك ويتجمعون، ولست أراك إلا بين ثنتين : إحداهما تروح الى أنثى وتغـدو الى طفل، والأخرى تجيب دعوة المضطر إذا دعاك بمسلفات . فان كان الله قد قضى أن القتل بأخس السلاح، فلا مفر من القدر المتاح، رزقنا الله عقلا به نعيش ! ونعوذ بالله من راى بنا بطيش! وقلنا من بعد إن رسالتك هذه وردت موردا لم نحتسبه، ووصلت موقفا لم نرتقبـه، فلذلك خرج الجواب عن البصل ثوما، وعن البخل لوما . فلما ورد الجواب عليه وسـع من الغيظ فوق ملئه، وحمل من الحقد فوق عبئه، وقال : قد بلغ السيل الزبا، وعلت الوهاد الربا، فى أمرك . وستُرى فى يومك ، وتُعرف فى قومك ! ثم مضت على ذلك أيام ونحن منتظرون لفاضل ينشط لهذا الفصل، وينظر بيننا بالعـدل ، فاتفقت الآراء على أن يعقد هذا المجلس فى دار الشيخ أبى القاسم الوزير واستدعيت فسرحت الطرف من ذلك السيد فى عالم أُفرغ فى عالم وملك فى درع ملك ورجل نظم الى التنبل تبذلا والى الترفع تواضعا، ونطق فودت الأعضاء لو أنهـا أسماع مصغية واستمع فتمنت الجوارح لو أنها ألسن ناطقة فقلت : الحمد لله أن عقد هذا المجلس فى دار من يفرق بين من يُحق ومن يزرِق[1] وكنت أول من حضر وانتظرت مليا حضور من ينظر وقدوم من يناظر، وطلع الإمام

(١) من زرق الطائر اذا أخرج ما فى أمعائه .

أبو الطيب وأخذ من المجلس موضعه، والامام أبو الطيب بنفسه أمة ووحده عالَم . ثم حضر السيد أبو الحسين وهو ابن الرسالة والإمامة ، وعامر أرض الوحى والمحتبى بفناء النبوّة والضارب فى الأدب بعرقه ، وفى النطق بحذقه،وفى الإنصاف بحسن خلقه، فجثم الى المجلس قَدَم سيفه وجعل يضرب عن هذا الفاضل بسيفين لأمر كان قد موّه عليه،وحديث كان شبّه لديه، وفطنت لذلك فقلت : أيها السيد أنا إذا سار غيرى فى التشيع برجلين، طرت بجناحين، وإذا متّ سواى فى موالاة أهل البيت بلمحة دالة توسلت بغُرة لائحة ، فإن كنت أبلغت غير الواجب فلا يحملنك على ترك الواجب . ثم إن لى فى آل الرسول صلى الله عليه وسلم قصائد قد نظمت حاشيتى البر والبحر، وركبت الأفواه، ووردت المياه، وسارت فى البلاد، ولم تسر بزاد ، وطارت فى الآفاق، ولم تسر على ساق ، ولكنى أتسوّق بها لديكم ولا أتنفق بها عليكم، وللآخرة قلتها لا للحاضرة، وللدين آدخرتها لا للدنيا . فقال أنشدنى بعضها فقلت :

يا لمـــةً ضـــرب الزما	ن على مُعـــرَّسها خيامهْ
لله درك مرــ نُخزا	مى روضـة عادت ثَغامه
لرزيـــة قامت بهـــا	للدين أشراط القيامه
لمضـــرَّج بدم النبـــو	ة ضـارب بيـــد الإمامه
متقسم بظبا السيو	ف مجرَّع منهـا حمامه
مُنِـع الورودَ وماؤهُ	منـه على طَـرَف الثّمامه
نصب آبن هنـد رأسـهُ	فوق الورى نصب العلامه
ومقبَّـل كان النبـيُّ	بلثمـــه يشـفى غرامه
قرع آبن هنـد بالقضيب	عِذابه فـــرط آستضامه
وشـــدا بنغمتـــه عليـ	ـه وصبّ بالفضلات جامه
والدين أبلج ساطع	والعـدل ذو خال وشامـه
يا ويح من ولّى الكتا	ب قفـاه والدينـا أمامه
ليضرسنّ يـد النـدا	مة حين لا تغنى النـدامه

وليدركنّ على الغرا — مة سوء عاقبة الغرامه
وحمى أباح بنو أميـ — ـة من طوائلهم حرامه
حتى آشتفوا من يوم بد — رٍ وآستبدوا بالزعامه
لعنوا أمير المؤمنيـ — ـن بمثل إعلان الإقامه
لم لا تخرّى يا سما — ءُ ولم تصبي يا غمامه
لم لا تزولى يا جبا — ل ولم تشولى يا نعامه
يا لعنةً صارت على — أعناقهم طوق الحمامه
إن العمامة لم تكن — للئيم ما تحت العمامه
من سبط هند وآبنها — دون البتول ولا كرامه
يا عين جودى للبقيـ — ـع وزرّعى بدم رغامه
جودى بمذخور الدمو — ع وأرسلى بَدَدًا نظامه
جودى بمكنون الدمو — ع أجُدْ بما جاد آبن نامه

فلما أنشدت ما أنشدت، وسردت ما سردت. وكشفت له الحال فيما آعتقدت، انحلت له العقدة وصار سلما يوسعنا حلما. وحضر بعد ذلك الشيخ أبو عمر البسطامى وناهيك من حاكم يفصل، وناظر يعدل، يسمع فيفهم، ويقول فيعلم. ثم حضر بعد ذلك القاضى أبو نصر والأدب أدنى فضائله، وأيسر فواضله، والعدل شيمة من شيمه، والصدق مقتضى هممه. وحضر بعده الشيخ أبو سعيد محمد بن ارمك أيده الله وهو الرجل الذى يحميه لألأوه ولوذعيته من أن يذال بمن أو ممن الرجل، وهو الفاضل الذى يحطب فى حبل الكتابة ما شاء، ويركض فى حلبة العلم ما أراد. وحضر بعده أبو القاسم بن حبيب وله فى الأدب عينه وفراره، وفى العلم شعلته وناره. وحضره بعده الفقيه أبو الهيثم ورائد الفضل يقدمه، وقائد العقل يخدمه. وحضر بعده الشيخ أبو نصر بن المرزبان والفضل منه بدأ واليه يعود. وحضر بعده أصحاب الإمام أبى الطيب الأستاذ أيده الله.

"وما منهمُ إلا أغر نجيبُ" .

وحضر بعدهم أصحاب الأستاذ الفاضل أبى الحسن الماسرجسى :

"وكلّ إذا عدّ الرجال مقدّمُ"

وحضر بعدهم أصحاب الأستاذ أبى عمر البسطامى وهم فى الفضل كأسنان المشط ومنه بأعلى مناط العقد . وحضر بعدهم الشيخ أبو سعيد الهمذانى وله فى الفضل قِدحه المعلى، وفى الأدب حظه الأعلى . وحضر بعد الجماعة أصحاب الأسبلة المسبلة، والأسوكة المرسلة، رجال يلعن بعضهم بعضا فصاروا الى قلب المجلس وصدره حتى رد كيدهم فى نحرهم وأقيموا بالنعال الى صف النعال، فقلت لمن حضر : من هؤلاء؟ فقالوا : أصحاب الخوارزمى، ولما أخذ المجلس زخرفه ممن حضر، وآنتُظِر أبو بكر فتأخر، اقترحوا علىّ قوافى أثبتوها واقتراحات كانوا بيتوها، فما ظنك بالحُلفاء أدنيت لها النار من لفظ الى المعنى نسقته، و بيت الى القافية سقته، على ريق لم أبلعه، ونفَس لم أقطعه، وصار الحاضرون بين إعجاب بما أوردت، وتعجب مما أنشدت . وقال أحدهم بل أوحدهم وهو الإمام أبو الطيب لن نؤمن لك حتى نقترح القوافى ونعيّن المعانى وننص على بحر فإن قلت حينئذ على الروى الذى أسومه، وذكرت المعنى الذى أرومه، فأنت حىّ القلب كما عهدناك، منشرح الصدر كما شاهدناك، شجاع الطبع كما وجدناك، وشهدنا أنك قد أحسنت، وأن لا فتى إلا أنت . فما خرجت من عهدة هذا التكليف حتى آرتفعت الأصوات بالهيللة من جانب والحوقلة من آخر وتعجبوا إذ أرتهم الأيام، ما لم ترهم الأحلام، وجادهم العيان بما بخل به السماع، وأنجزهم النهم ما أخلفهم الوهم، ثم التفتّ فوجدت الأعناق تلتفت وما شعرت إلا بهذا الفاضل وقد طلع فى شملته وهبّ بجلته، بأوداج ما يسعها الزران، وعينين فى رأسه تزران، ومشى الى فوق أعناق الناس وجعل يدس نفسه بين الصدور يريد الصدر وقد أخذ المجلس أهله فقلت : يا أبا بكر تزحزح عن الصدر قليلا الى مقابلة أخيك . فقال : لست برب الدار، فتأمر على الزوار ! فقلت : يا عافاك الله حضرت لتناظرنى والمناظرة آشتقت إما من النظر أو من النظير، فإن كان

اشتقاقها من النظر فمن حسن النظر أن يكون مقعدنا واحدا حتى يتبين الفاضل من المفضول ثم يتطاول السابق ويتقاصر المسبوق . فقضت الجماعة بما قضيت ، وغص هذا الفاضل من تلك الحكمة ، وآنحط عن تلك العظمة ، وقابلني بوجهه فقلت : أراك أيها الفاضل حريصا على اللقاء ، سريعا الى الهجاء .

" ولو زبنتك الحرب لم تترمرم " .

ففي أى علم تريد أن نتناظر؟ فأومأ الى النحو ، فقلت : يا هذا إن اليوم قد متع ، والنهار قد آرتفع ، والظهر قد أزف ، ولئن قرعنا باب النحو أضعنا اليوم فيه ، فبما ذا يخرج الناس ، فعلام هتاف الناس أيهما رد الجواب هناك ما يدرى المجيب . فإن شئت أن أناظرك فى النحو فسلم الآن لى ما كنت تدعيه من سرعة فى البديهة وجودة فى الروية ، وقدرة على الحفظ ونفاذ فى الترسل . ثم أنا أجاريك فى هذا ، فقال : لا أسلم ذلك ولا أناظر فى غير هذا ، وآرتفعت المضاجّة وآستمرت الملاحاة حتى بلغ الأستاذ الفاضل أبو عمر اليه فقال : أيها الأستاذ انت أديب خراسان وشيخ هذه الديار وبهذه الأبواب التى قد عدها هذا الشاب ، كنا نعتقد لك السبق والحذق ، وتثاقلك عن مجاراته فيها مما يتهم ويوهم ، وآضطره الى منازلة أو نزول عنها ومقارة فيها أو إقرار بها . فقال : سلمت الحفظ ، فأنشدت قول القائل :

ومستلئم كشفت بالرمح ذيلهُ   أقمت بعضب ذى شقاشق ميلهُ
فجعت به فى ملتقى الحى خيله   تركت عتاق الطير تحجل حولهُ

وقلت : يا أبا بكر خفف الله عنا فى الحفظ فقد كفيتنا مؤونة الامتحان ، ولم نضع وقتا من الزمان ، فلو تفضلت وسلمت البديهة أيضا مع الترسل حتى نعرج للنحو الذى أنت عليه أكبر واللغة التى أنت بها أعرف والعروض الذى أنت عليه أجرأ ، والأمثال التى لك فيها السبق والقدم والأشعار التى أنت فيها تقدم ، فقال : ما كنت لأسلم الترسل ولا سلمت الحفظ ، فقلت : الراجع فى شيئه ، كالراجع فى قيئه ، لكنا نقيلك عن ذلك السماح فهات أنشدنا خمسين بيتا من قبلك مرتين حتى أنشدك عشرين بيتا من قبلى عشرين مرة ، فعلم أن دون ذلك خرط القتاد

تهاب شوكتها اليد فسلمه ثانيا، كما سلمه باديا، وصرنا الى البديهة، فقال أحد الحاضرين هاتوا على شعر أبى الشيص فى قوله :

أبقى الزمان به ندوب عِضاضٍ ورمى ســواد قرونه ببيــاضِ

فأخذ أبو بكر يخضد، ويحصد، مقدّرا أنا نغفل عن أنفاسه، أو نوليه جانب وسواسه، ولم يعلم أنا نحفظ عليه الكلم ثم نوافقه عليها، فقال :

يا قاضــيا ما مثــلهُ من قاضِ أنا بالذى تقضى علينــا راضِ
فلقــد لبست ضــفية ملمومــة من نسج ذاك البارق الفضفاضِ
لا تغضبنّ إذا نظمت تنفسا إن الغضا فى مثــل ذاك تغاضِ
فلقـــد بليت بشــاعر متقادر ولقد بليت بنــاب ذئب غاضِ
ولقد قرضت الشعر فاسمع وآستمع لنشــيد شـــعر طائعــا وقِراضِ
فلأغلبنّ بديهــة ببــديهتى ولأرمينّ ســـواده ببيــاضِ

فقلت : يا أبا بكر ما معنى قولك ضفية ملمومة وما الذى أردت بالبارق الفضفاض فأنكر أن يكون قاله قافية ، فواقفه على ذلك أهل المجلس وقالوا : قد قلت! ثم قلتُ : فما معنى قولك ذئب غاض؟ فقال : هو الذى يأكل الغضا، فقلت : استنوق الجمل يا أبا بكر وآنقلبت القوس ركوة وصار الذئب جملا يأكل الغضا، فما معنى قولك إن الغضا فى مثــل ذاك تغاض فإن الغضا لا أعرفه بمعنى الإغضاء، فقال : لم أقل الغضا ، فقلت : ما قلت ؟ فأنكر البيت جملة، فقلت : ياويحك ما أغناك عن بيت تهرب منه وهو يتبعك، وتتبرأ منه وهو يلحق بك فقل لى : ما معنى قراض فلم أسمعه مصدرا من قرضت الشعر ولكن هلا قلت كما قلت وسقت الحشو الى القافيــة كما سقته؟ فقال : هذه طريقة لم تسلكها العرب فلا أسلكها . ثم دخل الرئيس أبو جعفر والقاضى أبو بكر الحربى والشيخ أبو زكريا الحيرى وطبقة من الأفاضل مع عدّة من الأراذل فيهم أبو رشيدة، فقلت : ما أحوج هذه الجماعة الى واحد يصرف عنهم عين

الكمال[1] ! وأخذ الرئيس مكانه من الصدر والدست وله فى الفضل قدم وقدم وفى الأدب هم وهمم وفى العلم قديم وحديث فتم المجلس وظهر الحق بنظره وقال : قد آدعيت عليه أبياتا أنكرها فدعونى من البديهة على النفس وآكتبوا ما تقولون وقولوا على هذه، فقلت :

برز الربيع لنا برونق مائه   فانظر لروعة أرضه وسمائه
فالترب بين ممسك ومعنبر   من نوره بل مائه وروائه
والماء بين مصندل ومكفر   فى حسن كدرته ولون صفائه
والطير مثل المحصنات صوادح   مثل المغنى شاديا بغنائه
والورد ليس بممسك رياه إذ   يهدى لنا نفحاته من مائه
زمن الربيع جلبت أزكى متجر   وجلوت للرائين خير جلائه
فكأنه هذا الرئيس إذا بدا   فى خلقه وصفائه وعطائه
بجمى أعز محجر وندى أغر   محجل فى خلقه ووفائه
يعشو اليه المختوى والمجتدى   والمجتوى هو هارب بذمائه
ما البحر فى تزخاره والغيث فى   إمطاره والجو فى أنوائه
بأجل منه مواهبا ورغائبا   لا زال هذا المجد حاف فنائه
والسادة الباقون سادة عصرهم   متمدحون بمدحه وثنائه

فقال أبو بكر تسعة أبيات قد غابت عن حفظنا لكنه جمع فيها بين إقواء وإكفاء، وإيطاء، فرددنا عليه بعد ذلك عشرين ردا ونقدنا عليه فيها كذا نقدا، ثم قلت لمن حضر من وزير ورئيس وفقيه وأديب : أرأيتم لو أن رجلا حلف بالطلاق الثلاث لا أنشد شعرا قط ثم أنشد هذه الأبيات فقط هل كنتم تطلقون آمرأته عليه ؟ ! فقالت الجماعة : لا يقع بهذا طلاق ! ثم قلت : آنقدْ علىّ فيما نظمت، وآحتكم عليه كما حكمت . فأخذ الأبيات وقال : لا يقال نظرت لكذا وإنما يقال: نظرت اليه، فكفتنى الجماعة إجابته، ثم قال : شبهت الطير

(١) تهكم يذكر بقول الشاعر :

ما كان أحوج ذا الكمال الى   عيب يوقيه من العين

بالمحصنات وأى شبه بينهما؟ فقلت : يا رقيع ، إذا جاء الربيع ، كانت شوادى الأطيار ، تحت ورق الأشجار، فيكن كأنهنّ المخدرات تحت الأستار . ثم قال لى: لم قلت مثل المحصنات مثل المغنى، فقلت : هن فى الخدر كالمحصنات وكالمغنى فى ترجيع الأصوات . ثم قال : لم قلت زمن الربيع جلبت أزكى متجر وهلا قلت أربح متجر؟ فقلت : ليس الربيع بتاجر يجلب البضائع المربحة. ثم قال : ما معنى قولك الغيث فى إمطاره والغيث هو المطر نفسه فكيف يكون له مطر؟ فقلت: لا سقى الله الغيث أديبا لا يعرف الغيث! وقلت له : إن الغيث هو المطر وهو السحاب كما أن السماء هو المطر وهو السحاب . وقال الجماعة : قد علمنا أى الرجلين أشعر ، وأى الخصمين أقدر، وأى البديهتين أسرع، وأى الرويتين أصنع . فقال أبو بكر : فاسقونى على الظفر. فقالوا: كفاك ما سقاك! ثم ملنا الى الترسل، فقلت : اقترح علىّ غاية ما فى طوقك، ونهاية ما فى وسعك، واختر ما تبلغه بذرعك حتى أقترح عليك أربعمائة صنف فى الترسل فان سرت فيها برجلين ولم أطر بجناحين ، بل إن أحسنت القيام بواحد من هذه الأصناف ولم تخالف كل الإخلاف فلك يد السبق وقصبه ومثال ذلك أن قول لك : اكتب كتابا يقرأ منه جوابه هل يمكنك أن تكتب؟ أو أقول لك: اكتب كتابا على المعنى الذى أقترح لك وانظم شعرا فى المعنى الذى أقترح وافرغ منهما فراغا واحدا، هل كنت تمد له ساعدا؟ أو أقول لك اكتب كتابا فى المعنى الذى أقول وأنص عليه، وأنشد من القصائد ما أريده من غير تثاقل ولا تغافل حتى إذا كتبت ذلك قرئ من آخره الى أوله وانتظمت معانيه إذا قرئ من أسفله ، هل كنت تفوق لهذا الغرض سهما، أو تجيل قدحا، أو تصيب نجحا؟ أو قلت لك : اكتب كتابا إذا قرئ من أوله الى آخره كان كتابا، فان عكست سطوره مخالفة كان جوابا. هل كنت فى هذا العمل وارى الزند، قاصد القصد ؟ أو قلت لك : اكتب كتابا فى المعنى الذى يقترح ولا يوجد فيه حرف منفصل من راء يتقدم الكلمة أو دال ينفصل عن الكلمة بديهة ولا يحجم فيها قلمك ، هل كنت تفعل ؟ أو قلت لك : اكتب كتابا خاليا من الألف واللام تصب معانيه على قالب ألفاظه ولا تخرجه عن جهة أغراضه، هل كنت تقف من ذلك موقفا ممدوحا أو يبعثك ربك مقاما محمودا؟ أو قلت لك : اكتب كتابا يخلو من الحروف العواطل،

هل كنت تحظى منه بطائل، أو تبل لهاتك بناطل؟أو قلت لك : اكتب كتابا أوائل سطوره كلها ميم وآخرها جيم، على المعنى الذى يقترح، هل كنت تغلو فى قوسه غلوة ، أو تخطو فى أرضه خطوة؟ أو أقول لك : اكتب كتابا إذا قرئ معرَّجا وسرد معوَّجا كان شعرا هل كنت تقطِّع فى ذلك شعرا؟ بلى والله تصيب ولكن من بدنك، وتقطِّع ولكن من ذقنك! أو أقول لك : اكتب كتابا إذا فسر على وجه كان مدحا و إذا فسر على وجه كان قدحا. هل كنت تخرج من هذه العهدة؟ أو قلت لك : اكتب كتابا إذا كتبته تكون قد حفظته، من دون أن لحظته ، هل كنت تثق من نفسك به الى مالا أطاولك بعده، بل آست البائن أعلم ؟! فقال أبو بكر هذه الأبواب شعبذة ، فقلت : وهذا القول طِرمذة! فما الذى تحسن أنت من الكتابة وفنونها، حتى أباحثك على مكنونها ، وأكاثرك بمخزونها، وأشبر فيها قلمك، وأسبر فيها لسانك وفمك، فقال : الكتابة التى يتعاطاها أهل الزمان المتعارفة بين النـاس ، فقلت أليس لا تحسن من الكتابة إلا هذه الطريقة الساذجة وهذا النوع الواحد المتداول لكل قلم، المتناول بكل يد وفم، ولا تحسن هذه الشعبذة ؟ فقال نعم . فقلت : هات الآن حتى أطاولك بهذا الحبل وأناضلك بهـذا النبل، ثم تقاس ألفاظى بألفاظك، و يعارض إنشائى بإنشائك. واقترح كتاب يكتب فى النقود وفسادها والتجارات ووقوفها والبضاعات وانقطاعها والأسعار وغلائها .

فكتب أبو بكر بما نسخته :

بسم الله الرحمن الرحيم

" الدرهم والدينار ثمن الدنيا والآخرة، بهما يتوصل الى جنات النعيم ، ويخلد فى نار الجحيم ، قال الله تبارك وتعالى : خذ من أموالهم صدقة تطهرهم وتزكيهم بها وصلِّ عليهم . وقد بلغنا من فساد النقود ماأكبرناه أشد الإكبار، وأنكرناه أعظم الإنكار، لما نراه من الصلاح للعباد، وننويه من الخير للبلاد، وتعرفنا فى ذلك مايربح للناس فى الزرع والضرع، و يعود اليه أمر الضر والنفع ".

الى كلمات لم تعلق بحفظنا .

فقلت : إن الإكثار والإنكار والعباد والبلاد وجنات النعيم ونار الجحيم والزرع والضرع أسجاع قد نبتت فى المعد ، ولم تزل فى اليد ، وقد كتبت وكتبت ، ولا أطالبك بمثل ما أنشأت فأقرأ ولك اليد . وناولته الرقعة فبقى وبقيت الجماعة وبهت وبهتت الكافة وقال الوالى : اقرأه ، فجعلت أقرؤه منكوسا وأسرده معكوسا والعيون تزرق وتحار وكانت نسخة ما أنشأناه .

بسم الله الرحمن الرحيم

الله شاء إن المحاضر ، صدور بها وتملأ المنابر ، ظهور لها وتفرع الدفاتر ، وجوه بها وتمشق المحابر ، بطون لها ترشق ، آثارا كانت فيه آمالنا مقتضى على أياديه ، فى تأييده الله أدام الأمير جرى فإذا المسلمين ظهور عن الثقل ، هذا ويرفع الدين ، أهل عن الكل ، هذا يحط أن فى اليه نتضرع ونحن واقفة ، والتجارب زائفة ، والنقود صيارفة ، أجمع الناس صار فقد كريما نظرا لينظر شيمه ، مصاب وانتجعنا كرمه ، بارقة وشمنا همه على آمالنا رقاب وعلقنا أموالنا ، وجوه له وكشفنا آمالنا وفود اليه بعثنا فقد نظره بجميل يتداركنا أن ونعماءه تأييده وأدام بقاءه الله أطال الجليل الأمير رأى إن وصلى الله على محمد وآله الأخيار[1] .

فلما فرغت من قراءتها انقطع ظهر أحد الخصمين وقال الناس قد عرفنا الترسل أيضا فملنا الى اللغة ، فقلت : يا أبا بكر هذه اللغة التى هددتنا بها وحدثتنا عنها وهذى كتبها وتلك مؤلفاتها نخذ غريب المصنف إن شئت وإصلاح المنطق إن أردت وألفاظ ابن السكيت ان نشطت ومجمل اللغة إن اخترت فهو ألف ورقة وأدب الكاتب إن أردت ، واقترح على أى

(١) هذا الخطاب فى ظاهره مغلق ، ولكنه يقرأ من عكسه بسهولة فيقال :

« إن رأى الأمير أطال الله بقاءه ، وأدام تأييده ونعماءه ، أن يتداركنا بجميل نظره ، فقد بعثنا إليه وفود آمالنا ، وكشفنا له وجوه أحوالنا ، وعلقنا رقاب آمالنا على همه ، وشمنا بارقة كرمه ، وانتجعنا مصاب شيمه ، لينظر نظرا كريما ، فقد صار الناس أجمع صيارفة ، والنقود زائفة ، والتجارات واقفة ، ونحن نتضرع اليه فى أن يحط هذا الكل عن أهل الدين ويرفع هذا الثقل عن ظهور المسلمين ، فاذا جرى الأمير أدام الله تأييده فى أياديه ، على مقتضى آمالنا فيه ، كانت آثارا ترشق لها بطون المحابر ، وتمشق بها وجوه الدفاتر ، وتفرع لها ظهور المنابر ، وتملأ بها صدور المحاضر ان شاء الله .

باب شئت من هـذه الكتب حتى أجعله لك نقدا، وأسرده عليك سردا ، فقال : اقرأ من غريب المصنف رجل ماس، خفيف على مثال مال وما أسماه! فاندفعت فى الباب حتى قرأته فلم أتردد فيه، وأتيت على الباب الذى يليه ثم قلت آقترح غيره، فقالوا : كفى ذلك فقلت له : اقرأ الآن باب المصادر من أخبار فصيح الكلام ولا أطالبك بسواه ولا أسألك عما عداه، فوقف حماره، وخمـدت ناره ، وقال الناس اللغـة مسلمة لك أيضا فهاتوا غيره ، فقلت : يا أبا بكر هات العروض فهو أحد أبواب الأدب وسردت منه خمسة أبحر بألقابها وأبياتها وعللها وزحافها، فقلت : هات الآن فاسرده كما سردته فلما برد ضجر الناس وقاموا عن المجلس يفدوننى بالأمهات والأب، ويشيعونه باللعن والسب، وقام أبو بكر فغشى عليه وقمت اليه فقلت :

يعــز علىّ فى الميـدان أنى قتلت ماسبى جلدا وقهـرا
ولكن رمت شيئا لم يرمهُ سواك فلم أطق ياليت صبرا

وقبلت عينيه ومسحت وجهه وقلت : أشهد أن الغلبة له فهلا يا أبا بكر جئتنا من باب الخلطة وفى باب العشرة؟ وتفرق الناس وحبسنا للطعام، مع أفاضل ذلك المقام، ولما حلقنا على الخوان ، كرعت فى الجفان، وأسرعت الى الرغفان ، وأمعنت فى الألوان ، وجعل هذا الفاضـل يتناول الطعام بأطراف الأظفار، فلا يأكل إلا قضما، ولا ينال إلا شما ، وهو مع ذلك ينطق عن كبد حرّى ويفيض عن نفس ملأى ، فقلت : يا أبا بكر بقيت لك مُنـة وفيك مسكة :

يا قوم انى أرى الأموات قد نشروا والأرض تلفــظ موتاكم إذا قبروا

فأخبرنى يا أبا بكر لم غُشّى عليك؟ فقال : لحمى الطبع وحمى الفرو، فقلت : أين أنت من السجع، هلا قلت حمى الطبع وحمى الصفع! وقال السيد أبو القاسم : أيها الأسـتاذ أنت مع الجد والهزل تغلبه ، فقلت : لا تظلموه ولا تطعموه طعاما يصير فى بطنه مغصا، وفى عينـه رمصا، وفى جلده برصا، وفى حلقه غصصا ! فقال أبو بكر : هذه أسجاع كنت حفظتها فقل كما أقوله : يصير فى عينك قذى، وفى حلقك أذى، وفى صدرك شجى ! فقلت : يا أبا بكر على

الألف تريد؟ خذ الآن: بفيك البرا، وعلى هامك الثرى، ولا أطعمك الخ... إلا من وراء، كما ترى فقال : أيها الأستاذ السكوت أولى بك ومالوا الى وقالوا: مذكت فأسجح ! فأبى أبو بكر أن يبقى لنفسه حمة لم ينفضها ، أو يدخر علينا كلمة لم يعرضها ، فقال : والله لأتركك بين الميمات، فقلت : ما معنى الميمات ؟ فقال : بين مهزوم ومهذوم ومهشوم ومغموم ومحموم ومرجوم، فقلت، وأتركك بين الميمات أيضا بين الهيام والصدام والجذام والحمام والزكام والسام والبرسام والمام والسقام و بين السينات فقد علمتنا طريقة بين منحوس منخوس منكوس معكوس متعوس محسوس معروس و بين الخاآت فقد فتحت علينا بابا بين مطبوخ مشدوخ منسوخ ممسوخ مفسوخ و بين الباآت فقد علمتنى الطعن وكنت ناسيا بين مغلوب ومسلوب ومرعوب ومصلوب ومركوب ومنكوب ومنهوب ومغضوب . وإن شئنا كلنا بهذا الصاع، وطاولنا بهذا الذراع، وعرضنا عليك من هذا المتاع ، وكاثرناك بهذه الأنواع، ثم خرجت واحتجر فقد كان اجتمع الناس وغلث الكروش، ولما خرجت لم يلقونى إلا بالشفاه تقبيلا، و بالأفواه تبجيلا، وانتظروا خروجه الى أن غابت الشمس ولم يظهر أبو بكر حتى حضره الليل بجنوده وخلع الظلام عليه فروته .

فهذا ما علقناه عن المجلس وأديناه، والسيد أطال الله بقاءه يقف عليه إن شاء الله .

١٦ - نثر بديع الزمان

١ - أول ميزة لبديع الزمان أنه يشعرك بفهمه للحياة ، فهو يتحدث عن أشجان وأغراض هى فى صميمها ألوان للنفوس الانسانية . واذا كان هناك كتاب يخاطبونك بما لا تفهم لأنهم يتحدثون عن نفس بعيدة عن نفسك ، وقلب أجنبي عن قلبك ، فان بديع الزمان يطالعك بطائفة من الأزمات النفسية والروحيـة هى أزماتك أنت لو درست نفسك وتطلعت الى وجدانك ، وهذا هو السر فى أن بديع الزمان لا يزال أدبه حيا ، ولا تزال آراؤه وأفكاره قريبة منا على بعد العهـد وتعاقب الأجيال . ومن العجب أننا نتقبل منه الزهو والخيلاء لأننا نشعر أنه فى زهوه وخيلائه لا يكذب ولا يمين . ولننظر كيف يقول :

" فانى و إن كنت فى مقتبل السن والعمر ، قد حلبت شطرى الدهر ، وركبت ظهرى البر والبحر ، ولقيت وفدى الخـير والشر ، وصافحت يدى النفع والضر ، وضربت إبطى العسر واليسر ، و بلوت طعمى الحلو والمر ، و رضعت ضرعى العرف والنكر ، فما تكاد الأيام تريني من أفعالها غريبا ، أو تسمعنى من أحوالها عجيبا . ولقيت الأفراد ، وطرحت الآحاد ، فما رأيت أحدا الا ملأت حافتى سمعه و بصره ، وشغلت حيزى فكره ونظره " (١) .

٢ - وهـذه الفقرة تمثل شعوره بأرزاء الدهر ونكبات الحياة ، وتمثل حرصه على أن يشغل البارزين من معاصريه . وقد كانت لبديع الزمان غضبات تظهر فيها فورات نفسه وهى مضطرمة متأججة ، فنرى فى كتاباته صورة نفسه وهى تتوثب كما تتوثب ألسنة الجحيم ، كقوله فى خليفة أبى نصر الميكالى بهراة :

«وحدثت عن هذا الخليفة ، بل الجيفة ، أنه قال : قضيت لفلان خمسين حاجة منذ و رد هـذا البلد ، وليس يقنع ، فما أصنع ؟ فقلت يا أحمق إن آستطعت أن ترانى محتاجا فاستطع

(١) ص ١٠١ ، ١٠٢ رسائل بديع الزمان .

أن أراك محتاجا اليك، أف لقولك وفعلك، ولدهر أحوج لمثلك[1] ! » وليتأمل القارئ « ان استطعت أن ترانى محتاجا فاستطع أن أراك محتاجا اليك » فانه غاية فى التهكم اللذاع .

وفى مثل هذا المعنى يقول من كلمة ثانية :

« هذا الخليفة يزعم أنى طعام ، فلا والله إن لحمى حرام، وفيه عروق وعظام ، ولو كنت طعاما لكنت الأكلة التى تمنع الأكلات ... ومن شتمنى من خلف ، بجزاؤه مائة ألف ، واذا انتهت الدعوة الى فقد عزل عزرائيل ، ولم يبق فى ولايته إلا قليل، والله مايصلح لحمى للقديد، ولا يحسن فوق الثريد، و إنه ليأبى فى المضغ ، وينشب فى الحلق ، ويقلق فى البطن ، ولا يخرج من المعى إلا مع الأمعاء . وكانوا لا يصيدون ابن آوى ، وان كانوا شهاوى[2] » .

٣ — وكان بديع الزمان شديد الحقد على أبى بكر الخوارزمى؛ وكان لذلك مغرما بالنيل منه والوقوع فيه ، ومرض الخوارزمى؛ فكتب أحد أصدقاء بديع الزمان يهنئه بمرض عدوه فغضب لذلك ورأى فى هذه التهنئة لؤما لا يرضى عنه كرمه، ولا يغفر مثله نبله ، وقذف صديقه ذاك بالكلمة الآتية :

«الحر، أطال الله بقاك، لا سيما اذا عرف الدهر معرفتى، ووصف أحواله صفتى، اذا نظر علم أن نعم الدهر ما دامت معدومة فهى أمانى؛ فان وجدت فهى عوارى ، وأن محن الزمان وإن مطلت فستنفد، وان لم تصب فكأن قد، فكيف يشمت بالمحنة من لا يأمنها فى نفسه، ولا يعدمها فى جنسه؟ والشامت إن أفلت فليس يفوت، و إن لم يمت فسيموت، وما أقبح الشماتة، بمن أمن الإماتة، فكيف بمن يتوقعها بعد كل لحظة، وعقب كل لفظة. والدهر غرثان طعمه الخيار، وظمآن شربه الأحرار، فهل يشمت المرء بأنياب آكله، أم يسر العاقل بسلاح قاتله ؟ وهذا الفاضل شفاه الله وان ظاهرناه بالعداوة قليلا ، فقد باطناه ودا جميلا، والحر عند الحمية لا يصطاد، ولكنه عند الكرم ينقاد، وعند الشدائد تذهب

---

(١) ص ٤٠٤ (٢) ص ٣٣٩ رسائل . (٣) ص ٢٣٩

الأحقاد، فلا تتصور حالى إلا بصورتها من التوجع لعلته، والتحزن لمرضته، وقاه الله المكروه، ووقانى سماع السوء فيه، بحوله ولطفه» .

وهذه الرسالة من أعلى الرسائل فى أسلوبها، وموضوعها، وله رسالة تشبهها كتبها الى أبى عامر الضبى يعزيه فى بعض أقاربه وفيها يقول :

" أحسن ما فى الدهر عمومه بالنوائب، وخصوصه بالرغائب، فهو يدعو الجفَلى اذا ساء، ويختص بالنعمة اذا شاء، فلينظر الشامت فان كان أفلت ، فله أن يشمت، ولينظر الانسان فى الدهر وصروفه، والموت وصنوفه، من فاتحة أمره، الى خاتمة عمره، هل يجد لنفسه، أثرا فى نفسه، أم لتدبيره، عونا على تصويره، أم لعمله تقديما لأمله، أم لحيله، تأخيرا لأجله ؟ كلا بل هو العبد لم يكن شيئا مذكورا، خلق مقهورا، ورزق مقدورا، فهو يحيا جبرا، ويهلك صبرا . وليتأمل المرء كيف كان قبلا، فان كان العدم أصلا، والوجود فضلا ، فليعلم الموت عدلا . والعاقل من رفع من حوائل الدهر ماساء ليذهب ماضر بما نفع، وإن أحب أن لا يحزن فلينظر يمنة، هل يرى إلا محنة، ثم ليعطف يسرة، هل يرى إلا حسرة؟ ومثل الشيخ الرئيس من تفطن لهذه الأسرار، وعرف هذه الدار، وأعد لنعيمها صدرا لايملؤه فرحا، ولبؤسها قلبا لايطيره جزعا، وصحب الدهر برأى من يعلم أن للمتعة حدا، وللعارية ردا . ولقد نعى الىّ أبو قبيصة قدس الله روحه، وبرد ضريحه، فعرضت علىّ آمالى قعودا، وأمانىّ سودا، وبكيت والسخى بما يملك، وضحكت وشر الشدائد ما يضحك، وعضضت الإصبع حتى أدميته، وذممت الموت حتى تمنيته، والموت خطب قد عظم حتى هان، وأمر قد خشن حتى لان، ونكر قد عم حتى عاد عرفا، والدنيا قد تنكرت حتى صار الموت أخف خطوبها، وجنت حتى صار أصغر ذنوبها وأضمرت حتى صار أيسر غيوبها، وأبهمت حتى صار أظهر عيوبها . الخ " .

٤ — وهذه الرسالة تعطينا صورة من نفس ذلك الرجل الحساس . فهو هنا يدرس قيمة الانسان وينتهى بالدرس الى أنه أثر ضئيل بين آثار الوجود، فقد خلق من حيث لا يريد، ورزق من حيث لا يحتسب . فهو بهذا العربة صغيرة فى يد القدر يرفعها حين يشاء، ويرمى بها فى الفناء حين يشاء .

ولا يقف بديع الزمان عند هذا الحد، وانما يمضي فيدعوك الى سياسة نفسك، فيحدثك بأن من العقل أن تجسم حسنات الدهر لتضؤل بجانبها سيئاته، ويروضك على أن تنظر حواليك لترى أن لكل إنسان نصيبه من بأساء الحياة، ويدعوك الى أن تعد لنعم الدنيا صدرا لا يملؤه الفرح، وقلبا لا يطيره الجزع، وتلك هى السياسة الرشيدة عند من يفقهون .

وقد أعطانا البديع فى هذه الرسالة أجمل صورة للجزع عند فقد الأعزاء، فقد أضحكه الحزن وأبكاه، وحدثنا بأنه بكى لأن البكاء غاية ما يملك الحر فى رد العزيز المفقود، وأنه ضحك لأن الشدائد المرة ترمى المحزون بقهقهة المجانين . وقد وصل البديع الى قرار الحكمة حين حدّثنا بأن الموت خطب قد عظم حتى هان، ووصل الى أسمى غايات الخيال حين حدثنا بأن الدنيا أبهمت حتى صار الموت أظهر مافيها من العيوب . وهو بهذا ينظر الى الوجود وكأنه عدو فاجر لا ينتهى ما لديه من الشؤم المبيَّت والشر المستطير .

٥ — لكن هذه السماحة النفسية ليست سمة غالبة فى بديع الزمان ، فهو فى أكثر الأحوال رجل ماكر خبيث، ومقاماته تنتهى الى فلسفة واحدة هى السخرية من العالم واقتناص ما يملكون بشتى الحيل والمداورات من غير تورع ولا استحياء . ففى المقامة الأصفهانية يحتال أبو الفتح الاسكندرى فيحتجز المصلين فى المسجد ولا يزال بهم حتى يملأ جيبه ثم يقول فى السحر من أولئك المتصدقين :

الناس حُمْرٌ بَجُوزْ وأبرز عليهم وبرز
حتى اذا نلت منهم ما تشتهيه ففروز

وفى المقامة المكفوفية ينشد أبو الفتح بعد أن يصل الى بغيته وقد تعامى طلبا للمال :

أنا أبو قلمون (١) فى كل لون أكونُ
إختر من الكسب دونا فإن دهرك دون
زجّ الزمان بحمق إن الزمان زبون (٢)

(١) أبو قلمون ثوب رومى من الأبريسم يظهر للعين فى ألوان مختلفة بصناعته .
(٢) الزبون : الناقة التى تدفع بثفنات رجلها عند الحلب .

لا تكذبنّ بعقـــل ما العقـــل إلا جنـون

وفى المقامة القزوينية يعترف أبو الفتح بأن النسبة صورة من صور المنافع ويقول :

أنا حالى من الزما ن كحالى من النسب

نسبى فى يد الزما ن اذا سامه انقلب

أنا أمسى من النبيـ ط وأضحى من العرب

وفى المقامة الساسانية يقول :

هـــذا الزمان مشوم كما تراه غشـــومُ

الحمـق فيـــه مليـــحٌ والعقـــل عيب ولُومُ

والمـال طيف ولكن حول اللئـام يحـوم

وهذه الأبيات تمثل حقده على الأغنياء، ورميه الى أن كل غنى لئيم ، ومثل هـذا قوله فى المقامة البصرية :

الفقر فى زمن اللئـا م لكل ذى كرم علامـةْ

رغب الكرام الى اللئـا م وتلك أشراط القيامـةْ (١)

٦ — والذى يتصفح رسائل بديع الزمان ومقاماته يراه فى أكثرها يحارب معاصريه من الكتّاب والرؤساء، ولا يقع نظره على الجوانب الطيبة من حياة الناس إلا قليلا . ولايمكن أن تكون لبـديع الزمان سياسة نفسية غير تلك الخطة الصاخبة التى ألفها فى حياته وهى العنف المطبق فى البحث عن أسـباب الغنى والجـاه . ومن دلائل حقده وبغيـه أن واليـا عزل وكتب اليه بعد عزله يستميل فؤاده، فكتب اليه البديع يؤنبه ويصوره بصورة المعشوق الذى انقضت أيام حسنه ولم تبق منه بقية يحتمل معها الدلال . فمن تلك الرسالة قوله :

(١) وقد تهكم بديع الزمان بالأدب وأهله غيرمرة . راجع ص٣٩٦ حيث ترى أنه يرى الأدب واللغة والتفسير ضروبا من الحمـق «لا يبيع بها ذو عقل باقة بقل» وفى ص ٢٢٢ يرى أنه لا قرابة بين الأدب والذهب وأن الأدب لا يمكن ترده فى قصعة ، ولا صرفه فى ثمن سلعة ، الخ .

"تناسيت أيامك إذ تكلمنا نزرا، وتلحظنا شزرا، وتجالس من حضر، ونسترق اليك النظر، ونهتز لكلامك، ونهش لسلامك. فاقصد الآن فانه سوق كسد، ومتاع فسد، ودوله عرضت، وأيام انقضت :

وعهــد نفاق مضى وخطب كساد نزل
وخــدٌ كأن لم يكن وخــطٌّ كأن لم يزل

ويوم صار أمس، وحسرة بقيت فى النفس، وثغر فاض ماؤه فلا يرشف، وريق خدع فلا ينشف، وتمايل لا يعجب، وتثن لا يطرب، ومقلة لا تجرح ألحاظها، وشفة لا تفتن ألفاظها! وقد بلغنى الان ماأنت متعاطيه من تمويه يجوز بعد الفلق، فى الغسق... و إفنانك لتلك الشعرات حفا وحصا. وسيكفينا الدهر مؤونة الانكار عليك، بما يزف من بنات الشعر وأمهاته اليك.

ما يفعــل الله باليهود ولا بعــاد ولا ثمــود
ولا بفرعون إذ عصاه مايفعل الشعر بالخدود (١)

وهى رسالة طويلة اكتفينا منها بهذه الفقرات، وقد تأثر بهذه الرسالة وحاكاها فى أسلوبها وموضوعها جماعة من الكتاب أشهرهم فى المتقدمين أبو المغيرة الوزير عبد الرحمن بن حزم الأندلسى (٢) وأشهرهم فى المتاخرين المرحوم الشيخ عبد العزيز جاويش.

٧ -- ولو كان لبديع الزمان غرض يرمى اليه فى مجموع كتاباته لوصل الى أبعد حدّ من حدود النجاح لأنه أبرع من حمــل القلم بين أهل عصره، ولا نعرف كاتبا التزم السجع ووفق الى الدقة والرشاقة والعذوبة كما وفق بديع الزمان. والقاعدة التى اختارها أساسا لفلسفته وهى سوء الظن بالنــاس تلاشى أثرها فى مقاماته لأنه أعطى لبطل تلك المقامات صــورة مشوّهة هى صورة الاستجداء، ثم التزم منهجا واحدا لا يختلف إلا قليلا بحيث لا يبدأ القارئ إلا وهو يعلم ما ستنتهى اليه المقامة.

ومهما يكن من شىء فلن يمكن نكران ما وفق اليه بديع الزمان من نقــد طائفة كبيرة من خصال اللؤم والنفاق والضعة والإسفاف، وما الى ذلك من الهنات التى يوصم بها من تساعدهم الظروف على التغلب والاستعلاء، ثم لا يكونون فى أنفسهم وفى سلوكهم إلا برهانا على فساد الحياة ونقص الأحياء.

---

(١) (٨٤ — ٨٨). (٢) الذخيرة ج ١ ص ٦٦

١٧ - عبد العزيز بن يوسف

١ — كان أبو القاسم عبد العزيز بن يوسف كما وصفه الثعالبى «أحد صدور المشرق، وفرسان المنطق»[(١)] وكان مع تقلده ديوان الرسائل لعضد الدولة طول أيامه معدودا فى وزرائه، وخواص ندمائه، وتقلد الوزارة بعده لأبنائه[(٢)] . وكان الصاحب بن عباد يقول: كتاب الدنيا أربعة : الأستاذ ابن العميد وأبو القاسم عبد العزيز بن يوسف وأبو إسحاق الصابى، ولو شئت لذكرت الرابع[(٣)]، يعنى نفسه .

وجملة أخباره تدل على أنه كان فى زمانه من أعلام الكتّاب .

٢ — ويظهر مما أثر من أخلاقه أنه كان رجلا كريم النفس . وقد شفع لأبى إسحاق الصابى عند عضد الدولة فى ساعة غضب، وتفصيل ذلك أن قوما سعوا لإخراج الصابى من السجن فقال عضد الدولة «قد سوّغته نفسه : فان عمل كتابا فى مآثرنا وتاريخنا أطلقته» فشرع الصابى فى محبسه فى تأليف كتاب فى أخبار بنى بويه، وقيل إن بعض أصدقائه دخل عليه الحبس وهو فى تبييض الكتاب وتسويده فسأله عما يعمله فقال : أباطيل أنمقها، وأكاذيب ألفقها» فخرج الرجل وأنهى ذلك الى عضد الدولة — ودسائس الأصدقاء كثيرة يعانيها الأحرار فى جميع الأزمان ! — فأمر عضد الدولة بإلقاء الصابى تحت أرجل الفيلة، فأكب أبو القاسم عبد العزيز بن يوسف ونصر بن هارون على الأرض يقبلانها ويشفعان اليه فى أمره حتى أمر باستحيائه[(٤)] .

٣ — والظاهر أن صلته بالصاحب والصابى كانت صلة وداد، ورسائله الى الصاحب كثيرة، ولكن تغلب عليها صفة التودد المشوب بالتملق[(٥)] . أما رسائله الى الصابى فتفيض بالعطف والحنان .

---

(١) اليتيمة ج ٢ ص ٧٦ (٢) اليتيمة ج ١ ص ٨٧ (٣) ياقوت ج ١ ص ٣٢٨ (٤) ياقوت ج ١ ص ٣٢٥ (٥) راجع هذه الرسائل فى اليتيمة ج ٢ ص ٩٢ — ٩٤

وآنظر هذه الرسالة :

« وصل كتاب مولاى بما قرب الىَّ جناه ، وبعد علىَّ مداه ، من محاسن لفظه ونظمه ، ومبارِّه التى ما يزال يؤثرنى فيها بالرغائب ، ويصفينى منها بالعقائل . فوقفت منه بين آعتبار واقتباس ، وآعتدار وآغتباط ، وآستبصار فى موضع الفضيلة ، وشكر لما جمع الله لى فى وده من المنح الجزيلة ، ووجدت خطابه مفتتحا بشكوى الأيام فى انحرافها ، ومكاره أحداثها . فاستوحشت منها لاستيحاشه ، وآستعديت عليها لاستعدائه . وشايعت المهجنين لآثارها ، والزارين على أحكامها ، لاعتراضها دون آماله ، وقدحها فى أحواله ، ولم يستبق الجمال لنفسه والفضل لأهله ، دهرٌ(١) أناخ على مولاى بصرفه ، وآختزله دون واجب حقه » .

٤ — وتمتاز رسائله فى الاخوانيات بترصيعها بحبات شعره ، فقد آبتدأ إحدى رسائله الى الصاحب بهذه الأبيات :

كتابٌ لو آن الليل يرمى بمثله ... لألقت يدا فى حجرتيه ذُكاءُ

تهادى بأبكار المعانى وعُونها ... وأعيان لفظ ما لهن كفاء

شواهد لولا أنهن أوالف ... ضرائر إلا أنهن سواء

لبسنا بها نعمى وألبست الربا ... خمائل روض جادهن سماء

بنان آبن عباد تعلين نوءه ... وما صوبه إلا حَيًّا وحِباء

وثلاث(٢) كتب تناظرت فى الحسن والاحسان ، وتقابلت فى البر والإنعام ، لا زالت أياديه قلائد الأعناق ، ومراميه مضامير السباق ، ولا آنفكت عين الله حامية له ، وكافلة(٣) به .

ويظهر أن الصابى كان كذلك يرصع رسائله بالشعر بدليل قول أبى القاسم من رسالة ثانية :

«وقفت على الابيات التى أتحفنى بها سيدى ، وتكلفت لجوابها على ظلع فى خاطرى لطول السفار ، وآتصال حالى بالحل والترحال . ومولاى يأخذ العفو ويرضى بالميسور ، ويعذر

(١) اليتيمة ج ٢ ص ٩٤ (٢) معطوف على (حيا وحباء) وبذلك يتبين القارئ مهارة الكاتب فى وصل الشعر بالنثر فى سياق واحد . (٣) اليتيمة ج ٢ ص ٩١

مستأنفا على التقصير فى جواب ما يأتينى من أمثاله، مادمنا فى ملكة الدواجر، وتعب البُكر والأصائل» (١) .

٥ — ومن الفنون البارزة عند أبى القاسم وصف الرسائل الاخوانية؛ كقوله فى وصف رسالة للصابى :

«عرفت كيف تنتظم فرق البلاغة ، وتلتق طرف الخطابة، وتتراءى أشخاص البيان ، وتمايل أعطاف الحسن والاحسان، وقرأت لفظا جليا، حوى معنى خفيا، وكلاما قريبا ، رمى غرضا بعيدا، وفصولا متباينة كساها الائتلاف صور المشاكلة ، ومنحها الامتزاج صيغة المضارعة، ولحمة الموافقة، فصارت لدلالة الأول منها على الثانى، وتعلق العجز فيها بالهادى، أولاد أرحام مبرورة، وذوات قربى موصولة ، تتعاطف عيونها، وتتناصف أبكاها وعُونها» (٢) .

٦ — وعند تأمل رسائله نجده يحسن الوصف . كقوله من كتاب له الى الصاحب فى فتح عمان وإبادة الزنوج بها وما وصل الى عضد الدولة من المغانم :

« ... وكانت لأولئك الكفرة عادة آشتهرت منهم فى آستباحة النـاس وأكل لحومهم ، وبلغ من كلبهم على ذلك أنهم كانوا يتنقلون بينهم اذا شربوا بأكف النـاس ، وسأل مولاى عن هـذا النقل الغريب فحكى لى عنهم أنه لا شىء فى الانسان ألذ من كفـه وبنانه ، وكان فى ذلك اليوم الذى شارف فيـه طلائع العسكر المنصور باب عمان ثار من بعض المكامن طوائف من أولئـك الكلاب فكبا ببعض الغلمان دابتـه فآختلسوه وآقتسموه بينهم وأكلوه فى الوقت، وتعجب الناس من ضراوتهم وقساوتهم، وقد أبادهم الله تعالى جده، وطهر البر والبحر من عبثهم ومعرتهم، فآنقاد أهل جبال عمان باخعين بالطاعة، معتصمين بذمة الجماعة، وتمت نعمة الله على مولانا فى هذا الفتح، وجلت له مغانم الأجر، ووصل أمس غنائم تلك النـاحية وفيها فيل صغير بقـدّ الفرس ما عرف آلطف ولا أظرف منـه ، وفى الغنائم كل ما تشتهى

(١) ص ٩٢ (٢) ص ٩٣

الأنفس وتلذ الأعين . والله تعالى يحبى مولانا ثمار الأرض برا وبحرا، وسهلا وجبلا، بمنه وكرمه . آمين ".

٧ — وكانت له بحكم منصبه جولات فى الرسائل السلطانية، نذكر منها قوله من كتاب عن الطائع لله الى ركن الدولة لما ورد عضد الدولة العراق :

"وأنت وعضد الدولة — كلأ كما الله ! — يدا أمير المؤمنين فيما يأخذ ويذر، وناظراه فيما يقرب ويبعد، بكما افترش مهاد الملك بعد انقضاضه، ورفع منار الدين بعد انخفاضه، فأبشرا من الله تعالى بالحسنى، إن الله لا يضيع أجر المحسنين"[1] .

ومن كتاب عن عضد الدولة فى عود الطائع الى بغداد والتقائه معه :

"ولما ورد أمير المؤمنين بالنهروان أنعم بالاذن لنا فى تلقيه على الماء، فامتثلناه وتقبلناه وتلقانا من عوائد كرمه، ونفحات شيمه، والمخائل الواعدة بجميل آرائه، وعواطف أنحائه، ورعاية ما كنتفنا بمنه، وشايعنا عزه، الى أن وصلنا الى حضرته البهية، فى الحديدية، التى استقبلت منه بسليل الملك، وقعيد الخلافة، وسيد الأنام، والمستنزل بوجهه در الغمام، فتكفأت علينا ظلال نوره وبشره، وغمرتنا جهات تفضله وفضله، وقرب علينا سنن خدمته، وأنالنا شرف القعود بين يديه، على كرسى امر بنصبه لنا عن يمينه، وأمام دسته، وأوسعنا من جميل لقياه، وكريم نجواه، ما يسم بالعز أغفال النعم، ويضمن الشرف فى النفس والعقب، ويكفل من الفوز فى الدين والدنيا بغايات الأمل . وكان لنا فى الوصول اليه، والقعود بين يديه، فى مواقع ألحاظه، وموارد ألفاظه، مراتب لم يعطها أحد فيما سلف، ولم تجد الأيام بمثلها لمن تقدم"[2] .

٨ — وليس بين أيدينا من أخباره ورسائله ما يعطينا صورة صحيحة من نفسه وأخلاقه، والذى يمكن الجزم به أنه كان دقيق العبارة رصين الأسلوب، والى القارئ هذه الكلمات مقتبسة من رسائله القليلة التى أعفاها الزمان من الضياع .

(١) ص ٨٧ (٢) ص ٨٨

"وأجنهم الليل فادرعوه مقتادين بخزائم أنوفهم، الى مصارع حتوفهم" .

"سار الى سدّة دار الخلافة والسعود تشايعه، والميامن تواكبه، وطلائع الآمال تشرف عليه، وثغر الاسلام يبتسم اليه" .

"وقد كان الغضنفر بن حمدان حين نفضته المذاهب، ولفظته المهارب، وأقلقته عن مجاثمه المكايد والكتائب، تطوع الى بلاد الشام يتنقل بين مصارع يحسبها مراتع، ومجاهل يعدها معالم، يروم انتعاشا والجد خاذله، ويبغى انتياشا والبغى طالبه" .

"ولما ضاق عن هذا المخذول حلمنا باتساع غوايته، ووعر الطريق الى استبقائه، استخرنا الله تعالى فى استرجاع ما ألبسناه من النعم" .

" إن الله سائلك عن الخَطرة والخَطفة، واللحظة واللفظة " .

" ادَّرعْ من ثوب عفافك، ما يشمل كافة أطرافك " .

" احذروا أن ينقلكم الله بأقدامكم، الى مصارع حمامكم " .

" التقوى هى العدّة الوافية ، والجُنة الواقية ، والتجارة الرابحة ، والسعادة السانحة ، والجلاء للشبهة، والضياء للغمة " .

" سيعيض الله من حَرّ الهواجر بَرد الظلال، ومن قلق الركاب، نجح الإياب " .

" أيقظوا قلوبكم من سِنة الخواطر، واحبسوا ألحاظكم عن محظور المناظر " .

الفهرس المفصل

الباب الرابع

كتاب النقـــد الأدبي

٦ — أبو القاسم الآمدى

٧ — أبو هلال العسكرى

٨ — كتاب الصناعتين

الباب الخامس

كتاب الآراء والمذاهب